أدهم شرقاوي
" قس بن ساعدة "

# وَالَّذِينَ مَعَهُ

## الصحابة كما لم تعرفهم من قبل

kalemat

ساحر الكتب

والَّذِينَ مَعَه

الصَّحَابَة كما لمْ تعرِفْهُم من قبل!

أدهم شرقاوي

«قِس بن سَاعِدة»

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

الكويت - المرقاب - ق1 - ش عبدالله المبارك - برج NBT. - دور 9

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-809-33-6

طبع في مطابع الخط - الكويت

# الإهداء!

لِيَصِلَ إلينا هذا الدِّين حُوصِرَ الصَّحابةُ في الشِّعب،

وهاجرُوا إلى الحبشَة،

وبلغتْ قلوبُهم حناجِرَهم يوم الخندق!

هذا الدِّينُ لم يَصِلْ إلينا على طبقٍ من ذهبٍ،

وإنَّما على طبقٍ من تَعَبٍ!

لقد وصَلَنا على أجسادِ الصَّحابةِ التي نخَرَتْها الرِّماحُ، وقطَعَتْها السُّيوفُ!

وَصَلَنا على أنهارٍ من دمائهم، وجبالٍ من أشلائهم!

وصَلَنا بأموالهم، وهجرتهم، وجهادهم، وثباتهم!

يا أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ هذا الكتابُ مُهدىً إليكم واحداً واحداً!

جزاكم الله عنَّا وعن الإسلام خير ما يجزي به عباده الصَّالحين!

## مقدّمة:

الحمدُ للهِ الذي خلقَ واصطفى، فاختارَ لدينِه رُسُلاً هم صفوة الخلقِ من النّاس، واختارَ لرُسُله أصحاباً هم خير النّاسِ من بعد الرُّسل!

والصّلاة والسّلامُ على أشرفِ مخلوقٍ، وأطهرِ إنسانٍ، وأرفعُ نبيٍّ! المُتبّث بربّه، والمُؤيّدُ بالوحي، والمشدود أزره بأصحابه!

أمّا بعد:

فهذا كتابٌ منّ اللهُ عليّ تمامه، وقد عنونته بعنوان: والذين معه، الصّحابة كما لم تعرفهم من قبل!

وهو كتابٌ جديدٌ في طرحه، ولا أحسبُ أنّ أحداً قد تناول شخصيات الصّحابة من هذه الزّاوية!

الكتاب قائمٌ على فكرة أنّ لكل إنسان منا «كاراكتار»، أو سِمة غالبة ومُحرِّكة لشخصيته!

فإذا فهمنا هذه السّمة، استطعنا فهم تصرفات هذا الشّخص، بل والتنبؤ بما قد يفعل أو لا يفعل!

والصّحابة بشرٌ، ولكل واحدٍ منهم تركيبته النّفسية، وسِمّة غالبة على شخصيّته، يمكن باكتشافها فهم البواعث الكامنة وراء تصرفه في موقف ما، فنجد أن المواقف على اختلافها تخرج من مشكاةٍ واحدة!

وقد ابتعدتُ عن الترجمة، بمعنى وُلد وتزوج وأنجبَ ومات، فهي

كثيرة في كتب التّراجم!

وركزتُ على المواقف والأحداث وتفاعل الشّخصيّة الصّحابيّة داخلها!

وقد تناولتُ في هذا الكتاب بالدّرس والتحليل أربعين صحابيًّا، ويكفي من القلادة ما أحاطَ بالعُنق! وإلا فإنّهم جميعاً رضوان عليهم نماذج تُحتذى، وقُدواتٌ تُمتثل، ولكن تناولهم جميعاً لا يكفيه الموسوعات، فأردتُ أن أرمي بسهمٍ، علّ الله يجعله سبباً لمن يأتي بعدي فيرمي بالكنانة كلها!

لم أتّبِعْ في ترتيبهم في هذا الكتاب على الأفضليّة، فهذا علمه عند ربي، اللهمّ أني بدأتُ بالخلفاء الراشدين على التّرتيب الذي حكموا فيه، وقد أجمعت الأُمّة على أنهم في الفضل على هذا الترتيب، أبو بكر فعمر فعثمان فعليّ، وأما البقيّة فكلهم مهج القلوب، ونور الأعين، ولكن إدراجهم في الكتاب بعضهم قبل بعض لا لسبب غير أنّ الله قضى على يديّ هذا!

فاللهمّ إن كان خالصا لوجهك الكريم، فضع له القبول، وبلّغه عني!

وإن كان غيرك ذلك، فالأمر إليك من قبل ومن بعد!

# أبو بكرٍ الصدِّيق!

أبو بكرٍ لم يكن نبيًا، ولكنّه لم يكن أيضاً من النّاس، كان يقفُ وحده في مرتبةٍ فريدة، أدنى من الأنبياء قليلاً، وأعلى من النّاس كثيراً!

وإنّي أكاد أجزمُ أنّه منذ هبوطِ آدم عليه السلام إلى الأرض، وحتّى البِعثة الشّريفة، لم يحظَ نبيٌ قطُّ بصاحبٍ حظوة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم بأبي بكرٍ!

شخصيّةُ أبي بكرٍ تبلغُ الكمال أو تكاد، ولستُ أعلمُ موقفاً من مواقفِ حياتِه كان بالإمكان أن يكون أفضل من موقفه ذاك! ومع رجلٍ بهذه الصّفات يبدو من العسير الحديث عن سمَةٍ مُمَيّزةٍ وطاغيةٍ على شخصيته، ذاك أنّه له في كلّ قوسٍ سهماً وفي كلّ طريقٍ خطوةٍ!

آمنَ فكان إيمانه فريداً، ودافع عن النّبيّ ﷺ فكان دفاعه مُستميتاً، وأعتقَ العبيدَ فكان إعتاقه مبروراً، وجهّز الجيوش فكان تجهيزه مشكوراً، وقاتل فكان قتاله فتحاً، وحَكمَ فكان حُكمُه عدلاً!

ولكنّ المتأمّل في سيرة أبي بكرٍ تأمُّلاً مُطوّلاً ومُستفِيضاً، يلحظ سمَةً لازمته في إيمانه، وفي صحبته، وفي خلافته، وهي شخصيّة: الجنديّ المطيع!

أبو بكرٍ هو الوحيد من بين الصّحابة الذي لم يخالف النّبيّ ﷺ في موقف قطُّ، ولم يكن له رأيٌ غير رأيه، كان بين يدي النّبيّ ﷺ كالميّتِ بين يدي مغسّله، حيثما قلّبَه انقلب، وحيثمّا أداره استدارا! ومخطئٌ جداً من يعتقد أنّ هذه السّمةُ مرادِفةٌ لضعفِ الشّخصيّة،

ولكنّه كمال الإيمان الذي لم يبلغه أحد كما بلغه أبو بكر!

أبو بكر أثبتَ يومَ وفاةِ النّبيِّ ﷺ أنّه جبل، ويوم السّقيفةِ أنّه حكيم، ويوم الرّدة أنّه جنرال، وطوال فترة خلافته كان رجلَ دولةٍ من الطّرازِ الرّفيع!

شخصيّةُ الجنديِّ المطيعِ برزت في أبي بكرٍ منذ أوّل خطوة خطاها في رَكب هذا الدّين العظيم، ولازمته حتّى فاضت الرّوح الطّاهرة إلى بارئها! لم تغادره لحظةً، ومن الغريبِ المدهش أنّ هذه الشّخصيّة برزت بعد وفاة النّبيّ ﷺ أكثر وضوحاً وتأكيداً عمّا كانت عليه في حياته، وهذه أكملُ مراتبِ الجُنديّة والاقتداء!

شهادةُ المرءِ في نفسه مجروحة، أمّا شهادة النّاس فيه مقبولة، ولكن عندما تكون الشّهادة من النّبيّ ﷺ فهذا أرفع وسامٍ يمكن أن يتقلّده المرء!

يقول النّبيُّ ﷺ: ما عرضتُ الإسلام على أحدٍ إلّا كانتْ له كبوةٌ عدا أبي بكرٍ، فإنّه لم يتلعثمْ!

هذه هي شخصيّة أبي بكرٍ، هذا هو الجنديُّ المطيع الذي أسلمَ زمام أمره لقائده وقدوته منذ اللّحظة الأولى، كان مهيّئاً بإتقانٍ ليكون صدّيق هذه الأمّة، ولا تُدرك هذه الرّتبة إلا بكمال الطّاعة!

حادثة الإسراء والمعراج كانت واحدةً من أكثر الحوادث التي تجلّتْ فيها شخصيّةُ الجُنديّ المطيع المحرّك الرّئيس لشخصيّة أبي بكر، والسّمة الغالبة عليه من بين كلّ سمات شخصيّته الفاضلة!

خرجَ أبو جهلٍ من بيته لبعضِ شأنه، فمرّ بالكعبة، وأبصر النّبيّ

ﷺ جالساً بفنائها مُتفكّراً. وكعادتِه أراد عدوُّ الله أن يلدغَ النّبيّ ﷺ بلسانٍ شخريته المُعتادة، فاقترب منه، وقال له: أوَلَمْ يأتِك اللّيلة شيءٌ جديد؟!

فرفع النّبيُّ ﷺ رأسه، وصوّب بصره نحوه، وقال له: نعم، أُسرِيَ بي اللّيلةَ إلى بيتِ المقدِس بالشّام!

فقال أبو جهلٍ مستنكراً: وأصبحتَ بين أظهُرِنا؟

فقال النّبيُّ ﷺ: نعم!

فرآها أبو جهلٍ فرصةً سانحةً لقضِّ مضاجِعِ الدّعوة، فصاح بأعلى صوته: يا بني كعبِ بن لؤيٍّ، هَلُمّوا!

فأقبلت قريشُ يُنادي بعضها بعضاً حتّى اجتمعوا عند أبي جهلٍ!

فقال لهم: يا معشرَ قريشٍ، إنّ محمّداً يزعمُ أنّه قد أُسرِيَ به اللّيلة إلى بيت المقدس في شطرِ ليلة!

ولم يكن النّبيُّ ﷺ قد حدّث أحداً من أصحابه بالخبر، فجعلوا يسألونه: أحقّاً أُسرِيَ بكَ اللّيلة يا رسول الله؟!

وهو يجيبهم: نعم، وصلّيتُ بإخواني الأنبياء هناك!

وشكّ بعض الذين كانوا قد أسلموا بالحادثة، ورجعوا القهقرى إلى دينهم الباطل الذي كانوا عليه، أما الأكثريّة فثبتها اللّهُ على دينه!

حدث كلُّ هذا وأبو بكرٍ لا خبر عنده عن الأمر برُمّتِه، ووجدتها قريشُ فرصةً سانحةً لتدقّ إسفيناً بينه وبين صاحبه، فأبو بكر لم يكن شخصاً عاديّاً، ولا غمراً في غِمارِ النّاس، كانت له منزلته التي

جعلت قريشاً تضطرب اضطراباً بإسلامه.

وهي الآن تُمنّي نفسها أن تعيدَ الرّجل إلى دينها، كيف لا وأبو بكرٍ هو العاقلُ الحصِيفُ الذي يعرفونه، فالمسافة بين مكة وبيتِ المقدس تُقطعُ بالأيّامِ الطّوال، والمسير المُضني، والقولُ بفِعلِ هذا في شطرِ ليلةٍ كفيلٌ بأن يهدمَ ما كان بين الصّاحبينِ من ثِقَةٍ!

مَضَوا إلى بيتِ أبي بكرٍ مُهَروِلِينَ، ولمّا وصَلُوا إلى بابِه، نادَوا بأعلى أصواتهم: يا عتيق، كلُّ أمرِ صاحبِك كان قبل اليومِ أمَماً، أي بسيطاً، أمّا الآن فاخرُجْ لتسمعَ:

فخرج إليهم أبو بكرٍ والدّهشةُ باديةٌ عليه وقال: ما وراءَكُم؟

فقالوا: صاحبُك!

فقال: ويحِكُم، هل أصابَهُ سوءٌ؟

فقال قائلهم: إنّه هناكَ عند الكعبة، يُحدّثُ النّاس أنّ ربّهُ: أسرَى به إلى بيتِ المقدسِ، ذهب ليلاً، وعاد ليلاً، وأصبح بين أظْهُرِنا!

فقال لهم أبو بكرٍ: وأيّ بأسٍ في هذا؟ إنّي لأُصَدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أُصَدّقُه في خبرِ السّماء يأتيهِ في غدوةٍ أو روحةٍ، إن كان قال فقد صدق!

أرادت قريشٌ بمجيئها إلى بيتِ أبي بكرٍ أن تُنزلَ عليه خبر الإسراء كالصاعقة، فنزل إيمانه وتصديقه بالنّبيّ ﷺ عليهم كالصاعقة، إنّها القذيفة الخالدة التي أطلقها أبو بكرٍ في وجوههم: إن كان قال فقد صدق!

إنّها الجُنديّة المطيعة في أبلغ وأبهى صورها، إنّه التّسليم الكامل الذي لا يُخامِرْه شكٌ، والتّصديقُ الكاملُ الذي لا تشوبه شائبةٌ!

ولو أنّ النّبيّ ﷺ قد حدّث أبا بكرٍ بنفسه عن الحادثة، فسمع منه أبو بكرٍ وصدّقه، لكانت مظهراً من مظاهرِ الجُنديّة المطيعة، ولكن أن تُحدّثَه قريشُ نفسها، فيصَدّق صاحبَه ونبيّه دون أن يسمعَ منه، فهذه مرتبة لم يبلغْها إلّا أبا بكرٍ!

في صلحِ الحُديبِية تجلّت سِمَةُ الجُندِيّ المطيعِ في شخصيّة أبي بكرٍ تجلياً لا يخفى على المتصفّح للحادثة تصفُّحاً سريعاً، فكيف تخفى على المتعمّقِ فيها!

إنّها السّنة الخامسة من الهجرة الشريفة، أطلّ فيها شهر ذو القعدة برؤيا النّبيّ ﷺ أنّه يعتمرُ وأصحابه في مَكّة: فسار إليها في أصحابه، وساق الهَدْيَ أمامه لِتعلَمَ قريشُ أنّه ما جاء لقتالها، وإنّما ليعتمر ويرجع!

ولكنّ قريشاً رأث في هذا كسراً لشوكتها، وفضيحةً لها بين العرب، فعزمت أن تصدّهم عن البيت العتيق!

عسكرَ النّبيُّ ﷺ بأصحابِه في الحُديبية، وهناك بدأت المفاوضات والوساطات، التي انتهت بتوقيعِ الوثيقةِ التي قضت بعودةِ النّبيِّ ﷺ وأصحابه عامَهم هذا إلى المدينة، على أن يرجعوا في السّنة التي بعدها، وأن يردّوا من جاءَهم مسلماً من قريشٍ بينما لا تردُّ قريشُ إليهم من فارقهم إليها!

وما كاد النّبيُّ ﷺ يمهُر الوثيقةَ بخاتمه الشّريف، حتّى دخل أبو

جندل ابن سهيل بن عمرو، الرّجل الذي تولّى المُفاوضات مع النّبيّ ﷺ عن قريشٍ، جاءَه مُسلماً هارباً بدِينه من قريشٍ!

الصُّلحُ أُبرم، والعهدُ وُقِّع، والنّبيُّ ﷺ لا يُخلِفُ العهود، على أبي جندلٍ أن يرجعَ إلى مكّة!

صاح أبو جندلٍ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتَتْرُكونِي أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسلِماً؟!

فواساهُ النّبيُّ ﷺ بقولِه: اِصبِر، وسيجعلُ الله لك مخرجاً!

وتنزِلُ هذه الحادثةُ على المسلمين كالصّاعقةِ، فهم قبلها لم يرضوا عن بنودِ صُلح الحُديبية، وأخذتهم عِزّةُ الإيمان، وغَضبةُ المُؤمن لله ورسولِه، فمكّة ديارُ المهاجرين منهم، فكيف يُمنعوا من ديارهم؟! والبيت الحرام لكلِّ العرب، فكيف يُمنع الأنصارُ عنه؟! وكيف يردُّوا من جاءهم مسلماً، ولا تردُّ قريشٌ إليهم من عاد منهم إليها؟!

وفي غمرة هذه المشاعر والتساؤلات تأتي حادثة أبي جندلٍ لتزيدَ الطّين بِلّة!

حتّى أنّ النّبيّ ﷺ قد أمرهم أن يذبحوا هَديَهم، ويحلِقوا رؤوسهم، فلم يجيبوه إلى ذلك، لا عصياناً منهم معاذ الله، ولكنّها عِزّة المُؤمن، وغضبه لدينه!

كانوا أكثر أدباً وحياءً أن يُراجِعوا النّبيّ ﷺ في شيءٍ قضى به، فخيّم الصّمت، غير أنّ عمر بن الخطّاب لم يتمالك نفسه، فقال للنّبيّ ﷺ: ألستَ نبيّ الله حقّاً؟!

فقال له النّبيُّ ﷺ: بلى يا عُمر!

فقال عُمر: فلِمَ نُعطِ الدّنيّة في ديننا؟

فقال له النّبيُّ ﷺ: يا عمر، إنّي رسولُ الله، ولستُ أعصِيه، وهو نَاصِرِي!

وكأنّ عمر لم يَشفِ غلِيلَه، ولم تهدأ غضبَته للهِ، فمضى إلى أبي بكرٍ، وألقى عليه الأسئلة التي ألقاها على النّبيّ ﷺ منذ قليلٍ!

فأخذ أبو بكرٍ يدَ عمر، وجذبها بقوّةٍ، وقال له: أيُّها الرّجل، إنّه رسول الله، ولن يعصِيهِ، وإنّ الله ناصِرُه، فاستمسِك بغرزِه، فو اللهِ إنّه على الحقّ!

مَا فاقُوا أبَا بَكرٍ يومَها بغضَبِهم لله ورسُولِه، ولكنّه فاقَهم جميعاً بكمال تسلِيمِه لأمرِ رسول الله ﷺ، ومرّة أخرى تجلّت فيه شخصيّة الجُندي المُطيع!

ثمّ ذبح الصّحابة الهَدْيَ، وحلقوا رؤوسَهم، وعادُوا أدراجَهم، ومضتْ الأيّام واكتشفُوا جميعاً أنّ ما اعتقدُوا أنّه صُلحٌ مُجحِفٌ كان فتحاً مبيناً، واكتشفنا نحن أنّه حين كان الجميع ينظُرون للأمر بعيونِهم كان أبو بكرٍ ينظُر بنورِ الله!

الجنديُّ المطيع ليس خوّاراً، ولا عديمَ الشّخصيّةِ، وليس عاجزاً عن اتّخاذِ القرار!

على العكس تماماً، فإنّ في داخله أسدٌ هصورٌ قيّدته طاعة قائِدِه، ولكن متى ما صارت زمام الأمور إليه انفلت هذا الأسد من قيوده، فسمِع الكون كله زئيرَه، وباللّحظة التي انتقل فيها النّبيّ ﷺ إلى الرّفيق الأعلى، انفلتَ الأسدُ الهصور الرّابض في أعماقِ أبي بكرٍ!

حافظَ على شخصيّة الجنديّ المطيعِ المجبول عليها، فلم يكن يحيد عن أمر قائده حتّى بعد موته، ولكنّ الأمور آلت إليه الآن، وصار في شدّة القرار!

إنّ فجيعةَ الإسلام بموتِ النّبيّ ﷺ لم يُبلسِمها إلّا أنّ أبا بكرٍ خلفَه على النّاس!

نزل خبرُ موتِ النّبيّ ﷺ على الصّحابةِ كالصّاعقة التي إذا أصابت شيئاً فأحالته رماداً! تزلزلت القلوب، وطاشت العقول، وليس أدلّ على هذا من حال عمر بن الخطّاب الشّديد الحازم المُلهَم، وقف بين النّاس شاهراً سيفه، صائحاً بأعلى صوته: إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله مات، وإنّه والله ما مات، ولكنّه ذهب الى ربّه كما ذهب موسى بن عمران! واللهِ ليرجِعَنّ رسولُ الله، فليُقَطِعنّ أيديَ رجالٍ زعموا أنّه قد مات! ألا، لا أسمع أحداً يقولُ إنّ رسولَ الله مات، إلّا فلقتُ هامَتَه بسيفي هذا!

ولكنّ أبا بكرٍ لا يشبِهُ النّاس، لا تُزلزِلُه المواقف العظيمة، ولا تُربِكه الحوادث الجسيمة، طوى جرحَه، وأزاحَ ألمَ فقدِه، ومشى بخطى ثابتةٍ إلى حُجرةِ عائشة، فإذا النّبيُّ ﷺ مسجّىً وعليه بُردةٌ، فكشَفَ عن وجهِهِ، وقبّله، وقال: بأبي أنتَ وأمّي، طبتَ حيّاً وميتاً، لا يجمعُ الله عليك موتتين، أمّا الموتة التي كتبها الله عليك فقد مِتّها!

ثمّ ردّ البُردةَ على وجه النّبيّ ﷺ، وخرج على النّاس، فإذا عمر ما زال يُحدّثهم، فدعاه إلى السّكوت فأبى إلّا أن يسترسِلَ في قوله، فلمّا رآه لا ينصت، أقبل على النّاس يكلّمُهم، فأقبلوا عليه مُنصِتِين، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيُّها النّاس من كان يعبدُ محمّداً فإنّ

محمّداً قد مات، ومن كان يعبُد الله فإنّ الله حيٌ لا يموت، ثمّ تلا عليهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

من كان يتوقّع هذا الثّبات من أبي بكرٍ؟!

أبو بكرٍ الرّجلُ الأسيفُ الذي يُبكيه القرآن، الرّقيق الذي يحلبُ لأيتام الحيّ أغنامهم، الهادئ الذي لا تأخذه سَوْرَةُ الغضب، والحاني الذي بالكاد يُسمع صوته، ولكنّ الأسد الهصور قد انفلت!

أبو بكرٍ لم يثبث وحده، أبو بكرٍ ثبّت الله تعالى به أمّة الإسلام كلّها!

وانظرْ إلى شخصيّةِ الجنديّ المطيع كيف تظهرُ في أكثر المواقف حُلكةً واضطّراباً، النّاس في هول الفاجعة، وأبو بكرٍ يُفكّر في الخطوة التالية!

لا يجمع الله عليك موتتين!

مات الجسد الشّريف، أمّا الرّسالة فستبقى حيّة إلى الأبد، وها هو الجنديُّ المطيع يستلمُ الرّاية من قائده ليكمِل دربه، استلمها هنا بهمّته وإيمانه وفهمه، واستلمها يوم السّقيفة ببيعةِ المسلمين!

إن كنتَ قد رأيتَ في ثباتِ أبي بكرٍ الأسيف الرّقيق يوم موت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عجباً، فإنّك لم ترَ من العجبِ شيئاً بعدا! لقد انفلتَ الأسد الهصور الآن وما عاد يقيّده شيء إلّا شخصيّة الجنديّ المُطيع التي ستبقى ضابطةً في كلِّ حدثٍ وموقفٍ!

ما كاد خبر موتِ النّبيّ ﷺ ينتشرُ بين قبائل العرب، حتّى ظنّ

الذين في قلوبهم مرضٌ أنّ الإسلام صار الآن مستباحاً، وأنّه يمكنهم أن يرجعوا سيرتهم الأولى، أو أن يأخذوا من الإسلام ما يعجبهم، ويتركوا منه ما لا يعجبهم!

أراد المُرتدّون أن يمتنعوا عن دفعِ الزّكاة، فرآها أبو بكرٍ بدايةً لتعطيل أحكام الإسلام حكماً بعد آخر، فعزم على قتالهم، وقال قولته المشهورة: أينقض الدّينُ وأنا حيٌّ!

شهَر الأسيفُ سيفَه، وقرع الرّقيق طبول الحرب، ولكن قبل أن يجمعَ الله الصّحابة على قلبه كان هناك أخذٌ وردٌّ، الخطبُ جللٌ، والقضيّة دماءٌ، والصّحابة وقّافون عندها!

ناقشه عمر بن الخطّاب يومها مُطوّلاً، ساق له الحُجّة، وأدلى عليه الرّأي، فأخذه أبو بكرٍ أخذاً شديداً، وأمسك بعباءته وهزّه، وقال له: ثكلتك أمُّك يا ابن الخطّاب، أجبّارٌ في الجاهليّةِ خوّارٌ في الإسلام؟!

والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة، ولو منعوني عِقالَ بعيرٍ كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه!

فشرح الله صدرَ عمر إلى رأي أبي بكرٍ، ومضت جحافل الصّحابة تُؤدّبُ المرتدّين، وتذودُ عن حياضِ هذا الدّين، فرَحِمَ اللهُ أبا بكرٍ كما حفِظ علينا ديننا!

وإنّك لو تأملت في المُداولات قبل قتال المرتدّين، لرأيتَ أنّ عمر بن الخطّاب أجدر أن يكون له رأي أبي بكرٍ، وأبو بكرٍ أجدر أن يكون له رأي عمر! فإنّك قبلها تعرفُ حزم هذا ورقّة ذاكَ! ولكنّ الجنديّ المطيع يسيرُ على شريعة قائده، ومستعدٌّ أن يُشعل حرباً ولا يُنتقص

من حقِّ القائد عِقال بعيرا!

أرأيتَ إلى أيِّ حدٍّ كان أبو بكرٍ يرى بنور الله؟!

وبين الجنديّة المُطيعة يوم وفاةِ النّبيّ ﷺ، وبين الجنديّة المطيعة يوم قتال المرتدّين، كان هناك موقفٌ أبلغ من كليهما ظهرت فيها شخصية الجنديّ المطيع الذي لا يحيدُ قيدَ أنملةٍ عن خُطى قائده!

كان النّبيُّ ﷺ قبل وفاته قد أعدّ جيشاً جعل عليه أسامة بن زيد ووجّهه إلى الشّام، وعسكرَ الجيش على بعد ثلاثةِ أميالٍ من المدينة قبل أن يمضي على بركة الله، غير أنّ وفاة النّبيّ ﷺ قد أجّلتِ المسيرا!

وبُويع أبو بكرٍ بالخلافة، وكان أوّل أمرٍ أصدرَه بَعْث جيش أسامة، ولكنّ فريقاً من الصّحابة رأى رأياً هو في ظاهره قمّة الحكمة والمنطق، أشاروا على أبي بكرٍ ألا يبعثَ جيشَ أسامة، فالمدينة الآن مطمع للمرتدّين، وعيونهم عليها، وغزوها واردٌ، وإبقاء جيش أسامة في المدينة فيه من الحرص والحكمة الكثيرا!

ولكنّ أبا بكرٍ لا يحيدُ عن أمر النّبيّ ﷺ، إنّه الجنديّ المطيع، وهو يجتهدُ فيما لا نصّ فيه، وبما لم يُصدر فيه القائد قراراً، أما وقد قال النّبيُّ ﷺ: أنفذوا بعث أسامة!

فإنّ أبا بكرٍ لا يتلكأ ولو كان الباعث على هذا صوت الحكمة والعقل!

فقال للصّحابة: أنفِذوا بعث أسامة، فو الله لو خطفتني الذّئابُ لأنفذتُ كما أمر رسول الله ﷺ، وما كنتُ لأردّ قضاءً قضاه!

سلّمَ الصّحابة لأبي بكرٍ بإنفاذ جيش أسامة، ولكن اقترح بعضهم

تعديلاً خفيفاً، ألا وهو عزل أسامة لصِغَرِ سِنّه، وقلة خبرته العسكريّة، وفي الجيش كِبار الصّحابة من المهاجرين والأنصار! وهو رأيٌ لا تغيبُ عنه الحكمة، والاجتهاد لصالح المسلمين!

وكان عمر بن الخطّاب هو الذي نقل إلى أبي بكرٍ هذا الرّأيَ الذي رآه كثيرٌ من الصّحابة!

ولم يكد عمر يُنهي كلامه حتّى غضِب أبو بكرٍ غضباً ما غضِبَ قبله ولا بعده مثله! وثبت من مكانه، وأخذ بِلحيَة عمر، وقال له: ويحك يا ابن الخطّاب، أيُوَلّيه رسول الله، وتأمرني أن أعزِلَه؟!

أمرٌ صدر من القائد، فلا اجتهاد بعده ولا رأي، وإن كانت الحكمة هي الباعث، والتّروّي هو المُحرّك، والمصلحة هي الدّافع! الجنديُّ المطيع دائماً على خطى قائده، وأبو بكرٍ عاش على خُطى النّبيّ ﷺ! ومات على خطى النّبيّ ﷺ!

فاللهمّ اجزِهِ عنّا خيرَ ما جزيت رجلاً عن دين الإسلام!

# عُمر بن الخطّاب!

كلُّ الصّحابة جاؤوا إلى الإسلام بالدّعوة، وحده عمر بن الخطّاب جاء إلى الاسلام بالدُّعاء! كان إجابةً لدعاء النّبيّ ﷺ: اللهمّ أعزّ الإسلام بأحبّ الرّجلين إليك، عمر بن الخطّاب أو عمرو بن هشام!

هكذا بدأت الحكاية، دعاء نبيٍّ جذبه من مستنقعِ الشّرك إلى قمّة التّوحيد، واستلّه من دار النّدوة القُرشيّة إلى دار الأرقم المحمديّة!

ولأنّ النّاس معادن خِيارهم في الجاهليّة خِيارهم في الإسلام إذا فقهوا، كان عمر الجاهليّ مهيّئاً بإتقانٍ ليكون عمر الفاروق!

كلُّ ما كان ينقصه إعادة هيكلةٍ وصياغة، وليس أقدر من الإسلام على هيكلةِ النّاس وصياغتهم من جديد! فالإسلام لا يُلغي الطبائع وإنّما يُهذّبها، ولا يهدِم الصّفات وإنّما يصقلها، وفي الاسلام هُذّبَ عمر وصُقِلَ حتّى صار واحداً من الذين لا يأتون إلّا مرّةً واحدةً في التّاريخ!

عمر بن الخطّاب شخصيّة فريدة تكادُ تُلامس حافّة الكمال، له في كلّ أذانٍ إقامة!

فإن كان الميدان في الشّجاعة فهو المقدام، وإن كان في الصّدقة فهو الجواد، وإن كان في الرّأي فهو المُحدّث المُلهَم، وان كان في العقيدة فهو الفاروق، وإن كان في الرّحمة فهو الأمُّ الرّؤوم، وإن كان في العبادة فهو الرّاهب، وإن كان في الزُّهد فهو القانع، وإن كان في الحُكمِ فهو الميزان!

غير أنّ سِمَةً واحدةً لازمتهُ في جاهليته وإسلامه، وفي صحبته

وخلافته، ألا وهي الحزم! عمر لا يعرفُ أنصاف المواقف، ولا رماديّ الحلول، حيثمّا كان يكون بكلّه، كالصّاعقةِ يهبطُ على الموقف بكلّ ما فيه ولا يتجزّأ!

ولنفهم جيّداً هذه السّمة الغالبة على شخصيّة عمر، والمُحرّكة له، علينا أن نعرف أن الحزمَ، لا يتنافى مع الرّحمة! فليس بين الصّفتين تناقضٌ ولا تعارض، ولا تنافر أو تضاد، إنّ القسوة هي التي ضدّ الرّحمة، وعمر بن الخطّاب كان حازماً ولم يكن قاسياً، ولكن لأنّ الحزم في كثيرٍ من مواقفه يرتدي عباءة القسوة يخلطُ النّاس بينهما!

في الليلة التي سبقت إسلام عمر بن الخطّاب، أمضى ساعاتٍ مُتفكّراً في أمر النّبيّ ﷺ، وفي الذي أحدثه في قريشٍ، فقرّر أن يقتله، ثمّ يذهب إلى بني هاشم فيسلّمَهُم نفسه ليقتلُوه به، وهكذا ترجعُ مكّة سيرتَها الأولى!

وفي الصّباح امتشقَ سيفه، ومضى عازماً على تنفيذِ ما خطَرَ له، وفي الطّريق لقِيَ نعيم بن عبد الله العدويّ، وكان قد أسلم وأخفى إسلامه، فسأله نعيم: إلى أين يا عمر؟

فقال له عمر: أريدُ محمّداً الذي فرّق أمر قريشٍ، وعاب دينها، لأقتله!

فقال له: واللهِ غرّتكَ نفسك، أترى بني عبد منافٍ تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمّداً، أفلا ترجع إلى أهلكَ فتقيمَ أمرهم؟!

فقال له عمر: وأيّ أهلي؟

فقال له: ابن عمّك وأختُك فاطمة، قد أسلما والله!

لم يجد نعيمٌ غير هذه الوِشاية يردُّ بها شرّ عمر عن النّبيّ ﷺ، لقد اختار أيسر الشرّين ليَسلمَ النّبيُّ ﷺ، ولكنّه ما علِمَ أنّه قد أرسله إلى أجمل لحظات عمره!

ذهب عمر غاضباً قاصداً بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، فلّما دنا من الباب سمع صوت خبّاب بن الأرت يُقرئهُما القرآن، فطرق الباب طرقاً شديداً، وقال: افتحوا!

فاختبأ خبّاب من فوره، وفتح سعيدُ الباب، فدخل عمر غاضباً وقال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكما؟!

فقالت فاطمة له: ما سمعتَ شيئاً، كنتُ وسعيداً نتحدّثُ في بعض أمرنا!

ولكن هذا الكلام لم ينطلِ على عمر، فقال لها: يا عدوّة نفسِها، أصبوتِ؟

فسكتتْ ولم تُجبْ، فقال له سعيد: يا عمر، أرأيتَ إن كان الحقُّ في غير دينك؟!

فلم يحتملها عمر منه، فضربه ضرباً شديداً، فقامت فاطمة لتزيحه عنه، فضربها على وجهها فسال دمُها، عندها قالت له وهي تمسحُ الدّم عن وجهها: يا ابن الخطّاب اصنع ما شئتَ، فقد أسلمتُ!

فلمّا رأى عمر الدّم على وجه أخته رقّ قلبُه لها، وقبل أن يتكلّم رأى الصّحيفة التي كانوا قد أخفوها عنه قبل دخوله، فقال: أهذه التي كنتما تقرآن بها؟ أعطوني إيّاها!

فقالت له: إنّك رِجسٌ، وإنّه لا يمسّه إلّا المطهّرون!

وكانت تلك المرّة الأولى التي يشعرُ فِيها عمر بذلِّ الشِّركِ!

فقام واغتسل، ثمّ أخذَ الصّحيفة، وقرأ فيها مَطلع سورة طه، كانت الآيات تنزلُ على قلبِه كالمَعاول تهدمُ هُبل واللّات والعُزّى ومَنَاة، وتحفرُ اسم الله الواحد، بدأت ظُلمة الشِّرك تنجلي من قلبه، ونور الإيمان ينبجس، والدُّموع تنحدر على خدّيه، ثمّ لمّا فرغ، قال: أمِن هذا فرّت قريش؟! دلُّوني على محمّد!

عندها خرج خبّاب من مخبئه، وقال له: أبشِر يا عمر، فإنّي أرجو أن تكون قد أصابتك دعوة النّبيّ ﷺ: اللهمّ أعِزّ الإسلام بأحبّ الرّجلين إليك: عمر بن الخطّاب أو عمرو بن هشام!

فانطلق عمر إلى دار الأرقم، وعلى الباب حمزة وطلحة، فلّما رآه القوم وَجِلُوا، فلمّا رأى حمزة وَجِلَهم، قال لهم: نعم هذا عمر، فإن يُرِدِ الله به خيراً يُسلم، وإن يُرد غير ذلك يكن قتله علينا هيّناً!

فطرقَ عمر الباب، ففتح له حمزة، وأخذ بمجامع ثوبه، وجذبه إلى الدّاخل، وقال له: الذي جاء بك يا عمر؟!

وقبل أن يجيبَ عمر، طالَعهُ وجهُ النّبي ﷺ بوضاءة، وصوته العذب يقول: اللهمّ أعِزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب!

فقال عمر: أشهد أنّك رسول الله!

قصّة إسلامِ عمر تُخبِرك بجلاءٍ عن سمةِ الحزم التي كانت فيه في الجاهليّة، والتي رافقته في إسلامه، وصُحبَتِه، وخلافته!

نظرَ عمر إلى الحال التي صارت عليها قريش بسبب دعوة النّبيّ

ﷺ:

غليانٌ بعد هدوء، وصراعٌ بعد وِفاق، وعداواتٌ بعد ودٍّ، وأرحام مقطوعة بعد وصل! وكلُّ حلول قريشٍ بنظرِهِ كانت بائسة، إنها تعالج نتائج المشكلة لا أسبابها، رجلٌ واحدٌ يتحمّل مسؤولية كلّ هذا، إنّه محمّد بن عبد الله ﷺ ولا أحد غيره، وإنّ في قتله إخماد هذه النّار التي سرَت في قريش!

ثمّ بعد ذلك يذهبُ إلى بني هاشمٍ ويُسلمهم نفسه ليقتلوه به وبهذا تنتهي المشكلة بنظره، وترجع قريشٌ سيرتها الأولى!

والحزم هنا لا يتجلّى في صواب الرّأي، وإمّا يتجلّى في رفضِ الحلول الوسط، وكلّ محاولات التّرقيع، بدل معالجة أصل المشكلة، يختصرُ كلّ هذا قولُ عليّ عزّت بيغوفيتش: لا تقتل البعوض وإنّما جفِّف المستنقعات!

ويتجلّى الحزمُ في شخصيّة عمر بن الخطّاب أيضاً في الطّريقة التي تصرّف فيها بعد معرفته بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، فهو لم يأت بهدوء الذي سمع إشاعة وأراد أن يتثبّت منها، وإنّما جاء كصاعقةٍ تدمّر كلّ شيءٍ في طريقها! قرع الباب بقوّة، رفع صوته، ضرب صهره، وأسال دم أخته!

إنّه الحزم الذي لا ضوابط له ولا قيود، لهذا يبدو ظلماً وعدواناً، ولكن حين ضبط الإسلام هذا الحزم وقيّده، دخل عمر بن الخطّاب التّاريخ من أرفع أبوابه! فالإسلام لم يقتل شخصيّة عمر، ولكنّه ضبطها! وأطلقَ لها العنان بعقليّة جديدة، فالذي كان حازماً في الباطل بقي حازماً وإنّما في الحقّ هذه المرّة! ولستُ أبالغُ إذ أقول

إنّ عمر بن الخطّاب دليلٌ حيٌ على ما يفعله الإسلام بالنّاس بعد أن يُهذّبَ طبائعهم!

منذ اللّحظة الأولى التي أسلم فيها عمر، قال للنّبيّ ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحقِّ إن متنا أو حيينا؟!

فقال له النّبيّ ﷺ: والذي نفسي بيده، إنّكم على الحقِّ إن مُتّم وإن حييتُم!

فقال عمر: ففيم الاختباء؟! والذي بعثك بالحقِّ لنخرجنّ إليهم!

فخرج المسلمون في صفّين، حمزة في صفٍّ، وعمر بن الخطّاب في صفٍّ، فلمّا رأتهم قريشٌ أصابتها كآبة لم تصبها من قبل!

وسمّاه النّبيّ ﷺ الفاروق!

أرأيتَ هذا الحزم في شخصيّة عمر بن الخطّاب؟! لم يُسلم إلّا منذ دقائق، ولكنّه سرعان ما أخذ دوره بين المسلمين مُحرّضاً على الجهر بالدّعوة!

ففيمَ الاختباء؟! مقولة تُلَخّص الحزم كلّه، عمر لا يختبئ، لا يُظهرُ شيئاً ويُبطِنُ غيره، ظاهرُهُ كباطنه، كلٌّ لا يتجزّأ، يُعادِي بكلِّ خليّةٍ فيه، ويُسالِم بكلِّ خليّةٍ فيه!

ومن مواقف الحزم في شخصيّة عمر بن الخطّاب، أنّه وبعد أن خرج في صفِّ المسلمين وانتهى الأمر، ولم يكن أبو جهلٍ قد علم بالأمر بعد، ذهبَ إلى بيت أبي جهلٍ وطرق عليه الباب، فخرج إليه أبو جهلٍ وقال له: مرحباً بابن أختي، ما جاء بكَ؟

فقال له عمر: جئتُ أُخبركَ أنّي قد أسلمتُ، واتّبعتُ محمّداً!

فقال له أبو جهل: قبّحكَ الله وقبّح ما جئتَ به!

لم ينتظر أن يعلمَ أبو جهل بأمر اسلامه من النّاس، وإنّما ذهب إليه بنفسه ليخبره بالأمر! اختار أبا جهلٍ لأمرين:

الأول: عداوته المعروفة للنّبيّ ﷺ، فهذا هو عمر لا يضربُ الأعضاء وإنّما يرمى الرّأس مباشرة!

والثاني: القرابة التي بينه وبين أبي جهلٍ، وقد أراد أن يقول له: إنّما الإسلام فوق كلّ الأرحام!

ومن سماتِ الشّخصيّة الحازمة أنّها لا ترضى بالسّلامة على حساب المبدأ، وهكذا كان عمر من الخطّاب، ذاك أنّه كان يبحثُ أن يُصيبه ما يصيب المسلمين، فلمّا أغلق أبو جهل الباب في وجهه، ولم يزد على أن قال له: قبّحك الله وقبّح ما جئت به؟!

عندها سأل عمر بن الخطّاب: أيُّ أهل مكّة أنشر للحديث؟

فقيل له: جميل بن مُعمّر ذاك رجلٌ لا يمكثُ في صدره سرٌّ!

فأتاه عمر، وقال له: يا جميل هل علمتَ أنّي أسلمت؟!

فما ردّ عليه جميل بكلمة، ولكنّه قام يركض وعمر يتبعه، حتّى أتى دار النّدوة، ونادى بأعلى صوته: إنّ ابن الخطّاب قد صبأ!

فقال له عمر: كذبتَ والله، ولكنّي أسلمتُ!

فقام إليه القوم يضربونَه ويضربهم، حتّى جاء أبو جهل فقال: أيها النّاس، قد أجرتُ ابن أختي، فلا يمسّه أحد!

فانكشفوا عنه، فأتى عمر أبا جهلٍ وكان جالساً عند الكعبة، وقال له: أتسمع؟ فقال: أسمعُ!

فقال عمر: جِوارك مردودٌ عليك!

فما زال يضرِبُ ويُضرَب حتّى أظهر الله الإسلام!

ويا ليومِ هجرة عمر من مكّة إلى المدينة، كان يوماً كشّرت فيه سمة الحزم عن أنيابها، ذاك أن المسلمين كانوا يهاجرون سرّاً، أمّا عمر فإنّه لمّا أراد الهجرة، تَقلّدَ سيفه، وتنكّبَ قوسه، وفي يده سهام، وتقدّم من الكعبة والملأ من قريشٍ بفنائها، فطاف بها سبعاً، ثمّ أتى المقامَ فصلّى ركعتين، ثمّ أقبل على القوم وصاح فيهم، شاهت الوجوه، مَن أراد أن تثكله أمّه، أو يُؤتِّمَ ولده، أو يُرمِّل زوجته، فلْيَلْقِنِي وراء هذا الوادي فإنّي مهاجرا وأدار ظهره ومضى، فلم يجرؤْ أحد منهم على أن يتبعه!

كان بإمكان عمر أن يُهاجر سرّاً كما فعل بقيّة الصّحابة، وكما فعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه، فالمهمُّ نهاية المَطاف بلوغ الهدف لا تعظيم الوسائل! ولكنّ الحزم المحرّك لشخصيّة عمر يأبى عليه ذلك، الحزم قرين التّحدّي، وقد كانت هجرتُه تحدّياً لقريشٍ كلّها!

وإن كان الحزمُ بادياً في شخصيّة عمر زمن السّلم، فمن بابٍ أولى أن يتضاعفَ الحزم زمن الحرب! ورأيُ عمر بن الخطّاب في أسرى قريشٍ يوم بدرٍ يُلخّص هذا كلّه!

منّ الله تعالى على المسلمين بالنّصر، وأسروا سبعين من رجال

قريشٍ، ولم يكن عند النّبيّ ﷺ نصّ في الأسرى، فجمع الصّحابة يستشيرهم، وقال: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟

فقال أبو بكر وقال: يا رسول الله، إنّهم قومك وأهلك، استبقِهم واستَتِبهم لعلّ الله أن يتوب عليهم! وإنّي أرى أن تأخذ منهم الفداء فيكون ما أخذناه قوّةً لنا على الكفّار!

فقام عمر وقال: يا رسول الله، والله ما أرى رأيَ أبي بكرٍ، ولكنّي أرى أن تمكّني من فلان قريبي فأضرب عنقه، وتُمكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتّى يعلم الله أنّ ليس في قلوبنا هوادةٌ للمشركين!

فأخذ النّبيُّ ﷺ برأي أبي بكرٍ، وكان الفداء، ثمّ نزل الوحيُ بعد ذلك مؤيّداً لرأي عمر!

الحزم في شخصيّة عمر يجعله يضع العقيدة فوق كلّ اعتبار، ورابطة الولاء والبراء فوق رابطةِ الدّم!

رِقّة أبي بكرٍ جعلته يقترح الوفاء للرّحم، والأمل بتوبة الأسرى، أمّا حزم عمر فكان وراء اقتراح السّيف!

النّاس طباع، وما اختلاف مواقفهم إلّا من اختلاف طباعهم، أما ترى أنّ نوحاً عليه

السلام دعا ربّه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

وأنّ عيسى عليه السلام دعا ربّه فقال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾!

والاثنان من أُولي العزم من الرُّسل، ولكن لا يستطيعُ المرء أن يُفارق طبعه ولو كان نبيّاً!

أمّا يوم وفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول فكان يوماً مشهوداً في حزم عمر، واسمعه وهو يروي الحادثة بنفسه، يقول: لما تُوفي عبد الله بن أبيّ، دُعِيَ رسول الله ﷺ للصّلاة عليه، فلمّا وقف يريدُ الصّلاة، تحوّلتُ حتّى قمتُ في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلى عدوّ اللهِ تُصلّي؟

وأخذتُ أُعدّدُ أيّامه الخبيثة، ورسول الله ﷺ يبتسم، حتّى إذا أكثرتُ عليه، قال: أخّر عنّي يا عمر، إنّي خُيّرتُ فاخترتُ، قد قيل لي: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ !

فلو أعلمُ أنّي إن زدتُ على السّبعين غُفرَ له لزدتُ!

ثمّ صلّى عليه، ومشى في جنازته وقام على قبره حتّى فُرِغ منه!

فعجِبتُ لي، ولجُرأتي على رسول الله، فو الله ما كان إلا يسيراً حتّى نزلت الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾!

فما صلّى بعدها رسول الله على منافق، ولا قام على قبره حتّى قبضه الله عزّ وجل!

النّبيُّ ﷺ رحيم، ويحزنه أن تنفلِتَ منه نفسٌ إلى النّار، وحليم يصفح ويغفر، ولا يردُّ الإساءة بالإساءة، ويُراعي الخواطر خصوصاً أنّ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ هو الذي طلبَ هذا من النّبيّ ﷺ، وقد

أراد أن يجبر خاطره لأنّه كان صحابيّاً جليلاً على عكس أبيه رأس النّفاق، ثمّ هو أولاً وأخيراً في الخيار ولم يَنْهَهُ ربُّنا تعالى!

أمّا عمر فحازم، يرى أنّ لحظة الجنازة هذه هي لحظة تصفية الحساب، وأنّ هذا المنافق لا يستحقّ هذا الشّرف، وقد بلغ من حزمه أنّه وقف أمام النّبيّ ﷺ يريده ألا يُصليّ عليه، ويعدّد عليه مواقفه الخبيثة معه، ولم يرجع عمر إلّا حين قال له النّبيُّ ﷺ: أخِّرْ عنّي يا عمر!

الحزم لا يعرف المهادنة، ولا حلول السّياسة، الحزم لا يعرف إلّا الحقّ، يقوله صارخاً بلا تجميل، عارياً بلا أقنعة! أمّا النّبوّة فرحمةٌ خالصة، فسبحان من جعل قلب نبيّه على عصاة أمّته أرحم من قلب الأمّ على وليدها!

ولعمر بن الخطّاب موقفين مشهودين من مواقف الحزم مع حاطب بن أبي بلتعة، موقف في صحبته، وموقف في خلافته، هذان الموقفان يثبتان لك ما دأبت أقوله إنّ سِمَة الحزم لازمةٌ في كلّ فترات عمره، لا أحد يخلعُ طبعه!

فأمّا الموقف الأوّل فكان قبل فتح مكّة، إذ أخبر النّبيُّ ﷺ أصحابه بعزمه على السّير إلى مكّة لفتحها، وأمرهم بالتّجهّز، وطلب منهم كِتمان هذا الأمر لأنّه أراد أن يباغِت قريشاً ليكسب عنصر المفاجأة الذي يحسم المعارك، وليكون فتحاً بأقل قدرٍ من الدّم!

كان كلُّ شيءٍ يسير كما هو مخطّط له، غير أنّ شيئاً لم يكن بالحسبان قد وقع ... استدعى النّبيُّ ﷺ الفرسان الثّلاثة عليّاً والزبير والمقداد، وأمرهم بالتّوجّه فوراً إلى «روضة خاخ» حيث هناك امرأة

تحمل رسالةً عليهم إحضارها إليه مهما كلّف الأمر!

توجّه الثّلاثة مسرعين فوجدوا المرأة هناك، فطلبوا منها أن تعطيهم الرّسالة، فأنكرت وجودها، فقالوا لها: إما أن تخرجي الكتاب أو لنَضَعَنّ الثّياب، فلمّا علِمت أنّهم عازمون على تفتيشها، أعطتهم الرّسالة وعادوا بها إلى المدينة، وهناك فتح النّبيّ ﷺ الرّسالة فإذا هي من حاطم بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم فيها بعزم النّبيّ ﷺ على السّير إلى مكّة لفتحها!

خرقٌ أمنيٌ خطير، وإن شئت فقُلْ: خيانةٌ عُظمى!

ويُبرر حاطبٌ فعلته بأنّ له أهلاً ضعفاء في مكّة، وأنّه أراد برسالته هذه أن تكفّ قريش أذاها عنهم!

ويقبلُ النّبيّ ﷺ عُذر حاطب!

غير أنّ عمر بن الخطّاب بحزمه المعتاد، وشراسته المتوقّعة إذا ما تعلّقَ الأمرُ بهذا الدّين يقول، يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق!

فقال له النّبيّ ﷺ: لا يا عمر، إنّه قد شهِدَ بدراً، وما أدراكَ لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم!

الحزم في بعض مفاهيمه أن تضع السّيف في موضع الغدر، وأن تضعَ العفوَ في موضعِ الخطأ العابر، ووضعِ أحدهما مكان الآخر مهلكة، عمر بن الخطّاب مُركّب ليعملَ بهذه الطريقة، فهو لم يكن يطرحُ نفسه أشدّ حرصاً على هذا الدّين من النّبيّ ﷺ، معاذ الله أن يكونَ عمر أو غيره من الصّحابة في هذا الموضع، كلُّ ما في الأمر أنّ

حزم عمر يُلزمه أن يقول رأيه، ثمّ بعد ذلك هو رهن أمر النّبيّ ﷺ ولو خالف رأيَه ما رآه هو!

وأمّا موقفُ الحزم الثّاني مع حاطب بن أبي بلتعة فقد كان في زمن خلافة عمر، ذلك أنّه قد جِيء إليه يوماً بغلمانٍ صغار السّنّ قد سرقوا ناقةَ رجلٍ من مُزينة، فذبحوها وأكلوا منها! فسألهم عمر عن الأمر فأقرُّوا بالسّرقة، وحكم بقطع أيديهم!

وقبل أن يقوموا من أمامه، تفرّس في وجوههم، فإذا هم صُفرُ الوجوه، ضامِري الأجسام، فعلمَ أنّه ما دفعهم إلى هذا إلّا الجوع والحاجة!

فقال: من سيّد هؤلاء؟

فقيل له: حاطب بن أبي بلتعة!

فقال: إليّ به!

فلمّا جاء حاطِب، سأله عمر: أنت سيّد هؤلاء؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال له: لقد كدتُ أنزلُ بهم العقاب، لولا ما أعلمه أنّكم تُدئبونهم، وتجيعونهم، ولقد جاءوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلّا بكَ!

ثمّ سأل صاحب النّاقة: يا مُزنِيُّ، كم تساوي ناقتُك؟

فقال: أربعمئة يا أمير المؤمنين.

فقال لحاطب: اذهبْ فأعطِه ثمّانِمِئة!

وقال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها!

هذا هو الحزمُ بعينه الذي ذكرتُه لك آنفاً، أن تُعالج جذور المشكلة لا فروعها، أسبابها لا نتائجها؟ بل ولا تعمدُ إلى القضيّة وتحلّها وحدها، بل تُهدّد من خلالها كلّ أصحاب القضايا المشابهة، فمن يجرؤ بعد هذا الحكم أن يُجوِّع غلاماً له؟!

إنّ سمة الحزم، المُحرّك الرّئيس لشخصيّة عمر بن الخطّاب، لم تكن خافيةً على النّاس، ولم تكن خافيةً على عمر بن الخطّاب نفسه! ذاك أنّ أبا بكر الصّدّيق لمّا أراد أن يوصي له بالخلافة، جعل يستشير النّاس فيه، وكان من مآخذ البعض عليه أنّه حازمٌ، وأنّه يشتدُّ عليهم وأبو بكر الخليفة وعمر الوزير، فكيف إذا ما صارت الخلافة إليه؟!

فكان أبو بكرٍ يقول لهم: إنّما يشتدُّ عمر لِمَا يرى بي من اللّين، إنّه يقوّم لِينِي هذا بحزمه، أمّا إذا أفضت الأمور إليه فسترون من أمره عجباً!

وصدق واللهِ أبو بكرٍ، عمر لم يتخلّ عن حزمه عندما صار خليفةً هذه حقيقةٌ لا يمكن نُكرانها، ولكن ما لا يمكن نُكرانه أيضاً أنّ عشرات المواقف التي عرضتْ لعمر في خلافته كان فيها رقيقاً جداً، وعلى أيّة حالٍ فإنّ الحزم لا يتنافى مع الرّقة!

وإن كان لا سبيل إلى عرضِها جميعاً لأنها تخرج بالكتاب عن الهدف الذي أردته له وهو إظهار السّمة الغالبة والمحرّكة لكلّ صحابيٍّ من الصّحابة الذين تحدّثت عنهم، ولكن ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جُلّه، وأسوق لكَ موقفاً، أحسبه كفيلٌ أن يُريك ذاك اللّين المُختبِئ خلف كلّ هذا الحزم!

جاء إلى المدينة بعض التّجار، وخيّموا على مشارفها، فاصطحب عمر بن الخطّاب معه عبد الرحمن بن عوف ليتفقّد القافلة، وكان الليل قد أرخى سُدوله، والثّلث الأخير منه قد شارف، فقال عمر لعبد الرحمن: فلنمضِ بقيّة اللّيل هنا نحرس ضيوفنا!

وإذ هما يحرسان القافلة، سمع عمر بكاء صبيٍّ، فانتظرَ أن يسكت ولكنّ بكاءه قد طال، فقام عمر يمشي جهة الصّوت، فإذا أمُّ الصّبيّ تُهَدهِدُه، فقال لها: اتّقي الله، وأحسني إلى ابنك!

وعاد إلى مكانه، فلم يلبث يسيراً حتّى سمِع بكاء الصّبيّ مجدداً، فقام إلى أمّه مغضباً، وقال لها بحزمه المعروف: ويحك، إنّي لأراك أمّ سوءٍ، ما لابنك لا يقرُّ له قرار؟!

فقالت المرأة له وهي لا تعرفه: يا عبد الله، قد أضجرتني! إنّي أحمله على الفطام فيأبى!

فقال له عمر: ولِمَ تحملينه على الفطام؟

فقالت: لأنّ عمر لا يفرضُ العطاء من بيت المال إلّا للفطيم!

فقال لها: وكم له من العمر؟

فقالت: بضعة أشهرٍ!

فقال لها: ويحكِ، لا تعجلي عليه!

يقول عبد الرحمن بن عوف: صلّى بنا عمر الفجر يومئذٍ، وما يستبين النّاس قراءته من غلبةِ البكاء عليه! فلمّا سلّم قال: يا بؤساً لعمر! كم قتلَ من أولاد المسلمين؟!

ثمّ أمر منادياً يُنادي في المدينة: لا تعجلوا على صبيانكم في الفطام، فإنّا نفرضُ من بيت المال لكلِّ مولودٍ في الإسلام!

ثمّ كتبَ بهذا إلى جميع وُلاته في الأمصار!

هذا هو عمر، وهذه هي رِقّته وشفقته على النّاس، حتّى لا يتوهّمنّ أحدٌ أنّنا حين نحكي عن حزمه بأنّه كان جلّاداً للنّاس! وقصّته مع المرأة التي وضعت الحجارة في القِدر توهم أولادها أنّها تطبخ لهم لينعسوا ويناموا لهي أعجبُ من هذه التي ذكرتُ لك، فإن لم تكن تعرفها فأنصحك بقراءتها، وما أريدُ أن أُطيل في مجالٍ غير ما أرمي إليه!

وعوداً على ذي بدءٍ، ووصلاً لما انقطع، وتحديداً حيثُ قلتُ لكَ: إنّ الحزم المحرّك الرئيس لشخصيّة عمر لم يكن خافياً عليه، فهو عندما بويع بالخلافة، وصعد المنبر ليخطب في النّاس خطبته الأولى وقد صار أمير المؤمنين، كان ممّا قاله لهم يومها: بلغني أنّ النّاس خافوا شدّتي، وهابوا غِلظتي، وقالوا: لقد اشتدّ عمر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، واشتدّ علينا وأبو بكر وَالِينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟!

ألا فاعلموا أيّها النّاس أنّ هذه الشدّة قد تضاعفت، ولكنّها إنّما تكون على أهل الظُّلم والتّعدّي على المسلمين، أمّا أهل السّلامة والدّين فأنا أليَنُ إليهم من بعضهم لبعض، ولستُ أدعُ أحداً يظلمُ أحداً أو يعتدي عليه، حتّى أضع خدّه على الأرض وأضع قدمي على خدّه الآخر حتّى يُذعِن للحقّ، وإنّي بعد شدّتِي تلك لأضع خدّي أنا على الأرض لأهل الكفاف وأهل العفاف!

يا للحزم يا عمر، يا للحزم! لعلّك توقّعت أن يقول عمر للنّاس إنّ ما رأيتموه من حزمي وخشيتموه قد انقضى، وسترون لِيناً فقط!

لا يا صاحبي، ما هكذا الحزم، وما هكذا عمر! إنّه يقول لهم بأنّه سيكون أشدّ حزماً ممّا كان عليه من قبل، ولكنّه حزمٌ على أهل الجور، وأنّ موضع اللّين فلن يكون إلّا لمن يستحقّه، لأنّ وضع اللّين في غير موضعه ضعف!

عمر لم يكن حازماً مع النّاس فقط، وإنّما كان حازماً مع أهله أيضاً، ما يرضاهُ للنّاس يرضاه لأهله، وما يُعاقب عليه النّاس يُعاقب عليه أهله، لا يجاري، ولا يكيل بمكيالين، ولربّما اشتدّ على أهله في شيءٍ أكثر ممّا يشتدُّ على النّاس فيه!

وكان إذا نهى النّاس عن أمرٍ جمع أهله وقال لهم: إنّي قد نهيتُ النّاس عن كذا وكذا، وإنّ النّاس ينظرون إليكم كما ينظرُ الطّير إلى اللّحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإنّي والله لا أُوتى برجلٍ وقّع فيما نهيتُ النّاس عنه إلّا ضاعفت له العذاب لمكانه منّي، فمن شاء منكم فليتقدّم، ومن شاء فليتأخّر!

خرج عمر بن الخطّاب يوماً إلى السّوق، فرأى إبلاً سِماناً، فقال: إبلُ من هذه؟

فقالوا: إبلُ عبد الله بن عمر!

فغضبَ غضباً شديداً، وقال: عبد الله بن عمر، بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين!

وأرسل في طلبه على الفور، فلمّا وقف بين يديه قال له: ما هذه

الإبل يا عبد الله؟

فقال: إنّها إبلٌ هزيلة اشتريتها بمالي، وبعثث بها إلى الحمى أتاجرُ فيها، وأبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال له عمر مؤنِّباً: ويقول النّاس حيث يرونها: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلُك، ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين!

ثمّ صاح به قائلاً: يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل، واجعل الرّبح في بيت مال المسلمين!

هذا وابنه عبد اللهِ أحبُّ أولاده إليه، وأقربهم إلى قلبه، وهذا هو حزم عمر مع ولده المدلّل، وثمرة قلبه! عمر كان فيه من الحزم ما يجعله لا يرى أحداً أكبر من الحقّ!

أمّا أكثر شخص كان عمر حازماً معه فهو عمر نفسه!

لقد ألجمَ شهوات نفسه بطريقةٍ مذهلةٍ لا يُكادُ يصدّقها العقل!

عمر هازم الرُّوم يُقَدّمُ له وعاءٌ فيه زيتٌ وخلٌّ، فيقول: إدَامَان في إناءٍ واحدٍ، والله لا أذوقه!

عمر محطّم إمبراطوريّة فارس يتأخّر عن خطبة الجمعة، ثمّ يأتي أخيراً مُهرولاً في بُردةٍ فيها إحدى وعشرين رقعة، تحتها قميص لم يجفّ بعد، ويقول للنّاس: حبسني عنكم قميصي هذا، كنت أنتظره حتّى يجفّ، إذ ليس لي قميصٌ غيره!

عمرُ الذي كان يرتعِدُ من اسمه كسرى وقيصر أرسلَ له عامله على

أذربيجان طبقاً من الحلوى، فيسأل الرّسول الذي جاء إليه بالطّبق: أكُلُّ النّاس يأكلون هذا؟

فيقول له الرّسول: لا يا أمير المؤمنين، إنّه طعام الصّفوة!

فيقول له عمر: اِحملْ هديّتك وارجعْ بها إلى صاحبها، وقل له: عمر يأمرك ألّا تشبعَ من طعامٍ حتّى يشبعَ منه قبلك جميع المسلمين!

أرأيتَ إلى أيِّ مدىً يصبحُ الحزمُ جميلاً وفاتناً إذا قيّده الإيمان؟!

أرأيتَ أيّ رجلٍ كان عمر بن الخطّاب؟!

# عُثمان بن عفَّان!

لا يوجد رجلٌ في التّاريخ تزوّج ابنتَي نبيٍّ غير عثمان بن عفَّان، كان فيه من النُّبل، ودَماثَةِ الأخلاق، وقوّة الإيمان ما يفيض لكي يستأمِنَه النّبيُّ ﷺ على عرضه مرتين!

في عثمان تحتار اللُّغة، وتقِفُ الكلمات عاجزة أن تصفَ شمائله، إنّه أحد عمالقة الإسلام السّابقين، وواحدٌ من الذين قام هذا الدِّين على أكتافهم، صاحبُ الهجرتين إلى الحبشة والمدينة، مُوفدُ النّبيِّ ﷺ إلى قريشٍ يوم الحديبية، والشّخص الذي لأجله كانت بيعة الرِّضوان عند الشّجرة، يضعُ الصّحابة أيديهم فوق يدِ النّبيِّ ﷺ يبايعونه على الموت لمّا أُشيعَ أنّ قُريشاً قد قتلت عثمان، فيضعُ النّبيُّ ﷺ يمينه فوق شماله ويقول: وهذه يدُ عثمان!

أكثر هذه الأمّة حياءً، تُحدِّثنا الصِّديقة بنت الصدِّيق عائشة فتقول: استأذن أبو بكر يوماً على النّبيِّ ﷺ، وكان مضطجعاً قد انحسَر ثوبه عن إحدى ساقيه، فأذنَ له، فدخلَ وحدّثه ثمّ مضى!

ثمّ جاء عمر بن الخطّاب فاستأذن على النّبيِّ ﷺ وهو على حالته تلك، فأذِنَ له، فدخلَ وحدّثه ثمّ مضى!

ثمّ جاء عثمان بن عفَّان فاستأذن على النّبيِّ ﷺ وهو على حالته تلك، فجلس بعد أن كان مضطجعاً، وأسبلَ ثوبه فوق ساقِه المكشوفة، ثمّ أذِن له فدخل وحدّثه مضى!

فقلتُ: يا رسول الله، لم أركَ تهيّأتَ لأبي بكرٍ وعمر كما تهيّأت لعثمان؟!

فقال لها النّبيّ ﷺ: إنّ عثمان رجلٌ حييٌّ، ولو أذنتُ له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل، ولرجع دون أن أقضيَ له الحاجة التي أتى بها.

يا عائشة: ألا أستحِي من رجلٍ تستحي منه الملائكة!

بالنّسبة إلى رجلٍ جُمعت فيه الفضائلُ جمعاً، وصُبّت فيه مكارم الأخلاق صبّاً، يبدو من العسير العثور على سمةٍ غالبةٍ ومحرّكةٍ لشخصيّته! ولكن المتأمّل في سيرة عثمان بن عفّان بعمقٍ وتأنٍّ يَخلُص إلى أنّ تلك السّمة كانت الجود!

عثمان كان جواداً بشكلٍ مذهلٍ، فالرّجلُ الذي كان ثريّاً إلى الحدّ الذي لا يمكن تخيُّله مقارنةً بما كان عليه أغلب الصّحابة من الفقر وشَظَفِ العيش، جعلَ ماله ثمناً للجنّة!

لنفهم شخصيّة عثمان بدقّة، لا بُدّ أولاً أن نفهم الجود لأنه السّمة المحرّكة لهذه الشّخصيّة!

الجود أن يكون المال في يدك لا في قلبك، وقد كان عثمان جواداً إلى أبعد حدّ، كان المال في يده كثيراً كالأنهار الجارية، ولم يكن في قلبه منها قطرة!

والجود أن تملك المال بدلَ أن يملكك، وقد كان عثمان جواداً بشكلٍ مفرطٍ، امتلك كثيراً، لكنّه لم يكن أسيراً لما يملك!

والجود أن تضعَ المال تحت قدميك لترتفع به، ولا تضعه فوق رأسك ليخفضك، وقد كان عثمان جواداً بشكلٍ يأخذ العقول، ويسلبُ الألباب! كان المال عنده مجرّد وسيلة يبلغ بها الغايات، لا غاية تهون

لأجلها كل الشبل!

والجود أن تجد نفسك بما تعطي لا بما تأخذ، وقد كان عثمان يجد لذّته في عطائه، ولو قلتَ له أمسِك يدك قليلاً، لما استطاع أن يُجيبك إلى هذا الذي تدعوه إليه، إذ أنّك تحرمه من أجمل لذّاته، ولو أنّه حاول معك ما استطاع، الطّبع غلّاب، وعثمان قد غلبه جوده!

ولو قلتَ لي: صِفْ لي جُود عثمّان.

لما وجدتُ أبلغ من قول أبي بكرٍ الشّبليّ:

تعوّدَ بسط الكفِّ حتّى لو أنه

ثناها لقبضٍ لم تُجِبهُ أنامِلُهُ

ترَاه إذا ما جئته متهللا

كأنّك تُعطيهِ الذي أنتَ آمِلُهُ

ولو لم يكن في كفه غيرُ رُوحِهِ

لجاد بها فليتقِّ اللهَ سائلهُ

هو البحر من أيِّ النواحي أتيتَهُ

فلُجّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهُ

لمّا جاء المهاجرون من مكّة إلى المدينة لم يستسيغوا ماءها، فكانوا يشترون الماء من بئر رومة، وكانت البئر لرجلٍ يهوديٍّ، وكان يُغالي عليهم في الثمّن حتّى أرهقهم ذلك!

عند ذلك حثّ النّبيُّ ﷺ الصّحابة على شراء بئر رومة، وجعلَها وقفاً

للمسلمين، ووعد من يفعل ذلك بعينٍ في الجنّة!

فجاء عثمان إلى اليهوديّ وأغراه بالمال ليبيعه البئر، فأبى عليه، وقال له: أبيعك نصفها، فتكون البئر لي يوماً ولك يوماً!

فاشترى عثمان نصف البئر باثني عشر ألفاً! وهكذا صار شريكاً في البئر، هو ينضب دلوه للنّاس يوماً، واليهوديّ يوماً!

وجعل عثمان يومه بالمجّان للنّاس، فكانوا يستقون الماء من البئر ما يكفيهم ليومين، ولم يعودوا محتاجين أن يشتروا الماء في اليوم الذي تكون فيه البئر لليهوديّ!

فكسدت تجارة اليهوديّ في الماء، وجاء إلى عثمان وقال له: أفسدتَ عليّ بئري، فاشترِ باقيها!

فاشترى عثمان باقي البئر بثمانية آلاف، وجعلها وقفاً لجميع المسلمين ليشربوا منه بلا ثمن!

هذا هو عثمان بن عفّان، وهذا هو جوده، ما إن يسمع أن باباً من أبواب الجنّة قد فُتِح بالمال حتّى يسارِعُ بماله فيدخل منه!

ولعلّك وأنت تقرأ تحسبُ أنّ عشرين ألف درهم وهو مجموع ما أنفقه عثمان لشراء البئر على دفعتين إنّما هو مبلغ زهيد!

هذا المبلغ يُساوي ثمّانية ونصف كيلو من الذّهبّ! فاحسبها الآن بعملة أيّامنا!

إلى هذا الحدّ كان عثمان ثريّاً، فهذا ليس إلّا شطراً يسيراً من ماله، وإلى هذا الحدّ كان يملك المال ولا يملكه المال!

ضاقَ المسجد النّبويّ بعد أن كثُرَ المُصلّون في المدينة، وتمنّى النّبيّ ﷺ أن يشتري أحد الصّحابة الأثرياء الأرض المجاورة للمسجد ليضمّها إليه، فقال يُرغّبهم: من يشتري هذه البقعة من خالص ماله، فيكون فيها كالمسلمين وله خيرٌ منها في الجنّة!

ويسرعُ عثمان قبل الجميع، ويشتريها بخمسةٍ وعشرين ألف درهم، ويقدّمها إلى النّبيّ ﷺ ليضمّها إلى المسجد!

مرّةً أخرى يخوض عثمان سباقاً إلى الجنّة بماله، ومرّة أخرى يكسبُ السّباق!

الغِنى ليس شبّةً، على العكس تماماً، نِعمَ المالُ الحلالُ في يد العبد الصالح، يتقرّب به إلى ربّه، تارةً يقضي الحوائج، وتارةً أخرى يجبُر الخواطر، إنّ الله تعالى لا يُعبَد في المسجد فقط، وإنّما يُعبدُ في قضاء حوائج النّاس أيضاً!

وأروع مجالٍ يوضع فيه المال هو بيوت الله!

وعثمان يعبدُ الله في هذا وذاك، كان المالُ حرفياً بيده ولم يكن أبداً في قلبه!

في خلافة عمر الفاروق، أصابت النّاس سنة جدبٍ، أهلكتِ المواشي والزُّروع، حتّى سُمّيَ ذلك العام بعام الرّمادة، لأنّ الأرض من شدّة الجدب صارت سوداء كلّها كالرّماد!

جاع المسلمون في المدينة، جفّت الضُّروع، وظمئت الحناجر، وأخمَصَتِ البطون، وجاء النّاس إلى عمر بن الخطّاب وقالوا له: يا أمير المؤمنين، إنّ السّماء لم تُمطِر، وإنّ الأرضَ لم تُنبِت، وقد شارفَ

النّاس على الهلاك، فما نصنعُ؟!

فقال لهم عمر والحزنُ ويفلِقُ كبده: اصبروا، واحتسبوا، فإنّي أرجو ألّا تُمسُوا حتّى يُفرِّج الله عنكم!

فلمّا كان آخر النّهار، وردتِ الأخبار أنّ قافلةً لعثمان بن عفّان قد جاءت من الشّام، فهبّ النّاس يستقبلونها أفراداً وجماعاتٍ!

وانطلق التّجار يتلقّونها، فإذا هي ألف بعير تحملُ قمحاً، وزيتاً، وزبيباً!

أناخت القافلة بباب عثمان، وبدأ غلمانه يُنزلون حمولتها، فدخل التّجار على عثمان وقالوا له: بِعنا ما وصل إليك يا أبا عمرو!

فقال: حُبّاً وكرامةً، ولكن كم تُربحونني على شرائي؟

فقالوا: نُعطيك بالدّرهم درهمين!

فقال: أُعطيتُ أكثر من هذا!

فزادوا له، فقال: أُعطيتُ أكثر من هذا!

فقالوا: يا أبا عمرو، ليس في المدينة تُجّارٌ غيرنا، وما سبقنا أحدٌ إليك، فمن الذي أعطاكَ أكثر مما أعطيناك؟!

فقال: إنّ الله أعطاني بكلِّ درهمٍ عشرة، فهل عندكم زيادة؟

فقالوا: لا!

فقال: إنّي أُشهد الله تعالى أني جعلتُ ما حملت هذه القافلة صدقةً على فقراء المسلمين، لا أبتغي من أحدٍ درهماً ولا ديناراً، وإنّما أبتغي

ثواب الله ورضاه!

عثمان تاجرٌ، والتّاجر في العادة لا يُفكّر إلا بتحقيق أكبر قدر من الرّبح، وقد كانت هذه فرصةً سانحةً له ليزداد ثراءً، فهو الوحيد في المدينة الذي يملك الطّعام، وبإمكانه أن يفرضَ على النّاسِ السّعر الذي يريده، ولكنّ عثمان لا يفعل ذلك، الجود المسيطر عليه يمنعه، وعقلية التّاجر في تحقيق الأرباح تنهزم أمام سمة الجود المحرّكة لشخصيّته!

لن تفهم كيف يُفكّر الجواد ما لم تكُن جواداً!

عثمان بات تلك الليلة أسعد رجلٍ في المدينة المنوّرة!

كان أسعد من الجياع الذين شبعوا، فالجواد يستلذُّ حين يُعطي صاحب الحاجة، أكثر مما يستلذُّ صاحب الحاجة في قضاء حاجته!

كانت غزوة تبوك علامةً فارقةً بين غزوات النّبيّ ﷺ، فهي الغزوة الأبعد مسافةً، والأحرُّ طقساً، والأكثر فاقةً! فقد وافقت والمسلمين في شدّة، ولم يكن عند النّبيّ ﷺ ما يُجهّز به الجيش، لهذا عُرف هذا الجيش في كتب السيرة بجيش العُسرة!

وحثّ النّبيّ ﷺ الصّحابة على الصّدقة لتجهيز الجيش، فجاد الصّحابة ممّا أعطاهم الله، وسارعتِ النّساء بحُلِيِّهِنّ يقدمنه إلى النّبيّ ﷺ! ولكنّه جيش جرّارٌ قوامه ثلاثون ألفاً، سلاحه وطعامه ورَوَاحِلَه تحتاجُ ثروةً هائلةً، وكالعادة حين يكون السّباق إلى الجنّة بالمال فليس لها إلّا عثمانها!

قدّم عثمان لجيش العُسرة تسعمئةٍ وأربعين بعيراً، وستين فرساً

أتمّ بها الألف، ثمّ جاء إلى النّبيّ ﷺ يحملُ ألف دينارٍ ونثرها في حجره!

فجعل النّبيّ ﷺ يُقلّبُ الدنانير بين يديه ويقول: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم، ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم!

مرّةً أخرى يظهر جود عثمان، ويتبيّن أنّه كان يملِكُ المال لا المال يملكه!

مرّةً أخرى يضعُ عثمان المال تحت قدميه فيرتفع فيه ارتفاعاً يغبطه عليه المسلمون من يوم تبوك إلى قيام السّاعة، لقد نال أرفع وسامٍ نبويّ: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم!

لن نفهم مقدار ما كان يجود به عثمان إلّا إذا قارنّاه بعملة أيّامنا!

النّاقة في ذاك الزّمان تساوي قيمتها السّيارة اليوم، ولك أن تتخيّل رجلاً يتصدّق بثمن ألف سيّارة!

والدّينار في ذاك الزّمان كان ذهباً، يزِنُ كلُّ دينارٍ ٤.٢٥ غراماً من الذّهب، أي أنّ عثمان تصدّق أيضاً بـ ٤.٢٥ كيلوغراماً من الذّهب!

يُخيّلُ إليّ أنّ عثمان لم يكن يُتاجر إلّا لينفِق، ولم يكن يجمع المال إلّا ليجود به!

كانت لذّته في عطائه، وسعادته في جوده، وأجمل لحظات عمره حين يرى السّعادة على وجه من قضى له حاجةً!

التّعامل مع الإنسان الجواد لا يُشبهه شيء في هذه الدّنيا، إذ أنّ الجود يأخذ بتلابيب قلوب النّاس! فالجواد مغايرٌ جداً لما عهدته،

مختلف جداً عمّا ألفته، لا يمكن لك أن تتوقعه مهما حاولت ذلك!

كان لعثمان بن عفّان دَيْناً على طلحة بن عبيد الله، وكان مقدار ذلك الدَّين خمسين ألف درهمٍ اقترضها طلحة لتجارةٍ كبيرة له، فلمّا اشترى وباع، وجمع المال، قال لعثمان: قد تهيّأ مالُك فاقبضه!

فقال له عثمان: هو لك معونةٌ لك على مروءتِك!

أكنتَ تتوقّع هذا الرّدّ من عثمان؟!

قلتُ لك: الجواد لا يمكن أن تتوقّعه!

طلحة ليس فقيراً لتكون هذه الدّراهم صدقةً، على العكس تماماً هو تاجر وعنده مال أيضاً، وقد احتاج مبلغاً كبيراً لصفقته، فجاء إلى عثمان يطلبُ منه ما احتاج إليه، وكان يكفي عثمان خُلُقاً حسناً أن أدانه من المال ما طلب، ولو استردّ ماله بعد ذلك، فهذا هو الأصل!

ولكن عثمان بالجود لا يُشبه النّاس، إنّه يكسِرُ القواعد دوماً!

هو لكَ معونةٌ لكَ على مروءتك!

وانظُر لأدب الجود عند عثمان، إنّه لا يعطي فقط، وإنّما يتخيّرُ أجمل العبارات ليجود!

لم يترك عثمان بن عفّان طريقاً يُفضي إلى الجنّة بالمال إلّا سلكه، فقد كان رضي الله عنه يُعتِق في كل يوم جمعةٍ رقبةً في سبيل الله، وقد بلغ عدد ما أعتقه منذ أول إسلامه حتّى استشهاده ألفاً وأربعمئة رقبةٍ تقريباً!

مذهلٌ هو عثمان، واللهِ مذهل! وسيرة حياته ليست سيرة رجلٍ

بمقدار ما هي منهاج حياة، وإن كنتُ قد سلّطتُ الضوء على جوده، للغرض الذي كان لأجله الكتاب، إلّا أنّه في الحقيقة ما الجود إلّا أحد مزاياه، عثمّان كان أمّة!

# عليٌّ بن أبي طالب!

في عليِّ بن أبي طالب تقفُ اللُّغة حيرى لا تعرف من أين تبدأ ولا إلى أين تنتهي، كيف لا وهو أحد عمالقة الإسلام الذين أقام الله تعالى هذا الدِّين على أكتافهم! واستخلاص سمةٍ غالبةٍ ومحرِّكة لشخصيّته يبدو عسيراً لأنه كان ببساطة مقداماً في كلِّ مجال! فإذا كان الحديث عن الشَّجاعة فهو الأسد الهصور الذي لا يهاب، وإذا كان الحديث عن قوّة الإيمان فهو الجبل الذي لا تزحزحه الحوادث الجِسام، وإذا كان الحديث عن الحكمة فبها يفيض ومن ثناياه ترشح، وإذا كان الحديث عن القضاء فهو الأعجوبة في الاستنباط والقياس والاستدلال، وإذا كان الحديث عن الخُلق الحسن فهو الأديب الذي تجلّت فيه مكارم الأخلاق!

غير أنّه وبعد تفرُّسٍ عميقٍ في سيرته يمكن القول إنّ السِّمة الغالبة على أبي الحسن، والمحرِّكة لشخصيته هي الفدائيّة! إنّه رجل المهام الصَّعبة، الملقي بنفسه بين أنياب الموت غير هيّابٍ، تتوّج هذه الفدائيّة حكمة بالغة، وحسٌّ أمنيٌّ رهيب، وشجاعة قلَّ نظيرها في النّاس!

اتّسمت الدّعوة المكيّة أول الأمر بالسِّرِّيّة والكتمان، وكانت أوامر النّبيِّ ﷺ بشأن هذه السّريّة غايةً في الوضوح والصّرامة، حفاظاً على هذه الدّعوة الوليدة كي لا تُباد في مهدها! ولعليِّ بن أبي طالبٍ موقف غاية في الفدائيّة والدّهاء، تجلّى فيه حسّه الأمنيُّ، وهو موقف اصطحاب أبي ذرٍّ الغفاريِّ إلى النّبيِّ ﷺ! حين سمع أبو ذرٍّ بخبر النّبيِّ ﷺ أتى مكّة، وكرِه أن يسأل عنه خوفاً من قريشٍ، فأخذ

يتبع خبره دون جدوى حتّى جاء اللّيل! فرآه عليّ بن أبي طالبٍ فعرف أنّه غريب، فاستضافه دون أن يسأله أو يحدّثه عن شيء!

فلمّا كان الصّباح غدا أبو ذرّ إلى الكعبة مستطلعاً دون جدوى، فلمّا كان اللّيل استضافه عليّ مرّةً ثانية. ثمّ في اليوم الثالث تكرّر المشهد بحذافيره، أبو ذرّ يبحث طيلة اليوم دون أن يروي ظمأه بخبرٍ، وعليّ يستضيفه!

وفي اللّيلة الثالثة لمّا استوثق أبو ذرّ من عليّ أخبره أنّه يريدُ أن يقابل النّبيّ ﷺ!

فقال له عليّ: فإنّه حقٌّ، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتّبعني، فإنّي إن رأيث شيئاً أخاف عليك منه قمث كأني أريقُ الماء، فإن مضيث فاتبعني، فتبعه أبو ذرّ، وقابل النّبيّ ﷺ!

هذه التّغطية الأمنيّة للتّحرك نحو دار الأرقم، والتي تمّ الاتّفاق عليها بين عليّ وأبي ذرّ تُريكَ بجلاءٍ إلى مدى توافر الحسّ الأمنيّ عند عليّ، وهذا الحسّ هو من أهمّ سمات الفدائيّة، وقد أحببث التّركيز عليها أوّلاً حتّى لا يُفهم خطأً أنّ الفدائيّة مرادفة للتّهوّر. على العكس تماماً هي الشّجاعة الفائقة المضبوطة بالحكمة والحسّ الأمنيّ، وهذه سمة تأتي بالفطرة وإن كان لا شكّ أنّ التدريب يرفعها! عليّ بن أبي طالب وقتها في ريعان الشّباب، والإسلام في مكّة غريب، وأحكامه لم ينزل منها إلا النّذر اليسير، لهذا ما من شكّ أنّ اقتراح عليّ لخطّة التّحرك نحو دار الأرقم، والاتفاق على الإيماءات والإشارات، إنّما عبّرت عن هذه الفطرة الفدائية، وعن هذا الحسّ الأمنيّ المنساق مع الشّخصيّة انسياقاً نابعاً منها لا مقحماً فيها!

من أكثر المواقف التي تجلّت فيها الفدائيّة في شخصيّة عليّ بن أبي طالبٍ هو نومه في فراش النّبيّ ﷺ ليلة الهجرة!

اجتمعت قريشٌ في دار النّدوة، وحزمت أمرها على قتل النّبيّ ﷺ، ولكنّ الله تعالى أعلم نبيّهُ بهذه المكيدة، وكان النّبيّ ﷺ أذكى خلقِ الله، وأحسنهم تدبيراً، فأراد أن يبقى من يريدون قتله ينظرون إلى فراشه يحسبونه نائماً، وينتظرونه ريثما يخرج إليهم ليقتلوه!

فأمر النّبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالبٍ أن ينام في فراشه تلك اللّيلة، وهذه تزكية لفدائيّة عليّ، المهمّة صعبة وخطرة، أمرٌ واضحٌ بالاغتيال، والنّجاة منها بالحسابات الماديّة ضئيلة، فلربما لم ينتظر الغادرون خروجه كما هو المخطط، فاستعجلوا، واقتحموا عليه وقتلوه في فراشه!

ولربما عاجلوه بضربةٍ واحدةٍ قبل أن يتثبّتوا من هويته وهم بالأساس لا يحسبون ذاك النّائم في الفراش إلا النّبيّ ﷺ، وما خطر ببالهم أنّ النّبيّ ﷺ يُشاغلهم بهذه الطريقة العبقرية!

هذه المخاطر لم تغِبْ عن عليّ بن أبي طالبٍ ولكنّها لم تكُنْ لتثنيه أن يكون في الفِداء!

أمضى عليّ ليلته في فراش النّبيّ ﷺ، وأمضى الغادرون ليلتهم عند الباب ينتظرون خروجه، فلمّا أصبحوا فإذا هم بعليّ!

فسألوه عن مكان النّبيّ ﷺ، فقال: لا عِلْمَ لي!

فعلموا أنّه قد فاتهم!

في تلبية عليّ أمر النّبيّ ﷺ مثال رفيع للفدائيّة الصّادقة،

المخلصة لدين الإسلام، حيث فدى القائد بحياته، ففي سلامة القائد سلامة الدّعوة، وفي موته وهنها وخذلانها!

ولأنّ هجرة النّبيّ ﷺ جاءت على عُجالة بعد أن أخبر الله تعالى نبيّه بالمؤامرة، لم يتسنّ للنّبيّ ﷺ أن يردّ الأمانات والودائع التي كانت لقريش عنده، لهذا أوكل إلى عليّ بن أبي طالبٍ هذه المهمّة أيضاً!

ولك أن ترى ظلم قريشٍ وبغيها، تأتمن النّبيّ ﷺ على أموالها، لأنّها تراه صادقاً أميناً، وتكذّبه في أمر دينها!

ولك أن ترى عدالة النّبيّ ﷺ وأمانته، هم يتآمرون على قتله، وهو يحرص أن يعيد إليهم ودائعهم!

ولك أن ترى فدائيّة عليّ بن أبي طالبٍ أيضاً، فالفدائية ليست سيفاً وترساً ورمحاً، وإنّما هي في أحد معانيها تأدية المهام المطلوبة على أكمل وجه، وقد كان عليٌّ فدائياً من الطراز الرفيع!

مكث عليٌّ بن أبي طالبٍ ثلاثة أيّامٍ في مكّة بعد هجرة النّبيّ ﷺ يردُّ الودائع، ويؤدي الأمانات، ولمّا انتهى خرج مهاجراً إلى المدينة! وقد تجلّت في هجرته فدائيّته الكامنة فيه، المحرّكة له!

كانت في طريق هجرته يكمنُ في النّهار ويمشي في اللّيل، حتّى وصل إلى المدينة وقد تفطّرت قدماه ونزل الدّم منهما!

لقد لاقى في هجرته ما لم يلاقِه أحدٌ من الصّحابة!

فلم تكن له دابّة يمتطيها وإنّما هاجر مشياً على قدميه، والفدائيّ لا تُثنيه صعوبة الطّريق عن بلوغ آخرها!

ولم يكن يسير في النّهار نظراً لشدّة الشمس والتهاب الرّمال في الصّحراء، وإنّما كان يسير في اللّيل، وهذا فيه من الظلمة والوحشة والمخاطر!

ولكنّ الفدائيّ يطوّع الظروف ولا ينصاع لها!

أضِف إلى ذلك كلّه أنّ عليّ بن أبي طالبٍ هاجر وحيداً، وبهذا يكون قد اجتمع عليه مرارة فراق الوطن، وصعوبة الهجرة مشياً، ووحشة الوحدة، وهو في كلّ هذا يتصبّر أنّه سيلقى النّبيّ ﷺ، وهكذا هو الفدائيّ إذا عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل!

كان يوم بدرٍ هو أوّل يومٍ سَلّ فيه الإسلام سيفه في قتالٍ منظّم، وفي التحام جيشٍ بجيشٍ، وإلّا فإنّ يوم بدرٍ سبقه بعد السّرايا التي كانت بحكم المناوشات الحربيّة لا الاشتباك!

وقبل نشوب القتال خرج ثلاثة من فرسان قريشٍ الأشدّاء، هم عُتبة بن ربيعة وأخوه شَيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، ولكنّهم رفضوا مبارزتهم، وقالوا: أكفّاءٌ كرام ما لنا بكم حاجة، وإنّما نريدُ بني عمّنا!

ثمّ نادى مناديهم: يا محمّد أخرِج لنا أكفاءنا من قومنا!

فقال النّبيّ ﷺ: قُم يا حمزة، وقُم يا عليّ، وقُم يا عبيدة بن الحرث!

فأقبل حمزة إلى عُتبة فقتله، وأقبل عليٌ إلى شيبة فقتله، وأصاب عبيدة بن الحرث الوليد بن عتبة وأصابه الوليد كذلك، فأثخن كلُّ واحدٍ منها الآخر، فمال حمزة وعليٌ على الوليد فقتلاه!

الفدائيّة تتجلّى في هذا الموقف في طاعة القائد، قم يا عليّ! فقام عليٌ مباشرة إلى المبارزة، هكذا هي الفدائيّة في أبسط صورها وأعمقها معاً، أنّ المرء يكون حيث يجب أن يكون لا حيث يرغب أن يكون!

وإن كنت تحسب الفدائيّة بطشاً وفتكاً فقط فأنت لا تعرف الفدائيّة بمعناها الشّامل، يمكن للمرء أن يكون نبيلاً وشهماً وهو في أعلى فدائيّته، وهكذا كان عليٌ بن أبي طالب!

في غزوة أُحُدٍ قام طلحة بن عثمان حامل لواء المشركين، فقال: يا معشر أصحاب محمّد، إنّكم تزعمون أنّ الله يُعجّلنا بسيوفكم إلى النّار، ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنّة، فهل منكم أحدٌ يُعجّله الله بسيفي إلى الجنّة، أو يُعجّلني بسيفه إلى النّار؟!

فقام إليه عليٌ بن أبي طالبٍ، وقال له: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتّى يعجّلَك الله بسيفي إلى النّار، أو يعجّلني بسيفك إلى الجنّة، فضربه عليٌ فقطع رجله، فسقط وانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرّحم يا ابن عمّ!

فكبّر رسول الله ﷺ، وقال الصّحابة لعليّ: ما منعك أن تُجهِز عليه؟

فقال: إنّ ابن عمّي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييتُ منه!

أرأيت فدائيّةً نبيلةً كهذه من قبل؟!

أرأيت كيف أنّ الأمر ليس بطشاً وقتلاً فقط!

أرأيت كيف أنّ للأخلاق متّسعاً حتّى في ميدان المعركة؟!

أرأيتَ كيف يكون المرءُ كبيراً في عين نفسه قبل أن يكون كبيراً في عيون النّاس؟!

وفي غزوة بني النّضير فقدَ الصّحابة عليّ بن أبي طالبٍ ذات ليلة، فسألوا عنه، فقال لهم النّبيّ ﷺ: إنّه في بعض شأنكم!

فلم يلبث عليٌ طويلاً حتّى جاء برأس «عَزْوَك»، وكان عزوك هذا يهوديّاً شجاعاً رامياً، وكان قد عزم على مباغتة المسلمين في نفرٍ من فرسان بني النّضير، فكمنَ له عليٌ، ولمّا رآه منفرداً، شدّ عليه فقتله وعاد برأسه!

مَهمّةٌ فدائيّةٌ غايةٌ في التّعقيد والسّرّيّة، إنّها بعلم العسكريّة تنفيذ محاولة اغتيالٍ خلف خطوط العدو، ويظهر من ثنايا الرّواية أنّ النّبيّ ﷺ هو من كلّفه بهذا الأمر لثقته بفدائيّته، وقربه منه!

هذه الحادثة على اقتضابها تحملُ في طيّاتها الكثير، ولو أردنا أن نُفرِد لها الكلام ما كفاها الصّفحات ولكن الإشارة تُغني عن طول العبارة، وتأمُّلك في ثناياها يُغنيك عن تأمّل غيرك، فتأمّل يا رعاك الله!

وفي غزوة الأحزاب، وبينما الحصار خانق حول المدينة، والصّحابة مُدّرِعون بخندقهم، اقتحم فرسانٌ من المشركين ثغرةً في الخندق، وكانوا بقيادة الفُثلِّ الجبّار عمرو بن وُدّ، فانتبه لهم الصّحابة وأقبلوا إليهم، فقال عمرو بن وُدّ بجبروته المعهود: من يبارز؟!

فوثب إليه عليٌ بن أبي طالبٍ وقال له: يا عمرو، إنّك كنتَ قد عاهدتَ الله ألّا يدعوكَ رجلٌ من قريشٍ إلى أحد خلّتين إلّا أخذتها

منه!

فقال له عمرو: أجل!

فقال له عليٌ: فإنّي أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام!

فقال له عمرو: لا حاجة لي بذلك!

فقال له عليٌ: فإنّي أدعوك للنّزال!

فقال له عمرو: لِمَ يا ابن أخي؟ والله ما أُحِبُ أن أقتلك!

فقال له عليٌ: لكنّي والله أحبُ أن أقتلك!

فحمِيَ عمرو عند ذلك، وأقبل على عليّ بن أبي طالب، فأقبل عليٌ إليه، فتبارزا ما شاء الله لهما، ثمّ عاجله عليٌ بضربةٍ فقتله!

عندها دبّ الرّعبُ في فرسان قريشٍ، ورجعت خيلهم منهزمة!

عمرو بن وُدٍّ كانت تخشاه الرّجال في المبارزة، وتحيد من طريقه الفرسان، ولكنّ عليّ بن أبي طالبٍ رجلٌ غير الرّجال، ونوع آخر من الفرسان، إنّه لا يهاب أحداً إلّا الله، وهنا كان يكمنُ سرُّ فدائيّته، كانت قوته في قلبه قبل أن تكون في ذراعه، وشدّته في عقيدته قبل أن تكون في سيفه، وحمى الله عورة المسلمين به، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء!

ولا يمكن بأيّ حالٍ الحديث عن فدائيّة عليّ بن أبي طالبٍ دون الوقوف على يوم خيبر! فقد كانت خيبر مستعمرة يهودية تتضمّن قلاعاً حصينةً، وقاعدةً حربيّةً لليهود، وآخر معقلٍ من معاقلهم في جزيرة العرب، وكانوا يتربّصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون مع

يهود المدينة وخارجها لغزو المدينة، فأراد النّبيّ ﷺ أن يستريح منهم، ويأمن مكرهم، فتوجّه بجيشه إلى خيبر!

واستعصى حصنهم على المسلمين، وكان عليٌ بن أبي طالبٍ قد أصابه الرّمد فلا يستطيع أن يرى أمامه، فقال النّبيّ ﷺ كما في صحيح مسلم: لأعطيَنّ هذه الرّاية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله!

فبات النّاس ليلتهم أيُّهم يُعطاها؟!

فلمّا أصبح النّاس، غدوا على النّبيّ ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين عليٌ بن أبي طالبٍ؟

فقيل: يا رسول الله، يشتكي عينيه!

قال: فأرسلوا إليه!

فأُتِيَ به، فبصق النّبيّ ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرأ حتّى كأنّه لم يكن به وجع، فأعطاه الرّاية!

فقال عليٌ: يا رسول الله، أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا؟

فقال له: انفُذ على رِسلِك حتّى تنزل بساحتهم، ثمّ ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فو الله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمرُ النّعم!

فانطلق عليٌ حتّى فتح الله عليه خيبر!

كانت مهمّة عسيرة، وحصن قد استعصى على الفتح، وعليٌ قد أصابه الرّمد، وفي الصّحابة فرسانٌ غيره، ولكنّ النّبيّ ﷺ عرف

بفطنته أنّ هذا الموقف لن يقوم به على هذا الوجه غير هذا الفدائيّ فاستدعاه!

نال عليٌّ في ذلك اليوم تزكيةً عظيمةً، تزكية في إيمانه، وتزكية في قدراته الحربيّة، وهذا يُغنيك عن سرد وقائع المعركة ما دمتَ قد عرفتَ مقدمتها ونتيجتها!

من النّاس من هو أنفع للإسلام، وإصراره أن يكون عليُّ بن أبي طالبٍ هو حامل اللّواء، وصاحب الفتح، إنّما إقرارٌ للفدائيّ بفدائيّتِه!

وتتجلى كذلك فدائيّة عليّ بن أبي طالبٍ في المهام الأمنيّة التي كان يوكلها إليه النّبيّ ﷺ، وهذه المهام بعلم العسكر تحتاج رجالاً من قوّات النّخبة! فالقتال في ساحة المعركة يستطيعه كلُّ أحدٍ، أمّا المهام الأمنيّة المعقّدة فهي لخواص الفرسان، وكان عليٌّ من أبرز فرسان المسلمين في هذا المجال!

كانت مكّة على موعدٍ قريبٍ مع الفتح، النّبيّ ﷺ قد حسم أمره بالمسير إليها، وأخبر الجيش بالاستعداد، ولأنّ الحرب خدعة، ومن يملك عنصر المفاجأة نادراً ما يُهزم، أمر النّبيّ ﷺ الصّحابة بكتمان أمر المسير إلى مكّة!

غير أنّ شيئاً لم يكن بالحسبان قد وقع، يستدعي النّبيّ ﷺ الفرسانَ الثلاثة عليّاً والزّبير والمقداد، ويأمرهم بالتّوجّه إلى «روضة خاخ» حيث هناك امرأةٌ تحملُ رسالةً عليهم إحضارها إليه مهما كلّف الأمر!

وأمرهم بالتّوجّه فوراً إلى «روضة خاخ» حيث هناك امرأة تحمل

رسالةً عليهم إحضارها إليه مهما كلّف الأمر!

توجّه الثّلاثة مسرعين فوجدوا المرأة هناك، فطلبوا منها أن تعطيهم الرّسالة، فأنكرت وجودها، فقالوا لها: إما أن تخرجي الكتاب أو لنَضَعَنّ الثّياب، فلمّا علِمت أنّهم عازمون على تفتيشها، أعطتهم الرّسالة وعادوا بها إلى المدينة، وهناك فتح النّبيّ ﷺ الرّسالة فإذا هي من حاطم بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم فيها بعزم النّبيّ ﷺ على السّير إلى مكّة لفتحها!

خرقٌ أمنيٌ خطير، وإن شئت فقُلْ: خيانةٌ عُظمى!

ويُبرر حاطبٌ فعلته بأنّ له أهلاً ضعفاء في مكّة، وأنّه أراد برسالته هذه أن تكفّ قريش أذاها عنهم!

ويقبلُ النّبيّ ﷺ عُذره، ويطلبُ منه عمر بن الخطّاب أن يضرب عنق حاطب، فيقول له النّبيّ ﷺ: لا يا عمر، إنّه قد شهِدَ بدراً، وما أدراكَ لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم!

هذه الثّقة النبوية العالية بتكليف عليّ بن أبي طالب بهذه المهام الأمنية غاية في الحساسيّة والتّعقيد، ما كانت لتكون لولا أنّ علياً كان يتمتّع بفدائيّةٍ قلّ نظيرها، وكان قد أثبتها من قبل في مواطن كثيرة جعلتها محطّ استحسان وتقدير من النّبي ﷺ، ثمّ صار دأب الاستحسان بعد الاستخدام يعقبه استخدام آخر، وعليٌ كالعادة عن حسن الظّنّ!

وفي غزوة حُنين كشّرت فدائيّة عليّ بن أبي طالبٍ عن أنيابها

أيضاً، يومها اغترّ المسلمون بقوّتهم، وظنّوا أنّهم لن يُهزموا من قلّة، فأدار الله تعالى الدائرة عليهم أوّل الأمر ليؤدّبهم، وفرّ كثيرٌ من الصّحابة، وثبت مع النّبيّ ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار، كان عليٌّ بن أبي طالبٍ منهم!

وكان في جيش هوازن رجلٌ على جملٍ أحمر بيده رايةٌ سوداء، إذا أدركَ طعنَ برمحه، وإذا فاته النّاس رفع رمحه لمن وراءه فاتّبعوه! فأدرك عليٌّ بفدائيّته المعهودة أنّ لهذا الرّجل عاملاً مؤثّراً في إقبال هوازن على القتال وشدّتها فيه!

فاتجه نحوه ومعه رجلٌ من الأنصار، واستطاعا اسقاطه من على جمله، وطعنه عليٌّ في صدره وقتله، فما كانت إلّا ساعة حتّى عاد من فرّ، يشدُّ إزرَ من ثبتَ، ومنّ الله تعالى على المسلمين بالنّصر!

هذه النّظرة الثّاقبة لميدان المعركة، وهذه القراءة العميقة لنقاط القوّة في جيش العدوّ، ما هي إلّا نتاج هذه الفدائيّة التي تحرّك شخصيّة عليٍّ بن أبي طالبٍ، وقد يفتحُ الله تعالى على الجماعة بشجاعة الفرد، وقد كان عليٌّ يومها من أكبر أسباب النّصر، رضي الله عنه وعن الصّحابة أجمعين!

الفدائيّة التي سخّرها عليٌّ بن أبي طالبٍ لخدمة الإسلام في عهدِ النّبيّ ﷺ، سخّرها كذلك لخدمة الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين الثّلاثة الذين آلت إليهم مقاليد الأمور قبله!

ومن مواقف فدائيّته المشهورة مع أبي بكرٍ، يوم بُويع بالخلافة وارتدّت العرب، موقف ذي القصّة، وذو القصّة جبلٌ عند قبيلة طيءٍ، فقد كانت فيمن ارتدّ من العرب، فجهّز أبو بكرٍ الجيش لتأديبهم،

وإعادتهم إلى حياض الاسلام، ثمّ استوى على رأس الجيش! عندها أخذ عليٌّ بن أبي طالبٍ بزمام ناقةِ أبي بكرٍ وقال له: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقولُ لك ما قال النّبيّ ﷺ لك يوم أُحُد: لُمّ سيفك ولا تفجِعنا بنفسك! يا خليفة رسول الله، اِرجع إلى المدينة، فو اللهِ لئن فُجعنَا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً!

فسمع أبو بكرٍ ما قاله له عليٌّ، فرجع إلى المدينة، وخرج عليٌّ في الجيش المتّجِه إلى ذي القصّة!

إنّ الفدائيّة التي كان يتمتّع بها عليٌّ بن أبي طالبٍ كانت من النّوع الفريدِ الذي توّجته الحكمة، وزيّنها العقل، يعرفُ عليٌّ أن بقاء الدّولة والنّظام مرهون ببقاء رأسه، وقد عزّ عليه أن ينظر إلى الإسلام فلا يرى أبا بكرٍ على رأسه، كانوا إخوةً متحابّين، يرمون في سبيل الله عن قوسٍ واحدةٍ، رضي الله عنهم جميعاً، وكتب لهم أجر هذه العبادات التي نؤدّيها اليوم بفضل الله ثمّ بفضل جهادهم ودمائهم!

أمّا في عهد عمر بن الخطّاب، فقد وُليَ عليٌّ بن أبي طالبٍ إمارة القضاء، فكان وزير عدل عمر، وقد أبى عمر أن يرسله مع الجيوش إذ لم يكن يستغني عن عقله ومشورته، ورأى أنّ عقله ورأيه أنفع للمسلمين من سيفه، خصوصاً أنّه في عهد عمر توقّف جهاد الدّفع، وزال الخطر، وانتقل المسلمون إلى الفتوحات وجهاد الطّلب! ويكفي لإبراز مكانة عليٍّ عند عمر أنّه كان إذا عرض له واحدة من شائكات الأمور قال: قضيّة ولا أبو حسنٍ لها!

وعلى هذا سار عليٌّ بن أبي طالبٍ مع عثمّان بن عفّان، فكان له وزيراً صادقاً، ومستشاراً أميناً، إلى أن حدثت الفتنة، وحاصر شذّاذ

الآفاق دار عثمان، فصبر عثمان على هذا البلاء، على العهد الذي بينه وبين النّبيّ ﷺ، وأرسل عليٌّ بن أبي طالبٍ إلى عثمان يقول له: إنَّ معي خمسمئة فارس، فأذن لي، فأمنعك من القوم، فإنّك لم تُحدِث شيئاً يُستَحلُّ به دمك!

فقال له عثمان: جُزيت خيراً، ما أحبُّ أن يهراق دمٌ بسببي!

ورغم هذا عندما احتدم الأمر، أرسل كبار الصّحابة أبناءهم للدّفاع عن عثمان دون إذنٍ منه، وأرسل عليٌّ ابنه الحسن، فأصيبَ يوم مقتل عثمان بإصاباتٍ بليغة، وحُمِلَ إلى عليٍّ به جراح!

أمّا بعد هذا، ففتنٌ طهّر الله أيدينا منها، فنُطهّرَ عنها أقلامنا، فرضيَ الله عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ، وعن الصّحابة أجمعين!

هذا هو الفدائيُّ الذي رأيتَ، والمغوار الذي سمعتَ، أنموذجٌ فريد من الشّجاعة والإقدام، حفر نفسه في تاريخ المسلمين بأحرفٍ من نور، نحبّه، ونتعبّدُ الله بحبّه هو وآل بيته الأطهار.

# خالد بن الوليد!

ثمّ أخذ الرّاية سيفٌ من سيوف اللهِ مسلولٌ!

بهذه الكلمات أعلن النبيُّ ﷺ ميلاد واحدٍ من أعظم قادة الجيوش، ليس في تاريخ الإسلام فقط، وإنّما في تاريخ البشريّة قاطبةً!

طبعاً لا أحدَ يُنكر عبقريةَ خالدٍ العسكريّة قبل الإسلام، فهو الذي قلّبَ نصر المسلمين إلى هزيمةٍ يوم أُحدٍ، ولكنّ الإسلام، هذا الدِّين العظيم الذي يعمدُ إلى صفات الفرد التي جُبِلَ عليها فيرفعها إلى أعلى سقفٍ يمكن أن تصل إليه، هو الذي أخرج خالداً من ضيق القبيلة إلى سعة الأمة، والحقُّ يُقال أنّ خالداً أعطى الإسلام كثيراً، ولكنّ الإسلام العظيم هو الذي أعطاهُ ميدان المعركة حتى غدا أحد أشهر القادة العسكريين في التّاريخ، والأهمُّ من ميدان المعركة أعطى الإسلام خالداً قَضيّة!

أناة القطّ ووثبة الأسد!

بهذه الكلمات وصف أبو بكرٍ عبقريةَ خالدٍ العسكريّة، يكمنُ على حذرٍ كأنّه لا يريدُ الحرب، ويثِبُ بشجاعةٍ فلا يرجعُ من وثبتِه تلك إلا برأسِ عدوّه!

لا ينامُ ولا يدعُ أحداً ينام!

بهذه الكلمات وصفه أعداؤه، خالد في يعيش المعركة بكلِّ جوارحه قبل أن يخوضها، يرسم كل شيءٍ بدقّة، وينتبه لأصغر التّفاصيل، ويُولِي الحرب النفسيّة مكانها، فكان أعداؤه يشعرون أنّهم في حربٍ معه قبل أن تبدأ المعركة!

واتكاءً على كلّ ما سبق، لا أجد أنا، ولا غيري، حاجةً للتأمل الطّويل في سيرة خالدٍ لنعرف السّمة التي كانت تحرّك شخصيّته؛ شخصيّة بيّنة جليّة، إنّها شخصيّة الجنرال! تشعر وأنت تقرأ «تكتيكات» خالد العسكريّة أنّه قد وُلدَ من رحِم المعارك لا من رحِم أمّه! كما وُلدت الأسماك لتسبح، وكما وُلدت العصافير لتزقزق، وكما وُلد النّحل ليجمع الرّحيق ويصنعَ العسل، وُلدَ خالد بن الوليد ليحارب، كانت الحرب تجري في دمه!

شخصيّة الجنرال التي كانت المحرّك الرئيس لخالد بن الوليد تمتاز بحدّة الذّكاء، وقوّة الشخصيّة، والجرأة في اتّخاذ القرار، وقلب موازين المعارك من الهزيمة إلى النّصر، والاستفادة من التّضاريس الجغرافيّة واستخدامها في التّرتيب للمعركة، وفَهم نفسيّة جيشه ونفسيّة عدوّه، يُتوّج كلّ هذا شجاعةٌ منقطعةُ النّظير، وهذا هو خالد بن الوليد باختصار!

رسمُ الخطّة العسكريّة للمعارك يجيده أغلب القادة العسكريين قديماً وحديثاً، ولا يوجد معركة إلّا ولها خطّة، سواء كانت المعركة دفاعاً أو هجوماً، لا أحد يحارب اعتِباطاً، ولكنّ القدرة على تعديل هذه الخطّة بحسب سيرِ المعركة فهذه هي التي تُميّز قائداً عن قائد، إعادة تموضع الجيش، تعديل التّشكيلات القتاليّة، تفادي الثّغرات في صفوف جيشك، واستغلال الثّغرات في صفوف جيش عدوّك، هي الفارق بين قائدٍ وقائد، وكل هذه الأمور كانت ميدان خالد ولعبته!

في كلّ المعارك نجدُ أنّ لمسةً من خالدٍ كان لها أثرها على نتيجة المعركة. في غزوة أُحدٍ، ومعركتَي مُؤتة واليرموك، لمسة خالدٍ هي

التي حوّلت الهزيمة النّكراء إلى نصرٍ ساحقٍ!

كانت غزوة أُحدٍ هي أوّل معركةٍ واجه فيها خالد جيشَ المسلمين، ففي السّنة الثّالثة للهجرة الشّريفة، جاءت قريش بِخَيلِها ورَجِلِها وعتَادِها لتثأر لهزيمة بدرٍ!

وكانت قريشُ ثلاثةَ أضعافِ المسلمين عدداً، وكان خالدُ قائدَ كتيبةِ فرسانها، الكتيبةُ الأشرس والأعلى تدريباً وتجهيزاً في جيشِ قريشٍ والتي يبلغ قَوامُها مِئتي فارسٍ!

ولتَفَادي الأثر الذي يمكن أن يحدِثَه فارقُ العدد بين الجيشين جعل النّبيُّ ﷺ ظهر الجيش إلى جبلِ أُحدٍ بحيث يُصبِح من العسير أن يلتفَّ المشركون على المسلمين ويقتلونهم من ظهورهم، ولتحقيقِ هذه الغاية وضع النّبيُّ ﷺ خمسين من الرُّماة على الجبل، وأمّرَ عليهم عبد الله بن جبير، وأصدر إليهم أمراً عسكرياً واضحاً! قوموا إلى مصافِّكم هذه فاحمُوا ظُهورنا، فإن رأيتمُونا قد غنِمنا فلا تُشاركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا؟

ونشبَ القِتال، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وحملوا على المشركين وأعملوا فيهم السّيف، فبدأوا يفرُّون أمامهم، وفي كلِّ هذا خالدُ على رأس كتيبتِه يُراقب المعركة ولم يشتَرِك في القتال بعد، إنّها أَنَاةُ القطّ التي أخبر أبو بكرٍ عنها!

وحين رأى الرُّماة انهزام جيش المشركين! تركوا مواقعهم، إلّا عبد الله بن جبير وعددٌ قليل، وعبد الله يُنادي فيهم: ما تفعلون بقول رسول الله ﷺ: لا تبرحوا أماكنكم!

فمضَوا في سبيلهم ولم يلتفتوا إليه!

حينها انتقل خالدٌ من أناة القطّ إلى وثبة الأسد، فالتفّ بكتِيبتِه من وراء الجبل، فقتلوا من بقى من الرماة، وصاروا في ظهور المسلمين، فأعملوا فيهم السّيف، وعلى هَوْل هذا المَشهَدِ، تجرّأ من كان قد فرّ من قريش، وعاد أدراجَه ليقاتل، وهكذا أصبح جيش المسلمين بين فَكّي كمّاشة، جيش قريشٍ يُحاربهم من وجوههم ومن وراء ظهورهم، ولتفادي ملحمةً مُحقّقةً انسحب المسلمون إلى الجبل، وكلّفهم كلُّ هذا سبعين شهيداً من خِيرةِ هذه الأمّة على رأسهم حمزة ومصعب!

نصرُ قريشٍ كلّه يوم أحدٍ كان بسبب لمسةٍ واحدةٍ من خالد، إنّها شخصيّة الجنرال التي تبحث عن أدنى ثغرة في صفّ العدوّ فتحوّل الهزيمة إلى نصرا!

إنّها السّرعة في اتّخاذ القرار، والجرأة على تنفيذه، هذا هو خالد بن الوليد الذي لم يُهزم قطّ لا في جاهليةٍ ولا في إسلامٍ!

أمّا في غزوة مؤتة فيمكن القول إنّ الله تعالى أنجى المسلمين بخالدٍ بن الوليد من مذبحةٍ مُحقّقةٍ!

عيّن النبيّ ﷺ على جيشِ مُؤتة ثلاثةَ قادةٍ بالتّراتب، قيادة الجيش لزيد بن حارثة، فإن استشهد فجعفر بن أبي طالبٍ مكانه، فإن استشهد جعفرٌ فعبد الله بن رواحة مكانه!

وبدأتِ المعركة بين جيش المسلمين البالغِ ثلاثة آلافٍ وجيش الرّوم وحلفاؤهم البالغ مئتي ألفٍ! وعلى وقع هذا الفارق الشاسع في

العدد والعتاد مالت الكفّة بصورةٍ واضحةٍ لصالحِ جيش الرُّوم!

وكان جبريل ينقلُ للنّبيّ ﷺ وقائع المعركة، فصعدَ النّبيُّ ﷺ المنبر، وقال: أخذ الرّاية زيدٌ فأُصيب، ثمّ أخذها جعفرٌ فأُصيب، ثمّ أخذَها ابن رواحةٌ وأُصيب، وعينًا رسول الله ﷺ تذرفان، ثمّ قال: ثمّ أخذ الرّايةَ سيفٌ من سيوفِ الله، حتّى فتح اللهُ عليه!

كان النّبيُّ ﷺ يعرِفُ حِنكَةَ خالدِ العسكريّة بلا شكٍ، وإنّما لم يستخدمه على الجيش لأنّه كان حديث عهدٍ بالإسلام، فلم يسبق على إسلام خالدٍ أكثر من ثلاثةِ أشهرٍ، ولكن سبحان من إذا أراد أن يَسُلَّ سيفاً في سبيله سَلّهُ ولو بخلاف الأسباب!

أمّا كيف آلَت قيادةُ الجيشِ إلى خالدِ بن الوليد، فإنّه بعد أن استشهِد القادة الثلاثة للجيش، أخذ الرّاية ثابت بن أقرم، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجلٍ منكم!

فقالوا: أنتَ!

فقال: ما أنا بفاعلٍ! وأعطى الرّاية لخالد بن الوليد!

فقال له خالد: أنت أحقُّ بها منّي، أنتَ أقدمُ إسلاماً وإيماناً!

فقال له ثابتٌ: أنت أعلم منّي بالحرب، والله ما أخذتُها إلّا لكَ!

ورضيَ المسلمون بذلك، واصطلحوا على أن تكون إمارة الجيش لخالد!

نظر خالدٌ إلى واقعِ المعركة بدهائه العسكريّ، فرأى أنّ استمرارها يعني فناءَ الجيش كلِّه، وأنّ الانسحاب هو أكثر ما يمكن فعله!

والانسحاب في العلوم العسكريّة لا يقلُّ تعقيداً عن الهجوم!

أعدّ خالدٌ للانسحاب خطّةً عبقريّةً ما زالت تُدرّس في الكلّيّات الحربيّة كأنموذجٍ على أكثر خُطط الانسحاب دهاءً في التّاريخ!

عمد خالدٌ إلى الحرب النّفسيّة، فقد أوكل إلى مجموعةٍ من الجيش مهمّة إثارة الغبار طوال اللّيل، والرّوم يرقبون، فظنّوا أنّ الإمدادات تصل إلى جيش المسلمين، وهذا بالضّبط ما أراده خالد!

ثمّ عندما التقى الجيشان في الصّباح، كان خالدٌ قد أعاد تنظيم جيش المسلمين، فقد قلبَ المَيسرة ميمنةً، والمَيمَنة ميسرةً، وجعل مؤخّرة الجيشِ مقدّمته، ومقدّمته مؤخّرته، فتفاجأ الرّوم بهذا، واعتقدوا أنّ أمامهم جيشاً آخر غير الذي كان يحارب بالأمس، ممّا أثار الرّعب في قلوبهم، وهذا بالضّبط ما أراده خالد!

ولم يكتفِ خالدٌ بهذا القدر من الحرب النفسيّة، بل استمرّ في تضليلِ جيشِ الرّوم، فجعلَ بعض الجُند يعسكرون فوق إحدى التّلال القريبة، وطلب منهم أن يُثيروا الغبار أثناء المعركة، ليتوهّم الرّوم أنّ الإمدادات العسكريّة تصل تباعاً إلى المسلمين!

بعد ان اكتملت أركان الخداع النّفسيّ، أصدر خالد أمراً للجيش بمهاجمة جيش الرّوم ببسالةٍ لشقّ طريق الانسحاب، فكان له ما أراد، وأخذ ينسحب شيئاً فشيئاً في الصّحراء، فظنّ الرّوم أنّ خالداً يستدرجهم في الصّحراء لشيءٍ يخبّئه لهم بناءً على المعطيات التي خدعهم بها، فخافوا من ملاحقته، وهكذا وصل خالدٌ بالجيش سالماً إلى المدينة!

وفي المدينة جعل بعض المسلمين ينعِتون الجيش بالفُرّار، ويقولون للمجاهدين: أنتم الفُرّار!

فقال لهم النّبيُّ ﷺ: بل أنتم الكُرّار!

وفي قوله ثناءٌ على صنيع خالدٍ وحِنكته العسكريّة، ومن قبل وصوله أساساً سمّى فعله فتحاً!

مرّةً أخرى تظهر شخصيّة الجنرال التي تُحرّك خالد بن الوليد، ومرّةً أخرى نجد أنّ لمسةً منه على الجيش قلبت موازين للمعركة، وحوّلت الهزيمة المُحقّقة إلى نصرٍ أكيد!

أمّا في معركة اليرموك فقد كشّرت شخصيّة الجنرال الكامنة في خالدٍ عن أنيابها خير تكشيرٍ!

تولّى خالد بن الوليد القيادة العامّة لجيوش المسلمين بتنازلٍ كريمٍ من أبي عبيدة بن الجرّاح. فقد وصله كتاب عمر بن الخطّاب بوفاة أبي بكرٍ وتولّيه الخلافة، وأنّه قد قام بعزل خالدٍ وعيّنه قائداً عامّاً على الجيوش، ولكنّ أبا عبيدة أخفى هذا الأمر عن خالدٍ وعن جميع المسلمين حتّى لا يُؤثّر هذا في نفسيّتهم قبل هذه المعركة الفاصلة!

فقد قسّم خالدٌ الجيش تقسيماً عبقرياً يُجمِع المؤرّخون أنّه أوّل من قَسّمَ جيشاً على هذا النّحو في التّاريخ!

قسّم الجيش إلى كراديس أي كتائب، كلُّ كتيبةٍ تضمُّ ما بين ستمئةٍ إلى ألفِ مقاتلٍ، ثمّ قسّم هذه الكتائب إلى أجزاء عشريّة، فجعلَ على كلِّ عشرةِ مقاتلين عريفاً، وعلى كلِّ عشرة عرفاء نقيباً، وعلى كلِّ عشرة نقباء قائداً عامّاً للكتيبة!

وجعل رجال كلّ كتيبةٍ من قبيلةٍ واحدةٍ، فكان الجُندُ والقادة بينهم الرّحِم والدّم والدّين!

ثمّ جمع الكتائب كلّها في تشكيلٍ عسكريٍّ مهيبٍ على شكلِ جسد طائرٍ، وجعل على قلبِ الجيش أبا عبيدة بن الجرّاح، وعلى ميمنته عمرو بن العاص، وعلى ميسرته يزيد بن أبي سفيان، وهو بطبيعة الحال على كلّ هذه التّشكيلات الحربيّة!

ولأنّ الرّوم يومها فاق عددهم مئتي ألف أي أنّهم كانوا سبعة أضعاف جيش المسلمين من حيث العدد ترك لهم بدء القتال، وقد اختار خالد هذه الخطّة لسببٍ آخر غير العدد وإن كان مرتبطاً به، وهو أنّه أراد أن يُحيّد فرسان الرّوم ويستفرد بمُشاتِهم، ولكنّ هذا كلّه لن يتحقّق حتّى يتمّ صدّ هجوم الرّوم الأوّل!

أخبر خالد الجيش أنّ النّصر كلّه يتوقّف على احتمال هذه الضّربة، كان الجنرال يعرفُ جيداً أنّ النّصر يكون غالباً ليس لمن يسدّد الضّربة وإنّما لمن يتلقّاها!

تحمّل المُسلمون هذا الهجوم الكاسح بكلّ ثباتٍ واقتدارٍ، إذا اهتزّ صفٌّ عادَ والتأمَ فوراً بالقتال بفضلِ التّقسيمات العشريّة التي أعدّها خالد قبل المعركة، ثمّ لمّا حانت اللّحظة، صاح خالدٌ بالجيش: يا أهل الإسلام، لم يبقَ عند القوم من الجلد والقوّة إلّا ما رأيتم، فالشّدّة الشّدّة، والذي نفسي بيده ليعطينّكم الله عليهم الظّفر السّاعة!

وزحف خالد بفرسانه الذين لم يشاركوا في صدّ الهجوم، وكان يدّخرهم لهذه اللّحظة الحاسمة، فانقضّوا على الرّوم الذين أنهكهم التّعب، واختلّت صفوفهم، وكانت فرسان الرّوم قد نفذت إلى معسكر

المسلمين، فلمّا قام خالد بهجومه المضاد حال بين فرسان الرُّوم ومُشاتِهم وهذه كانت خطته منذ البداية! فأعمل خالدٌ والمسلمون السّيف في مُشاة الرُّوم، وكان قد أوعز إلى الجيش أن يدعوا فرسان الرُّوم ينحسبون فراراً فلا يُضيقوا عليهم، لأنّ سحق المُشاة يعني الانتصار في المعركة، وهذا هو الذي كان!

هذا هو جنرالكم أيُّها المسلمون، هذا بأسه، وهذه حِنكته الحربيّة، ودهاؤه العسكريُّ، إنّه يلعب بمهارةٍ بأعداد جيش العدوِّ، يجزُّها حيث يريد، يُنحّي منها من يريد ويُقاتل من يريد!

خالدٌ كان بحقٍّ كما سمّاه النّبيُّ ﷺ: سيفُ الله المسلول!

إنّ الوقوفَ على كلِّ المعارك التي خاضها خالد بن الوليد، والإضاءة على دهائه العسكريِّ فيها لا يكفيها كتابٌ، لخالد بن الوليد في حروب الردّة عموماً، وفي يوم اليمامة خصوصاً تدبير عسكري عجيب تجلّت فيها شخصيّة الجنرال تجلياً يقف المرء أمامها حائراً متسائلاً: كيف يأتي كل هذا الدهاء الحربيّ من رجلٍ لا يعرفُ الكليات العسكريّة، ولا قرأ كتاباً في فنون الحرب، ولم يبرح صحراء العرب في حياته، ولم يُجرِّب غير حروب القبائل التي عرفتها العرب في الجاهليّة، ناهيك أن قريشاً بالأساس كانت محط تعظيم عند العرب لمكان البيت فيها فما كانت تغزو ولا كانت مطمعاً للغزاة، ولكن الحرب كانت تجري في دماء خالد بن الوليد!

ولكن لا يمكن بأيِّ حالٍ الحديث عن دهاء خالد بن الوليد العسكري، ولا عن شخصية الجنرال التي كانت المحرِّك الرئيس لشخصيته دون الحديث عن عبور المفازة!

كان خالد بن الوليد في العراق حين وجّه إليه أبو بكر الصّديق الأمر بالمسير إلى اليرموك ليرأس جيوش المسلمين لقتال الروم!

كانت المعركة على بعد أيامٍ من أن تقع، والوصول من العراق إلى الشّام يلزمه وقت لا يملكه خالد، ولو سلك الطرق العادية لفاتته المعركة!

سأل خالد بن الوليد عن أمهر دليلٍ وأعرفهم بطرق الصحراء فدُلّ على رافع بن عميرة، فأحضره خالد وسأله، فأخبره رافع أنّ هناك ثلاث طرق إلى الشام، طريق سهل موفور بالماء والرّزق، ولكنه كثير السكان ولن يوصله على الموعد الذي يريده! وطريق قليل السكان موفور بالماء ولكنه طويل، وطريق ثالث وعر، قليل الماء، غير مطروق، ولكنه أقصرها جميعاً!

فجعلَ خالد يستفسر من رافع عن الطريق الثالث إذ لا سبيل إلى بلوغ الشّام قبل القتال غيرها، فوصفها له رافع وصفاً تقشعر له الأبدان، فقال: إنّك لن تُطيق عبوره بالخيل والأثقال، والله إنّ الرّاكب الفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها إلّا مغرور، إنّها لخمس ليالٍ لا يُصاب فيها ماء مع مضلّتها!

لا شكّ أنّ كلمات رافع مخيفة مرعبة، وإنّها تكفي لبثّ الرّعب في أشجع القلوب!

خمس ليالٍ طوال في صحراء قاحلة مخيفة ما يسلكها إلا مغرورا يخافها المرء المنفرد على نفسه مع حسن استعداده، وكثرة ما معه من ماءٍ وطعامٍ، ثمّ هي صحراء يعلن الدليل نفسه أنّه قد يضِلُّ فيها!

كلُّ هذه الأوصاف ما كانت لتثير الرُّعب في قلب خالد، فقد كان إذا رام وصولاً لا تثنيه وعثاء الطريق! فعقد العزم فوراً، وانتقل إلى ترتيب الأمور اللوجستية التي تسمح بوصول الجيش وتحول دون هلاكه!

عندها قال له رافع، أكثروا من الماء، ومن استطاع منكم أن يصرّ أذن ناقته على ماءٍ فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفعَ الله!

ثمّ أمر بعشرين ناقةٍ عظيمةٍ سمينةٍ، فلمّا أُتِيَ بها أجهدها عطشاً، ثمّ أوردها الماء فشربت حتّى امتلأت، ثمّ قطع مشافرها وكممها حتّى لا تجترّ ما فيها ماءٍ، وهكذا أصبحت هذه النوق عبارة عن خزّانات ماء متنقلة. وعليه يكون ما يحمله الجنديّ من ماءٍ هو زاده، وما في بطون هذه النوق هي شرابٌ لدواب الجيش، يذبحونها ثمّ يستخرجون ما في بطنها، ثمّ يسقون الخيل!

وسار الجيش على بركة الله، تحفه معيّته، وبعد خمس ليالٍ ذبحت النوق، ونفد الماء من الجيش، العطش خيّم على الأجواء، والصحراء على ما يبدو ليس لها أخر، وما من دليل أساساً يخبرهم أنهم في الطريق الصحيح، فقد أخبر رافع أنّ الضياع في متاهة الصحراء أمرٌ واردا!

عندها قال خالدٌ لرافع: ويحكَ يا رافع ما عندك؟!

وكان رافع قد أصب بالرّمد في الطريق فلا يرى شيئاً، فقال: انظروا، هل ترون شُجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟!

فنظروا في كل اتجاه فلم يجدوها! فقال رافع: هلكتم والله إذن،

وهلكتْ معكم لا أبا لكم، انظروا، وانظروا!

فجعلوا يبحثون، فإذا هم بالشجرة وقد قُطِعت، وبقي منها بقيّةً باقيةً! فلمّا رآها المسلمون كبّروا، ثمّ حفروا بجوارها، فإذا الماء ينبعُ عذباً، فشربوا، وسقوا الخيل، وأدركوا معسكر المسلمين قبل نشوب القتال!

الجنرال بطبيعته مغامر، والحرب كلُّها أساساً مغامرة، ولكن بين المغامرة وإلقاء النّفس والنّاس في التهلكة خيطٌ رفيع، وهو الذي لعبَ عليه خالد بن الوليد!

فمغامرته لم تكن مغامرة جاهل متهوّر لا يحسبُ عواقب الأمور، ولا يأخذ أسبابها من قبل، ولكنّها مغامرة مدروسة، استمع فياه للرأي، واصطحب الدّليل، وأعدّ من أسباب العبور ما غلب على ظنّه أنّه سيُبلّغه وجهته، وقبل كل هذا كان يقينه أنّ الله لن يُضيّعه، فما قام بكل هذا إلّا ابتغاءً لوجه الله، ونصرةً لدينه، وإعلاءً لكلمته، والله لا يُضيّع أهله!

إنّ قدر الله قد كُتب، وما شاء أن يكون فهو كائنٌ لا محالة، ولكن تخيّل معي شكل معركة اليرموك كيف كان سيكون لولا شخصيّة الجنرال في خالد بن الوليد، فخالد لم يصل بالجنود فقط إلى اليرموك، خالدٌ أعدّ كلّ شيءٍ يوم اليرموك!

تخيّل لو أنّ خالداً آثر السّلامة المطلقة في السير على المغامرة المحفوفة بالمخاطر!

تخيّل لو أنّ المعركة قد وقعت بين المسلمين والرّوم وخالد في

طريقه الطويلة الآمنة!

خالد كان له أكبر الأثر في هزيمة الرُّوم، وفي فتح بلاد الشَّام بعد ذلك!

ولعلّ ما من امرئٍ في الشَّام اليوم يصلِّي ويصوم ويتصدّق ويحجُّ ويعتمر إلّا وفي صحيفة أبي سليمان مثل ما في صحيفته!

رحم الله سيفه، وكتبَ أجره، وجزاه عنّا خير ما جزى بطلاً من أبطاله، وجمعنا به في جنّات عدنٍ رفقة النبيّين والصدّيقين والشُّهداء!

# أبو عبيدة بن الجرّاح!

لكُلِّ أمّة أمينٌ، وأمينُ هذه الأمّة أبو عبيدة!

لم أجد أروع من هذا الوسام الذي قلّده النّبيُّ ﷺ لأبي عبيدة ليكون تقديماً لهذه الشخصيّة التي تركت بصمتها على دين الإسلام!

وإنّ النّبيّ ﷺ لو وصف أبا عبيدة بالأمانة هكذا مجرّدةً لكفى أبو عبيدة فخراً، ولو وصفه أنّه أكثر الصّحابة أمانةً لزاد الفخر، أمّا أن يقلّده منصب أمين هذه الأمّة منذ البعثة الشريفة حتّى ينفخ إسرافيل في الصّور، فهذا هو باب الفخر الذي فُتِحَ لأبي عبيدة وأُغلِق عليه، فلا يدركه من النّاس أحد!

روى البخاريُّ في صحيحه: جاء العاقبُ والسّيّدُ صاحبا نجران إلى النّبيّ ﷺ يريدان أن يُلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعلْ، فو الله لئِن كان نبيّاً فلاعنّا، لا نُفلحُ نحن ولا عَقِبنا من بعدنا!

فقالا: إنّا نُعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلّا أميناً!

فقال النّبيُّ ﷺ: لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين!

فاستشرفَ له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قُم يا أبا عبيدة بن الجرّاح!

فلمّا قام، قال النّبيُّ ﷺ: هذا أمين هذه الأمّة!

وعن هذه الحادثة يقول عمر بن الخطّاب: ما أحببتُ الإمارة حبّي إيّاها يومئذٍ، رجاء أن أكون صاحبها، فرُحتُ إلى الظّهر مبكراً، فلمّا

صلّى بنا النّبيُّ ﷺ الظُّهر، نظر عن يمينه، وعن يساره، فجعلتُ أتطاول ليَراني، فلم يزل يلتفتُ ببصره حتّى رأى أبا عبيدة بن الجرّاح، فدعاه، وقال: اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحقِّ! إنّ لكلّ أمّةٍ أميناً، وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح!

ولأنّ غرض الكتاب الرّئيس، كما صرتَ تعرفُ، هو تتبُّع السّمة المحرّكة لشخصيّة كلّ صحابيٍّ من الصّحابة، فيمكن الجزم وبكلّ يقينٍ أنّ السّمة المحرّكة لشخصيّة أبي عبيدة هي الزُّهد!

أبو عبيدة لم يكن رجلاً بلا قُدرات ولا مقوّمات كما قد يفهم خطأً حين نقول فلانٌ زاهدًا! ولم يكن أيضاً شخصيّةً تعيش على هامش الأحداث، على العكس تماماً، أبو عبيدة امتلك من الصّفات القياديّة، وقوّة الشخصيّة ما جعله يتقلّدُ المناصب في عهد النّبيّ ﷺ، ومن بعده في عهد أبي بكرٍ وعمر، وإلّا ما جعلوه على النّاس!

كذلك لم يكن أبو عبيدة ذاك الزّاهد الذي ابتنى صومعةً واعتزل الأحداث، على العكس تماماً، آلت إليه قيادة جيوش المسلمين كلّها، وإمارةُ بلاد الشّام كذلك، كان مجاهداً فاتحاً، وأميراً عادلاً، كانت الدُّنيا في يده ولم تكن في قلبه، وهذا هو الزُّهد الحقيقيُّ، وإلّا فلا زهدَ لمن لا يملك ولا يحكم ولا يرأس!

واللّافت في شخصيّة أبي عبيدة أنّه كان زاهداً في كلّ شيءٍ، في المال، والمنصب، والروح! أجل في الرُّوح أيضاً، أرأيتَ رجلاً من قبل يزهدُ حتّى بروحه؟!

فأمّا زهده في المال والدُّنيا، فقد روى الإمام أحمد في كتابه الزُّهد:

عندما قدِم عمر بن الخطّاب إلى الشّام، تلقّاه عظماء أهل الأرض، وأمراء الأجناد، فقال عمر: أين أخي؟!

قالوا: من؟

قال: أبو عبيدة بن الجرّاح!

قالوا: يأتيك الآن.

فجاء أبو عبيدة على ناقةٍ مخطومةٍ بحبلٍ، فسلّم عليه، وعانقه، ثمّ قال عمر للنّاس: انصرفوا.

وسار مع أبي عبيدة حتّى أتى منزله، فلم يرَ في بيته إلا سيفه وترسه ورمحه!

فقال له: يا أبا عبيدة، لو اتّخذتَ متاعاً؟!

فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا سيُبلّغنا المقيل!

أبو عبيدة وقتها كان أميراً على الشّام وهذا هو كلُّ ما في بيته، سيفٌ وتِرسٌ ورمح!

أرأيت إلى أيِّ حدٍّ بلغ زهد أبي عبيدة في الدُّنيا؟!

ثمّ أنظر من الذي دُهِش من هذا الزُّهد، إنّه عمر، عمر الذي وُضِعَ له زيتٌ وخلٌّ في قصعةٍ ليأكل، فقال: إدامان في إناءٍ واحدٍ، والله لا آكله!

ليس عجباً أن يندهش غير الزّاهد بالزّاهد، وإنّما العجب أن يندهش بالزّاهد زاهد مثله، وقتها فقط تعرفُ أنّ الزُّهد قد بلغ أقصاه!

وفي الطّبقات لابن سعدٍ، أنّ عمر بن الخطّاب أرسل إلى أبي عبيدة وهو أميرٌ على الشّام بأربعة آلاف درهم، وقال لمن بعثها معه: أنظُره ما يصنع بها أبو عبيدة.

وعندما وصلت إليه، فرّقها على المساكين والأيتام ولم يُبقِ منها شيئاً له!

فلمّا بلغ عمر ما صنع بها، قال: الحمد لله الذي جعل من المسلمين من يصنع هذا!

إلى هذا الحدّ كانت سِمة الزُّهد تُحرّك شخصيّة أبي عبيدة، إلى الحدّ الذي يجعله ينسى نفسه فلا يترك له درهماً من أربعة آلافٍ وصلته!

وأمّا زهده في المناصب، فقد روى ابن حجرٍ في كتابه الإصابة في معرفة الصحابة، أنّ النّبيّ ﷺ أمّرَ عمرو بن العاص في غزوة ذات السّلاسل، وهي على مشارف الشّام، فخشيَ عمرو بُعد المسافة وكثرة العدوّ، فبعث يستمِدُّ النّبيّ ﷺ، فانتدب له من المهاجرين والأنصار جيشاً، فيهم أبو بكرٍ وعمر، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجرّاح، فلمّا قدِموا على عمرو بن العاص، قال: أنا أميركم!

فقالوا: بل أنتَ أمير أصحابك، وأبو عبيدة أميرنا!

فقال: إنّما أنتم مَددِي، وأنا الأميرا!

فلمّا رأى أبو عبيدة ذلك، وكان حسن الخُلُق متّبِعاً لأمر رسول الله صلّى الله وعليه وسلّم وعهده، قال: تعلم يا عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال لي: إن قدِمتَ على صاحبِك فتطاوعا! وإنّك إن عصيتَني

أطعتُك!

لا حظّ للنّفس عند أبي عبيدة، إنّه ببساطةٍ يرى الأمر تكليفاً وابتلاءً!

فإن وجد من يحمل عنه هذا الحِمل ألقاه عليه!

لقد بلغ به الزُّهد بالمنصب إلى الحدّ الذي يجعله لا يُخاصم عليه أبداً، كان بإمكانه أن يتمسّك متذرّعاً بتولية النّبيّ ﷺ له، وبدفاع جيشه عنه إذ اعتبروا أنّه صاحب الإمارة، ولكنّه لمّا رأى نزاعاً، كرِه أن يُحدث حظّ نفسه شرخاً وانقساماً في الجيش، فترك الجملَ بما حمل!

وكذلك من زهده في المناصب ما جرى يوم اليرموك، فقد أمر أبو بكرٍ خالداً بالتّوجه من العراق إلى الشّام ليكون القائد العامّ لجيوش المسلمين التي تتجهّز لقتال الرّوم. وما إن وصل خالدٌ، حتّى وصل معه كتاب عمر بن الخطّاب إلى أبي عبيدة بن الجرّاح يُخبِره فيه أنّ أبا بكرٍ قد توفّي، وأنّه قد بويع بالخلافة، وأنّه قد عزل خالد بن الوليد وعيّنه مكانه!

ولكنّ أبا عبيدة نظر في الأمر بزُهده وتقواه، فرأى أنّ المسلمين قاب قوسين أو أدنى من قتالِ عدوّهم، فخشِيَ إن نفّذ أمر عمر أن يؤثّر هذا سلباً على نفوس المسلمين قبل المعركة، فكتم الأمر عن الجميع، فما علِم أحدٌ بوفاة أبي بكرٍ، ولا بعزل خالدٍ، إلّا بعد أن منّ الله على المسلمين في اليرموك!

إنّ زهد أبي عبيدة لا يمكن تخيّله إلّا بالنّظر إلى ما يزهد فيه!

إنَّه يزهد بمنصب القائد العامِّ لجيوش المسلمين، لا بمنصب صغيرٍ يمكن لأيٍّ كان أن يزهد فيه، لقد زهد بمنصبٍ تتطاول إليه أعناق الرِّجال، وترمقه الأعين، وتشرئبُّ له القلوب!

وإن كان الزُّهد بالمال والمنصب عجباً، فإنَّ الزُّهد بالرُّوحِ أعجب!

روى الذَّهبيُّ في سير أعلام النُّبلاء أنَّه لمَّا نزل الطَّاعون في الشَّام، كتب عمر بن الخطَّاب إلى أبي عبيدة يقول له: إنَّه قد عرضتْ لي حاجةٌ ولا غِنى بي عنك، فعجِّلْ إليّ!

فلمَّا قرأ أبو عبيدة الكتاب، قال: عرفتُ حاجة أمير المؤمنين، إنَّه يريد أن يستبقي من ليس بباقٍ!

فكتب إلى عمر يقول له: إنِّي قد عرفتُ حاجتكَ، فحلِّلْنِي من عزيمتك، فإنِّي في جندٍ من أجناد المسلمين، ولا أرغبُ بنفسي عنهم!

فلمَّا قرأ عمر الكتاب بكى!

فقيل له: ماتَ أبو عبيدة؟

فقال: لا، وكأن قد مات!

ومات أبو عبيدة شهيداً في الطَّاعون!

لم يكن لعمر بن الخطَّاب حاجةٌ في أبي عبيدة حين أرسل إليه يستدعيه إلى المدينة، وإنَّما كان يُحبُّه جداً، وأراد أن يخرجه من المكان الذي انتشر فيه الطَّاعون حفاظاً عليه، وعمر بن الخطَّاب يعلمُ جيداً أنَّه إذا أخبر أبا عبيدة هذا فلن يأتيَ، وإنَّما عمد إلى الحيلة، فتذرَّع أنَّه يريده بأمرٍ ما، ولكنَّ أبا عبيدة فطنٌ لما أراده عمر، ولم

يأتِ!

شخصيّة أبي عبيدة وزهده ليست مثيرة للإعجاب فقط، وإنّما هي مثيرةٌ للدّهشة، أن يبلغ به الزّهد حدّاً لا يأبه بروحه، ولا يرى النّجاة بدون من هو أميرٌ عليهم إلّا ترك للثّغر الذي يحرسه، ولو كانت هذه النّجاة بأمر الخليفة، فهذا الذي لا يمكن تصوُّره!

رحم الله أبا عبيدة ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# مُصعب بن عُمَير!

تفقّدَ النّبيُّ ﷺ شهداء غزوة أُحدٍ، فآلمه وأوجعه ما حدث لأصحابه، ولكنّه لم يبكِ إلّا اثنين!

بكى على عمّه حمزة، وقال: أمّا حمزة فلا بواكيَ له!

وبكى على مُصعب بن عمير، وقال: كنتُ أعرفه، كان أليَنَ فتىً في مكّة، ولكنّ حبّ اللهِ ورسوله منعاه!

إنّه مُصعب بن عمير، فتى قريشٍ الوسيم والمدلّل، ويكفيكَ لتدركَ وصفه أن تسمعَ قولَ النّبيّ ﷺ عنه: ما رأيتُ بمكّة أحداً أحسن لمّة، ولا أرقّ حُلّةً، ولا أنعم نعمةً من مصعب بن عمير!

كان مصعب مدلل أبويه، يأكل أفضلَ الطّعام، ويلبس أحسنَ الثّياب، وكانت أمّه شديدة الحبّ له فلا ينام إلّا وقد وضعت عند رأسه التّمر المعجون بالسّمن ليأكل إذا استيقظ منه، وكانت تضع ثيابه بالمسك وماء الورد، فكان أنعم فتىً في قريشٍ، تبقى رائحته عابقةً في الطّريق إذا مرّ منها، حتّى أنّ النّاس كانوا يقولون مَرّ من هنا مصعب!

أسلم مصعب بن عمير باكراً في مكّة، ولازم النّبيّ ﷺ في دار الأرقم يأخذُ عنه الإسلام، وأخفى إيمانه حتّى لا تعلم به أمّه، ولكنّ عثمان بن طلحة قد رآه يوماً يُصلّي في مكانٍ ناءٍ فأخبر أمّه، لتبدأ رحلة العذاب والمعاناة!

انقلب كلُّ الدّلال السابق إلى سخطٍ عارمٍ، فلم تكن أمّه تتردّد في تعذيبه، وحرمانه من كلّ النّعم التي كانت تفيض بها عليه، حتّى

أصابه من الشدّة ما غيّرَ لونه، وأذهب لحمه، وأنهك جسمه، حتّى كان النّبيّ ﷺ ينظر إليه، فيبكي لِمَا كان يعرف من نعمته!

وحلفت أمّه حين أسلم ألا تأكل ولا تشرب، ولا تستظلّ حتّى يرجع عن دينه، فكانت تقف في الشّمس حتّى تسقط مغشيّاً عليها، وكان أولادها يطعمونها بالقوّة كي لا تموت ومصعب في كلّ هذا ثابت على دينه، صابرٌ على ما يلقى ويجد، حتّى انتهى بهم المطاف أن حبسوه في الدّار وقيّدوه!

صبَر مُصعب على كل أنواع الأذى: الماديّ، والجسديّ، والنّفسيّ!

فأمّا الأذى الماديّ، فتمثّل في قطع جميع الموارد الماديّة والماليّة عنه وقد كان من قبل مدلّلاً، الدّنيا كلّها بين يديه!

وأمّا الأذى الجسديّ، فتمثّل في الحبس والقيد!

وأمّا الأذى النّفسيّ، فما كان يراه من أمّه، ووقوفها في الشّمس ناشرةً شعرها تُقسِم ألا ترجع عند هذا حتّى يرجع عن دينه!

ولمّا رأى النّبيّ ﷺ ما يصيب أصحابه من الأذى في مكّة، قال له: إنّ بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتّى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه!

فخرج الصّحابة فارّين بدينهم، وخرج مصعب معهم!

خرجوا مشياً على الأقدام إلى جدّة حيث البحر، وركبوا من هناك إلى الحبشة، وكان مصعب يمشي حافياً، وكان رقيقَ الجلد ابن نِعمة، فجعلت قدماه تقطران دماً، فخلع عامر بن ربيعة حذاءه وأعطاه لمصعب شفقةً منه لحاله!

ومكث مصعب في أرض الغرباء في الحبشة ما شاء الله أن يمكث، ثمّ أشيع هناك أنّ قريشاً قد أسلمت، فعاد مصعب إلى مكّة ليجدَ أنّ قريشاً على حالها!

وحاولت أمّه حبسه مرّةً أخرى بعد رجوعه من الحبشة، فأقسم لئن هي فعلت ليقتلنّ كلّ من تستعين به على حبسه!

فقالت له: اذهبْ لشأنك، لم أعد لك أمّاً!

فاقترب منها بحنوّ الابن الشفيق، وقال لها: يا أمّاه، إنّي لك ناصحٌ، وعليك شفوقٌ، فاشهدي أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله!

فأبت ذلك، وعاد مصعب أدراجه إلى الحبشة!

ولكَ أن ترى أيَّ صقلٍ صقلته الهجرة في شخصيّة مصعب بن عمير، لقد تحوّل الفتى المدلّل النّاعم إلى فارس، إنّه يتهدّد ويتوعّد بالقتل كلّ من يقترب منه ليحبسه مجدّداً!

ولكنّ هذا الفارس ما زال نبيلاً على عهده الأوّل، يرقّ على أمّه، ويدعوها إلى دين الإسلام!

وفي هذا الموقف من حياة مصعب بن عمير دعوة للآباء والأمّهات أن يربّوا أولادهم للحياة، وأنّ الدّلال الزّائد لا يصقل الشخصيّة، وأنّ الدّعة والرّاحة لا تُخرِج لهذه الأمّة فرسانها، وفرقٌ شاسعٌ بين الحُبّ الذي لا يجب أن يخلو منه بيتٌ، وبين الدّلال الزّائد الذي يُفسد الأجيال!

والآن يصل بنا المطاف، بعد هذا التّقديم الذي كان لا بُدّ منه، وهو

الحديث عن السِّمة الغالبة والمحرِّكة لشخصيّة مصعب بن عمير، إنَّها شخصيّة الدّاعية!

شخصيّة الدّاعية تنطوي على عدة مقوِّمات أهمُّها:

الصّبر، وحُسن الأسلوب، والتّميُّز الإيمانيّ والتّفوُّق الرُّوحانيّ، والزّاد العلميّ والثّقافيّ والمعرفيّ، ورجاحةُ العقل وحُسن التّدبير، ورحابةُ الصّدر وسعة الخُلق، والجرأة الواعية، والثّبات الرّاسخ، والمحبّة للنّاس والشّفقة عليهم!

وكلُّ هذه المواصفات حوَتْها شخصيّة مُصعب بن عُميرا!

هذا الأمر كان يعرفه النّبيّ ﷺ جيّداً، لهذا عندما اختاره ليكون أوّل سفير في الإسلام، في همّةٍ عاليةِ الفقه والحساسيّة، ترتّب عليها مستقبل هذا الدِّين، وإنّما اختار داعية من الطّراز الرّفيع!

المدينة المنوّرة أتاها النّبيّ ﷺ مهاجراً، ولكنّا لا نجافي الحقّ إذا قلنا إنّ مصعب بن عمير هو فاتح المدينة، والفتحُ لا يكون سيفاً فقط، وإنّما دعوةٌ وبلاغٌ، وقد كان مصعب هو صاحب الفتح!

أمّا المَهمّة العظيمة، والمسؤوليّة الثّقيلة، فهي على التالي:

رجع مصعب بن عمير إلى مكّة بعد هجرته الثّانية إلى الحبشة، ثمّ أتى ذلك الموسم الذي لقِيَ النّبيّ ﷺ وفيه رهطاً من الأوس والخزرج، قد دعاهم إلى الله، فآمنوا به!

ثمّ جاؤوا في العام التّالي، ودعوه أن يهاجر إليهم، وطلبوا أن يرسلَ معهم من يعلِّمُهم أمر دينهم، ويعينهم على دعوة قومهما، فأرسل النّبيّ ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يُقرِئهم القرآن،

ويعلّمهم الإسلام، ويُفقّهَهُم في الدِّين!

فكان مصعبٌ يُسمّى بالمقرئ، وكان يؤُمُّهم في الصّلاة، وكان قد نزل عند أسعد بن زُرارة!

وهكذا يكون مصعب بن عمير أوّل سفيرٍ في الإسلام، وأوّل مُهاجرٍ إلى المدينة المنوّرة!

وبدأ مصعبٌ يعملُ باتّجاهين متوازيين:

الأوّل: يُعلّمُ الإسلام والقرآن للذين آمنوا في بيعتي العقبة.

الثّاني: يدعو من لم يُؤمن من أهل المدينة إلى الاسلام!

وقد أظهرت دعوته نتائج مبهرةٍ في وقتٍ قصير، ويعود ذلك من بعد فضل الله، إلى ما كان في مصعب بن عمير من صفات الدّاعية ومنها:

-العلمُ الغزيزُ الذي كان يحمله مصعب بن عمير.

-قوّة الحجّة وبلاغة العرض.

-السّكينة والوقار وعدم الطيش.

-معرفة الفوارق الفرديّة بين المدعوّين، ومخاطبة كلّ واحدٍ بما يناسبه.

أمّا فتحُ المدينة الذي عَنيتُه، فهو أنّه قد أسلم على يدي مصعب بن عمير سعد بن معاذ سيِّد الأوس، وسعد بن عبادة سيِّد الخزرج!

وهكذا يكون مصعب قد أدخل الإسلام إلى بيوت الحُكم، وهذا كان

له بالغ الأثر في دخول الإسلام إلى كلّ بيوت المدينة، توطئة لمقدم النّبيّ ﷺ!

روى ابن إسحاق في السيرة: أنّ أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بن عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل به حائطاً أي: بستاناً من حوائط بني ظفر، على بئرٍ يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممّن أسلم.

وسعد بن معاذ وأسيد بن حُضير يومئذٍ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركٌ على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير:

لا أبا لك! انطلِق إلى هذين الرّجلين اللّذين قد أتيا دارينا ليُسَفِّها ضُعفاءنا، فازجُرهُما وانهَهُما عن أن يأتيا ديارنا، فإنّه لولا أنّ أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك.

فأخذ أسيد بن حضير حَربته، ثمّ أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعد ابن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه، قد جاءك فاصدُقِ الله فيه. قال مصعب: إنْ يَجلِس أُكَلِّمْهُ!

فوقف أسيدٌ عليهما مُتَشتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهَان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فقال له مصعب: أوَتَجلِسُ فَتَسمَعَ، فَإنْ رَضِيتَ أمرًا قَبِلْتَهُ، وَإنْ كَرِهتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكرَهُ؟

قال: أنصفت.

ثمّ ركز حَربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه

القرآن، فقالا: وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسْلاَمَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ.

ثمّ قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟

قالا له: تَغْتَسِلُ، فَتَطَّهَّرُ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ، ثُمَّ تُصَلِّي.

فقام فاغتسل، وطهّر ثوبه، وتشهّد شهادة الحقّ، ثمّ قام فقال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحدٌ من قومه! وسأرسله إليكما الآن: سعدُ بن معاذ.

ثمّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ وقومِه - وهم جلوس في ناديهم - فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلمّا وقف على النّادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرّجلين، فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتُهما فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنّهم عرفوا أنّه ابن خالتك ليحقروك، قال: فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثمّ قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً.

ثمّ خرج إليهما سعدٌ فلمّا رآهما مطمئنّين، عرف أن أُسيداً إنّما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشمتماً، ثمّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا منّي، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

فقال مصعب لسعد: أوَتقعدُ فتسمع فإن رضيث أمراً رغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت.

ثمّ ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقه وتسهُّلِه.

ثمّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدِّين؟

قالا: تغتسل فتطهر وتطهّر ثوبيك ثمّ تشهد شهادة الحقّ ثمّ تُصلّي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحقّ، ثمّ ركع ركعتين، ثمّ أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً.

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله.

فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلّا مسلماً أو مسلمةً.

لتعرف أثر نجاح الدّاعية مصعب بن عمير في مهمّته، تخيّل أنّ مصعب بن عمير لم ينجح فيها! تخيّل كيف يهاجر النّبيّ ﷺ وليس في المدينة مؤمن بدعوته إلا قلّة لا تتجاوز العشرين!

ولكنك الآن تعلم أنّه بفضل الله ثم بفضل دعوة مصعب بن عمير أسلمت المدينة إيذاناً بقدوم النّبيّ ﷺ.

ويأبى الله إلّا أن يتوّج رحلة الدّعوة بالشّهادة، استشهد مصعب بن عمير يوم أُحُد وهو يحمل لواء المسلمين، فمضى الوسيم المدلّل إلى ربّه راضياً مرضيّاً!

رحم الله مصعب بن عمير، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أبو العاص بن الرّبيع!

إنّ أبا العاص بن الرّبيع حدّثني فصدقني، ووعدني فوفى لي!

هذه هي الكلمات التي وصف فيها النّبيُّ ﷺ صِهرَه أبا العاص بن الرّبيع وهو واقف على المنبر يخطب النّاس!

كان شهماً في خصومته، كريماً في محبّته، ينضحُ بالأخلاق نضحاً حتّى في تلك اللّحظات التي كان ما زال فيها على دين قريش، وإنّ قصّة حبّه لزوجته زينب ابنة النّبيّ ﷺ هي واحدة من أعجب قصص الحُبّ التي مرّت عليّ يوماً!

مع أبي العاص بن الرّبيع لا تحتار طويلاً لتعرفَ تلك السّمة المحرّكة لشخصيّته، كلُّ أحواله تدلُّ على ما كان كامِناً فيه!

بعد مضي أكثر من ألفٍ وأربعمئة سنة على زواجهما، ما تزال قصّة حبّهما واحدة من أروع قصص الحُبّ في التّاريخ، كانا ابنا خالةٍ، فأمّه هالة بنت خويلد أخت أمّنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، تزوّجا قبل البعثة الشّريفة، ولمّا نزل الوحيُ على النّبيّ ﷺ كانت زينب من أوائل المؤمنين بأبيها، فذهبتْ بذلك القلب المليء بالإيمان، وكلُّها أملٌ أن يكون زوجها وحبيبها من المصدّقين برسالة أبيها ونبيّها!

فما نهرها حين علم بإيمانها، ولا حاول أن يثنيها عن قرارها، بل قال لها بلسانِ المُحِبّ: واللهِ ما أبوك عندي بمتّهم، وليس أحبّ إليّ من أن أسلكَ معكِ يا حبيبة في شعبٍ واحدٍ، ولكنّي أكره أن يُقال إنّ زوجكِ خذل قومه، وكفر بدين آبائه إرضاءً لامرأته، فهلّا عذرتني يا

زينب!

تقبّلت زينب قراره بصدرٍ رحبٍ، وقلبٍ متفهِّمٍ متأملٍ أن يأتي اليوم الذي يكون فيه حبيبها وزوجها في صفوف المسلمين.

وجعلت قريشٌ تدعو أبا العاص لمفارقة زينب، كما دعت أبناء أبي لهبٍ لتطليق رقيّة وأمِّ كلثوم، فأمّا ابنا أبي لهبٍ فأجابا وطلقّا زوجتيهما، وأمّا أبو العاص فقال لهم: لا واللهِ. إنّي لا أُفارقُ صاحبتي، وما أحبُّ أنّ لي بامرأتي كلّ نساء قريش!

وبقيت زينب عند زوجها كلٌّ على دينه، ولم يكن قد جاء في شريعة الإسلام حينها التفريق بين الزّوجة المؤمنة والزّوج الكافر!

وتأتي الهجرة، ويهاجر النّبيّ ﷺ إلى المدينة، ويلحقه كلُّ أهله، إلّا زينب بقيت وحيدة في مكّة رفقة زوجها، لا تتراجع عن قرارها في ملازمته، وإن كان قلبها ممزّقاً بين الأب والنّبيّ من جهة، والحبيب والزّوج من جهة أخرى!

ولم يكن هذا شيئاً أمام اللّحظة التي حمل فيها زوجها السّلاح لقتال أبيها، فقد توجّه جيش قريش لنجدة قافلة أبي سفيان في بدر، وكان أبو العاص ممن خرج في غمار الجيش!

وانتهت المعركة بنصر المسلمين بعد أن قُتِلَ من قريش من قُتِل، وأُسِر فيها من أسر، وكان أبو العاص من بين الأسرى!

وبعث أهل مكّة في فداء أسراهم من النّبيّ ﷺ، وترسل زينب في فداء زوجها قلادةً كانت أمُّها قد أهدتها إيّاها ليلة زفافها!

فلما رأى النّبيُّ ﷺ قلادة خديجة عرفها، ورقّ لها رقّةً شديدةً،

وقال للصحابة: إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا!

فقالوا: نعم يا رسول الله.

ويطلق النّبيّ ﷺ سراح أبي العاص بعد أن طلبت منه أن يبعث زينب إلى المدينة، فقد نزل الأمر الإلهي بالتفريق بين الكافر والمسلمة!

ويعده أبو العاص أن يجيب طلبه، ويعود إلى زينب فيجدها بانتظار عودته بقلبٍ راجفٍ، وعينٍ دامعةٍ! ويعود هو إليها مثقلاً ممزّقاً بين قلبه ووعده، ولكنّه يقف عند كلمته، ويقول لها: لقد طلب أبوك أن أردّك إليه لأنّ الإسلام يُفرّق بيني وبينك فلا تحلين لي!

وقد وعدته أن أدعك تسيرين إليه، وما كنت لأنكث عهدي!

فما كان من زينب إلّا أن ربطت على قلبها، وأطاعت أمر الله ورسوله!

وبعثها أبو العاص مع أخيه إلى خارج مكّة حيث زيد بن حارثة بانتظارها ليصحبها إلى المدينة على الموعد الذي اتّفقوا عليه. وهنا تقطع قريش طريقها لتمنع هجرتها إلى المدينة!

كان لزينب خصوصيتها، كيف لا وقريش لها ثأرٌ شخصيٌ عند أبيها، وكان أول من لحق بهما هو هبار بن الأسود فروّعها برمحه.

فهبّ كنانة أخو أبي العاص بن الرّبيع للدفاع عنها، ونثّر سهامه بين يديه، وصاح فيهم: والله إنكم لتعلمون أنّي أرمي فلا أخطىء، ولا يدنونّ منّي رجلٌ إلا وضعت فيه سهماً!

فأقبل عليه أبو سفيان، وقال له: أيها الرّجل، كفّ عنّا نَبلك أكلمكَ!

فكفّ عنهم، فتقدّم إليه أبو سفيان وقال له: انّك جانبت الصّواب إذ خرجت بالمرأة على رؤوس الأشهاد علانية، وقد عرفت مصابنا ونكبتنا، فيظنّ النّاس فينا الضّعفَ والوهن، وأنّ ذلك من ذل مصابنا، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة، ولكن ارجع بها حتّى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث النّاس أن قد رددناها، فاخرج بها سرّاً وألحقها بأبيها!

فكان ذلك، وهاجرت زينب إلى المدينة، وافترقت عن أبي العاص ما يُقارب ستّ سنوات مَكثت فيها في بيت النّبوة مع ولديها، بينما انشغل أبو العاص بالتّجارة، ولم يخرج مع قريش يوم أحدٍ لقتال المسلمين!

وقبل فتح مكّة بقليل خرج في تجارة لقريش، فصادف في طريق عودته سريّة من سرايا المسلمين، فأصابوا ما معه وفرّ هو منهم، ثم تسلّلَ ليلاً إلى زينب مستجيراً بها فأجارته؟

وفي صلاة الفجر وبينما النّبيّ ﷺ قد فرغ منها وسلّم، صاحت زينب: أيّها النّاس، إني قد أجرت أبا العاص بن الرّبيع!

فقال النّبيّ ﷺ: والذي نفسي بيده ما علمت بشيءٍ حتّى سمعت ما سمعتم، وأنّه يجير على المسلمين أدناهم!

ثمّ ذهب إلى زينب وقال لها: أي بنيّة، أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك فإنّك لا تحلين له!

ثمّ بعث النّبيّ ﷺ إلى السّريّة التي أخذت مال أبي العاص، وقال

لهم: إنّ هذا الرجل منّا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردُّوه فإنّا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله، وأنتم أحقُّ به!

فقالوا: بل نردُّه!

فردُّوه كله، ثمّ ذهب إلى مكّة، وأدى إلى كل ذي مالٍ ماله، ثمّ قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحدٍ منكم عندي شيء؟

فقالوا: لا، قد اديّت ما عليك!

فقال: فإني أشهدُ أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا خوف أن تظنّوا إني أردت أكل أموالكم!

ثمّ هاجر أبو العاص إلى المدينة وأعلن إسلامه، وطلبَ من النّبيّ ﷺ أن يردّ إليه زينب، فردّها اليه، فعاشا على أهنأ ما يعيش زوجان، حتّى ماتت زينب، ولم يعش أبو العاص بعدها إلّا سنة، لقي فيها النّبيّ ﷺ مرّةً فقال له يا سول الله، إنّي لا أطيق الحياة دون زينب!

ظلّ أبو العاص ممسكاً بزينب رغم كلّ شيءٍ!

رفض أن يطلّقها عندما طلبت منه قريش ذلك، كان يرى أنّ خلاف قريش مع أبيها ﷺ لا علاقة له بقلبه، كان كأنّما يقول لهم: ما بينكم وبينه شأنكم أمّا هذه فهي حبيبتي!

وهو لم يتركها زهدا فيها حين حدث بينهما الفراق لستّ سنوات، إنّما تركها وفاءً لعهدٍ قطعه للنّبيّ ﷺ ولولاه ما فارقها أبداً!

كذلك يُحسب للمُحبّ أبي العاص أنّه طوال ابتعاده عن زينب لم تملأ عينه ولا قلبه امرأةٌ سواها، فقد بقي على عهده وحبّه لها ولم

يتزوّج، كانت هي في معسكرٍ وهو في معسكر، ولكنّه احتفظ بها في قلبه!

ستُّ سنواتٍ دون امرأةٍ، ولعمري ما يصبر الرّجال على مثل هذا، ولكنّ المحبّ يصبر، بل ولا يرى أنّه يُعاني في صبره، إنّ جوارحه ملكٌ لزينب، وفي غيابها تتعطّل حواس الحبّ عنده!

قصة حُبّ أبي العاص بن الرّبيع وزينب تريكَ بجلاءٍ عظمة هذا الدّين وإنسانيته، وتُريكَ رحمة هذا النّبيّ العظيم! فهو لم ينكر على ابنته استمرارها في حُبّ زوجها وإن كان كلُّ واحدٍ منهما قد أصبح على دين، كان يعلمُ جيّداً أنّ المرءَ يملك أحشاءه ولكنّه لا يملك قلبه!

ولم ينكر عليها فداءها له وإن كان مقاتِّلاً في صف العدوّ، بل انّي أجزِمُ أنّه قد عدّه من الوفاء الذي يقف لأجله إجلالاً، وقد كان نبيّاً تعجبه مكارم الأخلاق!

إن الحبّ لم يكن يوماً عيباً يُستر، أو ذنباً ليُعاقب مُقترفُه، إنّه شأن القلب الذي بين إصبعين من أصابع الرّحمن، ولكن للحبّ آدابه، وللإسلام حرمته؟

وقد كانت زينب تعرف جيّداً ما لها وما عليها، وتحمي حبّها بقدر ما يسمحُ به دينها، فالحبُّ والإيمان كانا يعيشان في ذات القلب، ولم يكن ثمّةَ تعارضٍ بينهما!

وما أجمل الحُبّ إذا التقى فيه الوفيُّ بالوفيّ!

كان يمكن لزينب أن تتخذ زوجاً بعد فراق أبي العاص، ستُّ سنواتٍ كانت فترةً كافية لتنسى وتبدأ من جديد، ولكنّه الحبُّ الذي يجعل

كلّ من على الأرض متشابهين، عدا شخص واحدٌ يعيش في القلب، الحُبُّ الذي يجعلنا لا نرى سواه كأنّه كلُّ أهل الأرض! يجعل الخيارات الكثيرة خياراً واحداً!

رحم الله أبا العاص بن الرّبيع ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أبو مِحجَن الثّقفيّ!

أبو مِحجَن الثّقفيّ واحد من نوادر صحابة النّبيّ ﷺ، أسلم يوم أسلمت قبيلته ثقيف. وكان فارساً لا يُشقُّ له غبار، وشاعراً بارعاً مجيداً!

ليس له كثير مواقف مع النّبيّ ﷺ، وكل كتب السّيرة تقفُ مطوّلاً عند موقفه مع سعد بن أبي وقّاص يوم القادسيّة!

ولعلّكَ تسأل الآن في نفسكَ، لِمَ نخصّص له حديثاً في هذا الكتاب خصوصاً أنّه لا يتناول كلّ الصّحابة، وغيره لهم ربما مواقف أكثر منه؟!

وهذا استفسار في مَكانه، وتأمل حصيف، أُجيبك عنه بأنّي أردْته أن يكون قدوةً لكلّ مسلم غلبت عليه معصّية، وما منّا إلا وغلبته المعاصي، ولولا ستر الله لانفضحنا جميعاً، فسبحان من ستر منّا القبيح وأذاع الجميل!

فإن كان من صّفة يمكن أن تطلّق على أبي مِحجَن رضيَ الله عنه، فهي: المبتلى بالمعصية!

أسلم أبو مِحجَن وكان مدمناً على شرب الخمر، ولم يكن يستطيع أن يقلع عنها، يتركها ثمّ يعود إليها، وقد جلده النّبيّ ﷺ، وجلده من بعده أبو بكر، ثمّ عمر بن الخطاب!

وصدق في أبي مِحجَن قول النّبيّ ﷺ: ما من مؤمنٍ إلّا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتّى يُفارق الدّنيا، إنّ المؤمن خُلِق مُفتناً توّاباً نسيّاً، إذا ذُكّر ذَكر!

المعصية التي ابتُلِيَ بها أبو مِحْجَن لم تكن لتقعده عن خدمة هذا الدِّين، ولهذا بالضبط كان الحديث عن أبي مِحْجَن!

خرج أبو مِحْجَن مع جيش المسلمين إلى القادسيّة، وشرب الخمر وهو في معسكر الجيش قبل نشوب القتال، فحبسه سعد بن أبي وقّاص، وجعل يديه ورجليه في القيد!

فلمّا كان اليوم الذي دارت فيه المعركة، نظر أبو مِحْجَن إلى القتال وقد نشب، ورأى الفرس قد أعملوا السّيفَ في المسلمين، ثارت ثائرته، كيف يبقى في القيد وهو الفارس الشُّجاع؟ وكيف لا يذود عن هذا الدِّين وهو ما خرج إلّا لهذا الغرض؟!

ولكنّه مسجون بأمر سعد، وسعدٌ يدبّرُ أمر المعركة من مكان مرتفعٍ، فقد أصابه مرضٌ ولم يستطع أن يُباشر القتال بنفسه!

وكان أبو مِحْجَن مسجوناً قرب خيمة سعد، فنادى على زوجة سعدٍ وقال لها: يا بنت آل حفصة، هل لك إلى خير؟

فقالت له: وما ذاك؟

قال: تخلّي عنّي، وتعيريني البلقاء فرس سعد، فأقاتل مع المسلمين، ولك عليّ إن سلّمني الله أن أرجع فأضع رجليّ في القيد كما كنت!

فقالت له: لا، ما أنا وذاك!

فرجع يجرُّ قيوده، ونفسه مشتاقة إلى القتال لما يرى مما يناله المسلمون من أعداء الله!

فجلس حزيناً، وأنشدَ:

كفى حزنا أن تردي الخيل بالقنا

وأترك مشدودا عليّ وثاقِيا

إذا قمت عنّاني الحديد وغُلِّقت

مَصارعُ دوني قد تصمُّ المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة

فقد تركوني واحداً لا أخاً ليا

فلله عهد لا أخيس بعهده

لئن فرجت ألّا أزور الحوانيا

فلمّا سمعته سلمى زوجة سعد، قالت له: لقد استخرتُ اللهَ، ورضيت بعهدك!

فأطلقته، وأعطته فرس سعد، وأعطته سلاحاً!

فخرج كالأسد يعدو بفرسه حتّى لحق بالجيش، وتلثّم كي لا يعرفه أحد، فجعلَ لا يحملُ على مشرك إلّا قتله، حتّى تعجّب النّاس منه وهم لا يعرفونه، وسعدُ يُراقِب هذا كلّه ويقول: السّعيُ سعيُ البلقاء، والطّعنُ طعن أبي مِحجَن، ولكن أبا مِحجَن في القيد!

ومنّ الله تعالى على المسلمين بالنّصر، ورجعَ أبو مِحجَن وردّ الفرس والسّلاح، وجعل رجليه في القيد!

وجاء سعد، فقالت له سلمى: هنيئاً لكم النّصر، كيف كان قتالكم

اليوم؟

فجعل سعد يخبرها، ويقول: لقيَ جند الله ما لقوا، حتّى بعثَ الله رجلاً على فرسٍ أبلق، فلولا واللهِ أنّي تركتُ أبا مِحجَن في القيد، لقلت: إنّها بعض شمائل أبي مِحجَن!

فقالت: والله إنّه لأبي مِحجَن!

وذكرتْ لسعد ما كان من أمره!

فما كان من سعدٍ إلّا أن بكى، وقال: حلّوا قيوده، واتوني به!

فلمّا أتوا به إليه، قال له: يا أبا مِحجَن، إنّي لأرجو الله ألّا أجلدك على خمر بعد اليوم أبداً!

فقال له أبو مِحجَن: لا والله ما أشربها بعد اليوم أبداً، قد كنت أشربها فتطهرني بالحدّ والجلد، وأمّا اليوم فإن شربتها فلا تطهرني إلّا النّار، فلم يشربها بعد ذلك أبداً!

نتعلم من قصة أبي مِحجَن دروساً بليغة:

1- إيّاك أن يكبلك الشيطان بالمعصية، فيقولُ لكَ: ألَا تخجل من نفسك، تعصّي الله وتريد أن تلقاه، بأيِّ عين تلقاه؟!

فقل له: ألقاه بعين الذين يحبونه وإن عصوه!

ألقاه بعين أبي آدم عليه السلام، عصى واسترجع، فتاب الله عليه وجعله من المرسلين!

ألقاه بعين حديث النّبيّ ﷺ: ما من مؤمنٍ إلّا وله ذنب!

ألقاه بعين هذا الطّين الذي خلقني منه وهو يعلمُ نقصه!

2- إيّاك أن تكبلك المعصية عن العمل لهذا الدّين!

لو كان لا يمشي في نصرة هذا الدّين إلّا الصّديقين لما نصره أحدا!

ولكننا نسير إلى الله عُرجاً ومكاسِر، نسأله تعالى بالعمل لدينه مغفرة وجبراً!

3- المعصية في الإسلام فعلٌ بشريٌ يقعُ من الجميع، وهي ليست وصمة عارٍ تُرافق المسلم أبد الدّهر، بل على العكس تماماً فإنّ خير الخطّائين التوّابون. والخطيئة علاجها التوبة، والسّيّئة تمحوها الحسنة التي يعملها المسلم بعدها، وفي الحديث الشّريف: وأتبِعِ السّيّئة الحسنة تمحها!

4- المخطئون والمذنبون ليسوا عناصر فاسدة في المجتمع المسلم، أو لا يُمكن الاستفادة من طاقاتهم، ولو أنّ كلّ من أخطأ أو أذنبَ أستبعِدَ من كلّ شيءٍ، لتعطّلت كثير من مصالح المسلمين، وأهدرت الكثير من طاقاتهم!

5- حُسنُ التعامل مع أصحاب المعصية، فليس في الإسلام أنّ فلاناً من النّاس قد كُتِب عليه الشّقاوة أبد الدّهر، بل ربما هذه السّيّئة التي وقع فيها الشّخص ترفعه إلى أحسن ممّا كان قبلها، بسبب النّدم على فعلها، وكثرة الاستغفار منها، ومحاولة التّعويض عنها!

6- نظر أبو مِحجَن إلى المسلمين، ورأى فيهم انكشافاً أمام عدوّهم، فثارت حميته الدّينيّة، وغيرته الإسلاميّة، رغم وقوعه في المعصِية بقي ولاؤه للإسلام، وحبّه للإسلام، وعاطفته مع الإسلام والمسلمين.

ولكنّ المصيبة أن تتسلّل المعاصي إلى أعماق القلوب، فتجعل المسلم غير ما يجب أن يكون عليه وإن عصى، فتجد ولاءه لغير الله، وحبّه وبغضه لغير الله! وتجده يحبّ أهل المعاصي، ويأنس بالكافرين، ويتعلق بالشّبهات، ويثيرها ويرددها!

وهذا الفرق بين عاصٍ وعاصٍ!

الأول لم تُفسد المعصية أصل عقيدته، والثاني فاللّه المستعان على ما صارت إليه حاله!

7- لا تيأس من عاصٍ، قد يمرُّ الإنسان بلحظةٍ فارقةٍ تقلب حياته رأساً على عقب، وتجعله يترك في هذه اللّحظة ما كان عليه من المعصية، وهو الذي جاهد نفسه من قبل أعواماً فلم يستطع أن يُقلع عنها!

وها هو أبو مِحجَن رضي الله عنه، جُلد في عهد النّبي ﷺ، وفي عهد صاحبيه فلم يُقلِع، وفي لحظةٍ حاسمةٍ من عمره ترك الخمر!

8- لينُوا للعصاة، وتحبّبُوا إليهم!

ما أجمل لينَ سعدٍ وهو يقول لأبي مِحجَن: إنّي لأرجو الله ألّا أجلدك على خمرٍ بعد اليوم أبداً!

فوقع هذا اللِّين في قلب أبي مِحجَن، وتاب!

النّاس بحاجةٍ إلى من يأخذ بأيديهم إلى الله!

9- لا تُعيِّر أحداً بمعصيته، المعصية كالمرض، بلاءٌ! والعاقل يحمد الله على العافية، ويدعو لأهل البلاء!

وقد تناقل فضلاء هذه الأمّة أنّه ما عيّر أحدٌ أحداً بمعصيةٍ، إلّا ودارت الأيّام واقترف مثلها!

10- الصّحابة في نهاية المطاف بشرٌ، وقد يصدر منهم ما يصدر من غيرهم، وهذا لا يقدح في صحبتهم ولا عدالتهم، وأجر الصُّحبة لا يعدله شيءٌ، ولو اجتهد الإنسان ما اجتهد فلن يصل إلى رتبة الصّحابيّ ولو بدر من الصّحابة ما بدر! هؤلاء صفوة الله تعالى من خلقه لنبيّه ﷺ!

رحم الله أبا مِحجنٍ، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أبو أيوب الأنصاري!

«يا أبا أيوب هيّء لنا مقيلاً!»

بهذه الكلمات أعلنَ النّبيُّ ﷺ نزوله ضيفاً في بيت أبي أيوب!

يا لحظك يا أبا أيوب!

تدخل بيتك لتهيئ له مقيلاً، سيد الناس حل ضيفاً عليك!

عايش أبو أيوب الإسلام منذ بداياته، فقد شهد بيعة العقبة الأولى، ولم يتخلف عن أية غزوة من غزوات النبي ﷺ، وهذا واللهِ شرف يُغبط عليه!

كان أبو أيوب عالماً بمعاني القرآن، عارفًا بأسباب نزوله، يضعُ كلَّ آيةٍ موضعها، ويفهمها على وجهها الصحيح، من غير تعسفٍ أو تكلف، ولهذا لما سمع بعض الناس يفهمون بعض الآيات على غير وجهها، بادر بإخبارهم بمعناها الصحيح!

فعن أسلم أبي عمران التُّجِيبي مولى تُجِيب قَالَ: كنّا بِالْقُسطَنْطِينِيّةِ، وَعَلَى أَهْلِ الشّامِ فَضَالَةُ بنُ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ، وَخَرَجَ مِنّا صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ فَقَتَل فِيهِمْ، ثُمّ جَاءَ مُقْبِلاً، فَصَاحَ النّاسُ فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللّهِ، أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!

فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ فقال: يَأَيُّهَا النّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَإِنّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، لَمّا أَعَزَّ اللّهُ عَزَّ

وَجَلَّ دِينَهُ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، قُلْنَا بَيْنَنَا سِرًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَلَوْ أَقَمْنَا فِيهَا، فَأَصْلَحْنَا مِنْهَا مَا قَدْ ضَاعَ مِنْهَا!

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هذه الآيَةَ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا هَمَمْنَا بِهِ فِي أَنْفُسِنَا أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا، فَنُصْلِحَ مَا قَدْ ضَاعَ مِنْهَا، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الَّتِي أَرَدْنَا أَنْ نَفْعَلَ، وَأَمَرَنَا بِالْغَزْوِ!

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ يَغْزُو حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ!

والحديث عن أبي أيوبٍ الأنصاريّ هو حديث صِفة، فهو صاحب الضِّيافة، لقد استضاف في بيته أعظم شخصٍ في الوجود، سيِّد النَّاسِ ﷺ حلّ ضيفاً عليه، وما زال المسلمون حتى قيام السَّاعة يشكرون له صنيعه، ويغبطونه على هذا الشَّرف العظيم!

لم ينسَ المسلمون هذا لأبي أيوب، ولن ينسوه!

ولقد عرف خيارُ الصحابة هذه المنقبة وحفظوها لأبي أيوب، حتى تَسنَّى لابن عباس أن يُكافئه ببعض ما يستحق، ويبقى له كريم الجزاء عند الله في دار الخلد!

عن حَبِيبِ بنِ أَبِي ثَابِتٍ، أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ الأَنْصَارِيَّ قَدِمَ الْبَصْرَةَ، فَنَزَلَ عَلَى ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، فَفَرَّغَ لَهُ بَيْتَهُ، وَقَالَ: لأَصْنَعَنَّ بِكَ كَمَا صَنَعْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

وَقَالَ: كَمْ عَلَيْكَ مِنَ الدَّيْنِ؟

قَالَ: عِشْرُونَ أَلْفًا!

فَأَعْطَاهُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا وَعِشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَقَالَ: لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ كُلُّهُ!

أمّا عن الضّيافة، فقد كان بنو النجار من الأنصار أخوال رسول الله ﷺ، إذ كانت أمُّ جده عبد المطلب منهم، ولهذا فإنّ النّبيّ ﷺ حين أراد النزول في المدينة في هجرته المباركة رغب في إكرامهم بالنزول عليهم، وكان أبو أيوب أكثرَهم حظوةً إذ نزل رسول الله ﷺ في بيته، حتى بنى المسجدَ في أرض الغلامين النجاريين، وابتنى بجواره مسكنًا لزوجه سودة!

وقد جاء في روايةٍ أن الأنصار اقترعت أيهم يؤوي رسول الله ﷺ، فجاءت القرعة على أبي أيوب، فآوى رسول الله ﷺ، وهذا مما جعل اللهُ من الفضل له رضي الله عنه!

روى مسلمٌ في صحيحه، من حديث أبي أيوب:

أَنَّ النَّبِيّ ﷺ نَزَلَ عَلَيهِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّفْلِ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعِلْوِ!

فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيلَةً، فَقَالَ: نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ!

فَتَنَحَّوْا فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ، ثُمّ قَالَ لِلنَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السُّفْلُ أَرْفَقُ»!

فَقَالَ: لاَ أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا!

فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعُلُوِّ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ!

فَكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيّ ﷺ طَعَامًا، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ!

فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدّ إِلَيهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ

ﷺ!

فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ!

فَفَزِعَ، وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ»!

قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ!

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى، أي تأتيه الملائكة والوحي، وكان يكره الثوم والبصل!

وفي هذا الحديث وقفات:

الوقفة الأولى:

كرامة لأبي أيوب وأم أيوب، حيث جعل الله بيتهما أولَ منزلٍ لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة، وقد وصف رسولُ الله ﷺ البيت بأنه من بيوت أهله، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، أنَّ النبيّ ﷺ قال لما بركت ناقته يوم أن دخل المدينة: أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي.

فقَالَ: فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلاً!

وهكذا فحازت أسرة أبي أيوب على هذه الدرجة الرفيعة والمكانة العالية ببركة هذه الضيافة الكريمة، وكانت خير مضيف لخير ضيف!

الوقفة الثّانية:

الأدب العالي الذي تمتع به أبو أيوب وأم أيوب رضي الله عنهما، فإذا كان النبي ﷺ قد اختار الطابق الأسفل من بيت أبي أيوب، ليكون ذلك أرفقَ بأبي أيوب رضي الله عنه، حيث يغشى النبيّ عددٌ كثيرٌ من أصحابه، فإن نفسيهما الكريمتين لم تقبلا بالعلو فوق رسول الله ﷺ، ولم يَكُفَّ أبو أيوب وأم أيوب رضي الله عنهما عن طلب راحة رسول الله ﷺ، حتى منعهما ذلك النومَ، ودفعهما إلى الرفق الشديد عند الحركة، ثم لم تَطِبْ نفوسهما إلا بانتقال النبي ﷺ إلى الأعلى.

وقد جاء في رواية عند الطبراني: فَلَمَّا أَمسَى وَبَاتَ، فَجَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ يَذْكُرُ أَنَّهُ عَلَى ظَهْرِ بَيتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسفَلَ مِنْهُ، وَهُوَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَحيِ، فَجَعَلَ أَبُو أَيُّوبَ لا يَنَامُ يُحاذِرُ أَنْ يَتَنَاثَرَ عَلَيهِ الْغُبَارُ ويَتَحرّك فَيُؤْذِيَهُ، فَلَمَّا أَصبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا جَعَلْتُ اللَّيلَةَ فِيهَا غَمضًا أَنَا وَلا أُمُّ أَيُّوبَ!

قَالَ: «وَمِمَّ ذَاكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ؟»

قَالَ: ذَكَرْتُ أَنِّي عَلَى ظَهْرِ بَيتٍ أَنتَ أَسفَلَ مِنِّي، فَأَتَحرّك فَيَتَنَاثَرُ عَلَيْكَ الْغُبَارُ، ويُؤْذِيك تَحريكِي، وَأَنَا بَينَكَ وَبَينَ الْوَحيِ!

الوقفة الثالثة:

الكرم السابغ الذي تمتع به أبو أيوب وأم أيوب رضي الله عنهما، فقد التزما بتقديم الطعام يوميًا للنبي الكريم ﷺ سواء مما صنعته أم أيوب أو مما كان الصحابة يهدونه لرسول الله ﷺ، ويبدو أنهم كانوا يتكلفون صنع الطعام للنبي ﷺ ولمَن ينزل عليه من أصحابه، فقد أخرج الترمذي عن أمّ أيُّوبَ رضي الله عنها، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ

عَلَيْهِمْ فَتَكَلَّفُوا لَهُ طَعَامًا فِيهِ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ الْبُقُولِ فَكَرِهَ أَكْلَهُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: كُلُوهُ فَإِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُوذِيَ صَاحِبِي!

الوقفة الرّابعة:

تعاون أبي أيوب وزوجه أم أيوب في خدمة النبي ﷺ، فقد جمعهما طريق واحد، واجتمع قلباهما على حبّ الله ورسوله، وتوافقت نفساهما الكريمتان على الحق، ومن ثَمّ قامت أم أيوب مع زوجها، فتنحيا في جانبٍ من البيت، حتى لا يؤذيا رسولَ الله ﷺ بالمشي فوق رأسه، ثم لما انكسرت جرّةُ الماء وخشيا أن ينزل الماءُ على رسول الله ﷺ من خلال السقف قاما معًا يجففان الماء ويمسحان آثاره، مع العلم بأن الزوجين الكريمين قد جفّفا هذا الماءَ بلحافهما الوحيد، ففي رواية أن أبَا أيُوبَ رضي الله عنه قَالَ: فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا نُنَشِّفُ بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيَهِ!

الوقفة الخامسة:

التماس البركة بآثار رسول الله ﷺ، فقد رأينا أبا أيوب رضي الله عنه حين يرجع باقي الطعام الذي أكل منه رسول الله ﷺ يسأل عن موضع أصابعه الشريفة، ثم يتتبع آثار تلك الأصابع فيأكل من نفس الموضع الذي أكل منه رسول الله ﷺ التماسًا لبركته، ولم يكن أبو أيوب يفعل ذلك وحده، بل كان يفعل ذلك هو وأهلُ بيته، فقد أخرج الطبراني عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: كَانَ يُهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقِصَاعُ وَهُوَ فِي دَارِ أَبِي أَيُّوبَ، فَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ فَضْلَ مَا يَأْكُلُ، فَأَتَتْهُ قَصْعَةٌ فَأَرْسَلَ بِهَا كَمَا هِيَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهَا شَيْءٌ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ لِأَهْلِهِ: لَا

تَأْكُلُوا حَتَّى أَعْلَمَ لِمَ تَرَكَهَا؟

قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَدَخَلَ، فَقَالَ: لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا مِنْ عِنْدِكَ شَيْءٌ إلا أَكَلْتَ مِنْهُ غَيْرَ هَذِهِ الْقَصْعَةِ لا أَدْرِي مَا شَأْنُهَا؟

قَالَ: «كَأَنَّ فِيهَا ثُومٌ فَكَرِهْتُ رِيحَهُ، أَمَا إِنَّهُ لا بَأْسَ بِهِ، إلا أَنِّي كَرِهْتُ رِيحَهُ»

قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ إِذًا!

قَالَ: فَأَنْتَ أَبْصَرَ!

الوقفة السّادسة:

الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ، حتى في الأمور التي لم يوجب رسول الله ﷺ على المسلمين أن يتبعوه فيها، بل إن أبا أيوب جعل مشاعره تتجاوب مع هدي رسول الله ﷺ، فيحب ما أحب ويكره ما كره، فها هو النبي ﷺ- يقول له عن الطعام الذي لم يأكل منه: إِنَّ فِيهِ بَصَلاً، فَكَرِهْتُ أَنْ آكُلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمَلَكِ الَّذِي يَأْتِينِي وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ»

فيقول أبو أيوب: فإني أكره ما تكره، أو ما كرهت.

عن محمد بن سيرين قال: شهد أبو أيوب بدرًا، ثم لم يتخلف عن غزاةٍ للمسلمين إلا هو في أخرى، إلا عامًا واحدًا، فإنه استُعمِل على الجيش رجلٌ شابٌ، فقعد ذلك العام، فجعل بعد ذاك العام يتلهف ويقول: وما عليّ مَن استعمل عليّ! وما عليّ مَن استعمل عليّ! وما عليّ مَن استعمل عليّ!

فمرض، وعلى الجيش يزيد بن معاوية، فأتاه يعوده فقال: حاجتَك.

قال: نعم حاجتي إذا أنا مِتُّ فاركب بي ثم سُغْ بي في أرض العدو ما وجدت مَسَاغًا، فإذا لم تجد مَسَاغًا فادفني ثم ارجع.

فلما مات ركب به، ثم سار به في أرض العدو، وما وجد مساغًا، ثم دفنه ورجع.

وكان أبو أيوب رضي الله عنه يقول: قال الله عزّ وجل ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾

فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلاً!

وهكذا لقي أبو أيوب ربّه راضيًا مرضيًا في ميدان الجهاد الذي أفنى فيه عمره، وأبلى فيه أحسن البلاء شابًا وكهلاً وشيخًا!

رحمَ الله أبا أيوب، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة خلف حوض النّبيّ ﷺ!

# أبو ذرٍّ الغِفاريِّ!

«ما أظلَّتِ الخضراءُ ولا أقلَّتِ الغبراءُ من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذرٍّ»!

بهذه الكلمات زكّى النّبيّ ﷺ لسان أبي ذرٍّ وقلبه! فإنّه لا يستقيمُ اللسان إلا إذا كان القلب أعوج، فإنّما الأعضاء تبعٌ للقلب!

في سيرة ابنِ هشام، قال ابنُ إسحاق:

مَضَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ سَائِرًا إلى تبوك. فَجَعَلَ يَتَخَلَّفُ عَنْهُ الرَّجُلُ، يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، تَخَلَّفَ فُلَانٌ!

فَيَقُولُ: دَعُوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللّهُ تَعَالَى بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمْ اللّهُ مِنْهُ!

حَتّى قِيلَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، قَدْ تَخَلَّفَ أَبُو ذَرٍّ وَأَبْطَأَ بِهِ بَعِيرُهُ!

فَقَالَ: دَعُوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللّهُ بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمْ اللّهُ مِنْهُ!

ركبَ أَبُو ذَرٍّ عَلَى بَعِيرِهِ، فَلَمّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ أَخَذَ مَتَاعَهُ فَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمّ خَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مَاشِيًا، وَنَزَلَ رَسُولُ اللّهِ فِي بَعْضِ مَنَازِلِهِ فَنَظَرَ نَاظِرٌ مِن الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّ هَذَا الرّجُلَ يَمْشِي عَلَى الطّرِيقِ وَحْدَهُ!

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: كُنْ أَبَا ذَرٍّ!

فَلَمّا تَأَمّلَهُ الْقَوْمُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، هُوَ وَاَللّهِ أَبُو ذَرٍّ!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ، يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ!

كُنْ أبا ذرٍّ، فكان!

جاء ماشياً، وبعض الطُّرقات يعبرها المرءُ بقلبه لا بقدميه!

وقد كان أبو ذرٍّ يمشي بقلبه إلى الله، منذ اللحظة التي أسلم فيها، إلى اللحظة التي أسلم فيها الرُّوح إلى بارئها!

كان النّبيُّ ﷺ يختصُّه ببعض الأحاديث التي لم يختص بها غيره، وهذه منقبة ظاهرة له، وكرامة أجراها الله تعالى عليه!

روى أحمدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ بَرْذَعَةٌ أَوْ قَطِيفَةٌ، فَذَاكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ!

فَقَالَ لِي: يا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدرِي أَيْنَ تَغِيبُ هَذِهِ؟

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِئَةٍ، تَنْطَلِقُ حَتَّى تَخِرَّ لِرَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ سَاجِدَةً تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا حَانَ خُرُوجُهَا أَذِنَ اللَّهُ لَهَا فَتَخْرُجُ فَتَطْلُعُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ حَبَسَهَا!

فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ مَسِيرِي بَعِيدًا!

فَيَقُولُ لَهَا: اطْلُعِي مِنْ حَيْثُ غِبْتِ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا!

حديثٌ عظيم، يحملُ في طيّاته خبراً عن آيةٍ كونيّة، مرتبطة بإغلاق باب التوبة، ألا وهي خروج الشمس من مغربها!

وهذا خبرٌ لا يُدرك بالعقل، ولا يُثبت بالتّجربة، وإنما يأخذه المؤمن بالتّسليم، كما أخذ غيره من قبل، فنحن أمّة الغيب!

ومن ناقش في هذه، فليناقش في الجنّة، والنّار، والبعث، والحساب، والنّشور، والعرض، والصراط، والشّفاعة، والحوض!

فكلها غيبيات ولا سبيل لإثباتها بالعقل، فالعقل أساساً لا يُدركها، لهذا فإنّ العقل قد يُحتجُّ به على ما يمكنه إدراكه، أما ما كان فوق طاقته، فليس مضماره، وليس عليه أن يردّ ما لا يمكنه إدراكه لمجرّد أنه لا يمكنه إدراكه، ثمة أشياء في هذه الحياة موطنها القلب لا العقل، التّسليم لا المحاججة!

ثمّ إنّ الحواس بحدّ ذاتها خادعة فيما يمكن لها أن تدركه، ألا ترى أنّ العين تُريك السّراب في الصحراء ماءً، فإذا جئته لم تجد شيئاً!

فإن كنت عاجزاً عن إدراك كل ما تراه وتفهمه، وهو مجرد ماء وتراب وحرارة، فكيف تريدُ ألا تُؤمن إلا بما يمكن لعقلك إدراكه!

وإن كنتَ بحواسك محدوداً، فإنّك بأمور الغيب أكثر محدودية!

وروى أحمدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: أَمَرَنِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ:

أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ!

وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي!

وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ!

وَأَمَرَنِي أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا!

وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا!

وَأَمَرَنِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ!

وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ!

وهذا أيضاً وصيّة عظيمة جامعة، اختصّ بها النّبيُّ ﷺ أبا ذرّ دوناً عن النّاس!

كان أبو ذرّ زاهداً في الدّنيا، نافضاً قلبه ويده منها!

جاء في حلية الأولياء:

جاء رجلٌ إلى أبي ذرّ رضي الله عنه، فعرض عليه نفقة.

فقال أبو ذَرّ: عندنا أعنز نحلبها، وحُمُرٌ تنقل، وجارية تخدمنا، وفضل عباءة عن كسوتنا، إني أخاف أن أحاسب على الفضل!

والآن وصلَ بنا المطاف، إلى الغرض الذي لأجله كان هذا الكتاب، ألا وهو تتبعُ مواقف حياة الصحابيّ، واستخلاص تلك السّمة الرّئيسة المحرّكة لشخصيّته، أو تلك الصفة التي عُرف بها!

والحديث عن أبي ذرّ حديث صفة، فهو هادي قومه بإذن الله! فقد كان أبو ذرّ سبباً في إسلام قبيلة غفارٍ كلّها، آمنوا جميعاً بدعوة النّبيّ ﷺ على يدي أبي ذرّ!

كلّهم يأتون يوم القيامة في صحيفته!

ولفهم تفاصيل هذه الصّفة لا بُدّ أن نُعرّجَ على قصّة إسلام أبي ذرّ، وهي قصّة شائقة ماتعة، تُريكَ جَلَدَ الأوائل، وكم دفعوا ثمناً باهظاً

ليصلنا هذا الدِّين على طبقٍ من ذهب!

وقولنا على طبقٍ من ذهبٍ هو من باب أنّه وصلنا دون أن نتعب به!

وإلا فإنّ الحقيقة أنّه وصلنا على طبقٍ من الدّماء والأشلاء التي بذلها الصّحابة في سبيل الله!

في الطّبقات الكبرى لابن سعد: أسلمَ أبو ذرٍّ قديماً في مكّة، فكان خامس من دخل الإسلام!

روى الشيخانِ عَنْ أبي جَمْرَةَ قَالَ: قَالَ لَنَا ابنُ عَبّاسٍ: أَلَا أُخبِرُكُمْ بِإِسلَامِ أَبِي ذَرٍّ؟

قُلنَا بَلَى.

قَالَ: قَالَ أَبو ذَرٍّ: كُنتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ، فَبَلَغَنَا أَنّ رَجُلًا قَد خَرَجَ بِمَكّة يَزْعُمُ أَنّهُ نَبِيٌّ، فَقُلتُ لِأَخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرّجُلِ كَلِّمهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ!

فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ، ثُمّ رَجَعَ.

فَقُلْتُ: مَا عِندَكَ؟

فَقَالَ: وَاللّهِ، لَقَدْ رَأَيتُ رَجُلًا يَأْمُرُ بِالْخَيرِ وَيَنْهَى عَنْ الشّرِّ!

فَقُلْتُ لَهُ: لَم تَشْفِنِي مِن الْخَبَرِ!

فَأَخَذتُ جِرَابًا وَعَصًا، ثُمّ أَقبَلتُ إِلَى مَكّةَ، فَجَعَلتُ لَا أَعرِفُهُ وَأَكرَهُ أَنْ أَسأَلَ عَنهُ وَأَشرَبُ مِنْ مَاءِ زَمزَمَ وَأَكُونُ فِي المَسْجِدِ.

فَمَرّ بِي عَلِيٌّ، فَقَالَ: كَأَنّ الرّجلَ غَرِيبٌ؟

قُلتُ: نَعَم.

قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ.

فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أُخْبِرُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ.

فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ؟

قُلْتُ: لَا!

قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي.

ثم سألني، فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ؟ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ؟

قُلْتُ لَهُ: إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ.

قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ.

قُلْتُ لَهُ: بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِن الْخَبَرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ!

فَقَالَ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ، هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِ أَنْتَ!

فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَعَرَضَهُ، فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي!

فَقَالَ لِي: يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ!

فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إِلَى

الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ!

فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ الذي خرج من دين آبائه، ودخل في دين جديد، فَقَامُوا، فَضُرِبْتُ لِأَمُوتَ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارٍ!

فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ!

فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ، فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالْأَمْسِ!

وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ!

فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ!

وروى مسلمٌ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ:

قَالَ أبو ذَرٍّ الغفاري وهو يتحدّث عن قصة إسلامه:

جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فاسْتَلَمَ الْحَجَرَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ أبو بكر الصّديق، ثُمَّ صَلَّى، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

فَقَالَ: وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟

قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ.

فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنِ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ، فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ، فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي!

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: مَتَى كُنْتَ هَا هُنَا؟

قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ!

قَالَ: فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟

قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ (انثنت) بَطْنِي وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ!

قَالَ: إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ!

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ.

فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ؟!

فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟

قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ!

قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ!

فَأَتَيْنَا أُمَّنَا فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ

وَصَدَّقْتُ!

فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ!

وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا.

فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي!

وَجَاءَتْ أَسْلَمُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِخْوَتُنَا نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، فَأَسْلَمُوا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: غِفَار غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ!

هذه قصّة إسلام أبي ذرّ، تُريك كيف كان باحثاً عن الحقّ بكلّ جوارحه!

وتُريك كم لاقى في سبيل هذا الدّين!

وتُريكَ أنّه صاحب فضلٍ من بعد الله على قومه بأن كان سبباً في إسلامهم!

وتُريكَ كيف أنّ المرءَ متى أخلصَ النّية لله، أعطاه الله تعالى فوق ما نوى!

جاء أبو ذرٍّ طالباً للحقّ، وليس في نيّته غير أن يكون في صحيفة نفسه، فجعل الله تعالى قبيلته كلّها في صحيفته!

روى ابنُ سعد في الطّبقات، عن مالك بن الأشتر، عن زوجة أبي ذرٍّ:

أن أبا ذرٍّ حضره الموت وهو بالرّبَذة، مكان قريب من المدينة، فبكت امرأته.

فقال: ما يُبْكيك؟

فقالت: أبكي أنه لا بُدّ لي من تكفينك وليس عندي ثوب يسع لك كفنًا!

فقال: لا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده في نفر يقول: ليموتنّ رجلٌ منكم بفلاةٍ من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين!

فكُلُّ من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت، فراقبي الطريق، فإنك سوف ترين ما أقول لك، وإنّي والله ما كذبت ولا كذبت!

قالت: وأنّى ذلك وقد انقطع الحاجُّ!

قال: راقبي الطريق!

فبينما هي كذلك إذ هي بقوم قد أقبلوا حتى وقفوا عليها، فقالوا: ما لكِ؟

فقالت: امرؤ من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيه؟

قالوا: ومَن هو؟

قالت: أبو ذَرٍّ الغفاري!

فغسّلوه، وكفنوه، ثم دفنوه!

وجاء في أُسد الغابة في معرفة الصّحابة لابن الأثير:

تُوفي أبو ذرٍّ الغفاري سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة بالرّبَذة،

وصلى عليه عبد الله بن مسعود، فإنه كان مع أولئك النفر الذين شهدوا موته!

وحملوا عياله، وكانت لأبي ذرٍّ بنت، إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة، فضمّ عثمان بنت أبي ذرٍّ إلى أولاده، وقال: يرحم اللهُ أبا ذَرٍّ!

رحمَ اللهُ أبا ذرٍّ ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# أبو هريرة!

«اللهمّ حبّب عُبيدكَ هذا وأمّه إلى عبادك المؤمنين، وحبّب إليهم المؤمنين»!

بهذه الكلمات دعا النّبيّ ﷺ لأبي هُريرة وأمّه!

أبو هُريرة حافظة المسلمين، ومستودع سُنّة نبيّهم، روى فأكثرَ من الرّواية، وتفرّدَ فحفظَ الله لنا بفرائده دين نبيّه!

فإن تعجّبَ النّاس في زماننا من كثرة رواياته، فقد تعجبّ من هم خيرٌ منهم من قبل! ولا يضرُّه عجب هؤلاء ولا أولئك، فقد أدركَ ما فرّغَ نفسه لأجله، وهذا الدّينُ إن أعطيته كلّكَ أعطاكَ كلّه، وإن أعطيته فضلَ وقتكَ لم تُدرك منه الكثير!

نصف حفظ أبي هريرة اجتهادٌ ومثابرة، ونصفه الآخرة بركةٌ من بركات النّبوّة!

وهذان المعنيان وردا في حديثٍ واحدٍ رواه الشّيخان في صحيحهما!

أخرج البخاري مسلم عَنْ الْأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: يَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ، وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ، وَيَقُولُونَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ مِثْلَ أَحَادِيثِهِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي فَأَحْضُرُ حِينَ يَغِيبُونَ، وَأَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ!

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ مِنْكُمْ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعَهُ إِلَى صَدْرِهِ فَيَنْسَى مِنْ مَقَالَتِي شَيْئًا أَبَدًا!

فَبَسَطْتُ نَمِرَةً لَيْسَ عَلَيَّ ثَوْبٌ غَيْرُهَا حَتَّى قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ، ثُمَّ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَتِهِ تِلْكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا!

وَاللَّهِ لَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ولم يكن أبو هريرة يحفظُ ما يُروى أمامه فقط، وإنَّما كان كثير السُّؤال للنَّبيِّ ﷺ، وكان النَّبيُّ ﷺ يعجبه منه هذا، بل وكان الأمرُ يجولُ في خاطره، فيحسبُ أنَّ أبا هريرة لا محالة سائله عنه، وقد كان أبو هريرة عند حسن ظنِّ النَّبيِّ ﷺ به!

أخرج البخاري وأحمد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فَقَالَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ!

أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ

قِبَلِ نَفْسِهِ!

كان أثيراً على قلب النّبيّ ﷺ، يعوده إذا مرضَ، ويرقيه بيده الشّريفة!

أخرج أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: دَخَلَ عَلَيّ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَنَا أَشْتَكِي يَعُودُنِي.

فَقَالَ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةٍ رَقَانِي بِهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلَام؟

قُلْتُ: بَلَى بِأَبِي وَأُمّي!

قَالَ: بِسْمِ اللّهِ أَرْقِيكَ، وَاللّهُ يَشْفِيكَ، مِنْ كُلّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنْ شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَمِنْ كُلّ دَاءٍ فِيكَ!

وكان النّبيُّ ﷺ كثيراً ما يختصّه بالنّصيحة وحده، وهذا من فضائله رضي الله عنه!

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبدَ الناس، وكن قنعاً تكن أشكرَ الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن جوار من تكن مسلماً، وأقِلّ الضحك فإن كثرةَ الضحكِ تميتُ القلبَ!

وكان النّبيُّ ﷺ يأتمنه، وجعله حارساً له على بيت المال!

وبهذا جمع أبو هريرة فضيلتين عظيمتين، أنّ النّبيّ ﷺ إئتمنه على الدّين والدّنيا!

فأمّا الدّين فقد أمّنه على الحديث يوم نثر رداءه كما تقدّم!

وأمّا الدّنيا فقد جعله حارساً على بيت المال!

وفي هذه حديث عظيم، فيه فائدة عظيمة، حريٌ بكلّ مسلمٍ أن يتأملها، ولا يُضيّع ما فيها!

روى البخاريُ في صحيحه من حديث أبي هريرة قال:

وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ!

فَخَلَّيْتُ عَنْهُ!

فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ!

فقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ!

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ!

فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ!

فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ!

فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ: لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ!

قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ!

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ!

قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا!

قُلْتُ: مَا هُوَ؟

قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ!

فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ!

قَالَ: مَا هِيَ؟

قُلْتُ قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ!

تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ!

أمّا الآن، فقد وصل بنا المطاف للحديث عن السّمة المحرّكة

لشخصيّة أبي هريرة!

إنّ المتأمّل في سيرة أبي هريرة ينتبه إلى أنّه كان بَرّا رحيماً!

برُّ أبي هريرة بأمّه عجيب جداً، ويستحقُّ أن نتوقف عنده، ونُعلّق عليه!

أخرج مسلم بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

كُنْتُ أدْعُو أُمِّي إلَى الإسْلاَمِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أكْرَهُ!

فَأتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأنَا أبْكِي، فقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إنِّي كُنْتُ أدْعُو أُمِّي إلَى الإسْلاَمِ فَتَأْبَى عَلَيّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أنْ يَهْدِيَ أُمَّ أبِي هُرَيْرَةَ!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُمّ اهْدِ أُمَّ أبِي هُرَيْرَةَ!

فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إلَى الْبَابِ فَإذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيّ، فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أبَا هُرَيْرَةَ.

وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ ثُمّ قَالَتْ: يَا أبَا هُرَيْرَةَ أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلّا اللَّهُ وَأشْهَدُ أنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ!

فَرَجَعْتُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأتَيْتُهُ وَأنَا أبْكِي مِنَ الْفَرَحِ!

وقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أبِي هُرَيْرَةَ.

فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ ادْعُ اللّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا!

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ!

فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلاَ يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي!

بَرٌّ عجيب، لم يهدأ له بالٌ وأمّه ليست على الإسلام، يدعوها ليلاً ونهاراً، ويتحبّبُ إليها بكلِّ طُرق الخير لتُسلم!

وكان هذا دأبه معها، حتى كان ذاك اليوم الذي دعاها فيه إلى الإسلام، فأسمعته في النبيِّ ﷺ كلاماً يكرهه!

فهل ملّ منها؟!

لا أبداً! وإنما ذهبَ إلى النّبيِّ ﷺ يستعينه على اللهِ بها، ويسأله أن يدعو لها لتُسلم!

دعوة نبوّة هي التي جاءت بأمِّ أبي هريرة إلى الإسلام!

ومن عجيب برّه بأمّه أنّه لم يكن يقع على خيرٍ إلا وأحبّ أن تشاركه فيه، حتى اللقمة!

في الطبقات لابن سعد، عن أبي هريرة قال: خرجتُ يوماً من بيتي إلى المسجد، فوجدت نفراً.

فقالوا: ما أخرجك؟

قلتُ: الجوع.

فقالوا: ونحن والله ما أخرجنا إلا الجوع.

فقمنا، فدخلنا على رسول الله، فقال: ما جاء بكم هذه الساعة؟

فأخبرناه، فدعا بطبق فيه تمر، فأعطى كل رجل منا تمرتين.

فقال: كلوا هاتين التمرتين، واشربوا عليهما من الماء، فإنهما ستجزيانكم يومكم من هذا!

فأكلتُ تمرةً، وخبأتُ الأخرى!

فقال: يا أبا هريرة، لمَ رفعتها؟

قلتُ: لأمي.

قال: كلها، فسنعطيك لها تمرتين!

وأمّا رحمته فقد تجلّت في شفقته على هرّته، وبسببها كنّاه النّبيّ ﷺ بهذه الكُنية!

قصةُ هذا اللقب يرجع إلى هرةٍ صغيرةٍ كان هذا الصحابيّ الجليلِ يعتني بها ويرعاها، ويُحسنُ إليها، ويُعاملها بما يليق بالإنسانِ المؤمنِ وكانت هذه الهرةُ تُلازمه فتذهب معه إلى كلِّ مكانٍ، وكان يحملها في كُمّ جلبابه.

روى ابن حجرٍ في كتابه الإصابة في معرفة الصّحابة: عن عبيد بن أبي رافع أنّه قال:

قلتُ لأبي هريرةَ لم كُنّيتَ بأبي هريرةَ؟

قال: كنتُ أرعى غنمَ أهلي، وكانت لي هِرّةٌ صغيرةٌ، فكنتُ أضعُها بالليلِ في شجرةٍ، وإذا كان النهارُ ذهبتُ بها معي، فلعبتُ بها فكنَّوني أبا هريرةَ!

رحمَ اللهُ أبا هريرة، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# سعد بن معاذ!

اهتزّ العرش لموت سعد بن معاذ!

بهذه الكلمات شيّع النّبيّ ﷺ صاحبه سعد بن معاذ!

يا للمجد يا سعد بن معاذٍ، يا للمجد!

إنّه سعد بن معاذ، زعيم الأوس، سيّدٌ ابن سيّدٍ، رأسٌ من رؤوس النّاس وأشرافهم في الجاهلية، ورأسٌ من رؤوس النّاس وأشرافهم في الإسلام!

في سعد تحتار اللُّغة، وتقف المفردات خرساء، إنّه رجل المواقف الواضحة الذي لا تعرف أنصاف الحلول، رجل الولاء والبراء في أوضح صورها، لا يعرف التّلون، واضح كحدّ السّيف، لامعٌ كالبرق، حاضر بوضوحٍ كدويّ الرّعد، لا يُشَكُّ بمواقفه!

هذه كانت صفة سعد: رجل الولاء والبراء!

أسلم سعد بن معاذ قبل مجيء، النّبي ﷺ إلى المدينة، وكان إسلامه على يد مصعب بن عمير، وكان إسلامه سبباً في إسلام قومه!

روى ابن إسحاق في السّيرة: أنّ أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بن عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل به حائطاً [أي: بستاناً] من حوائط بني ظفر، على بئرٍ يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممّن أسلم.

وسعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير يومئذٍ سيّدا قومهما من بني عبد

الأشهل، وكلاهما مشركٌ على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير:

لا أبا لك! انطلِق إلى هذين الرّجلين اللّذين قد أتيا دارينا ليُسَفِّها ضُعفاءَنا، فازجُرْهُما وانْهَهُما عن أن يأتيا ديارنا، فإنّه لولا أنّ أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمتَ كفيتُك ذلك.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثمّ أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعد ابن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه، قد جاءَك فاصدُقِ الله فيه. قال مصعب: إنْ يَجْلِسْ أُكَلِّمْهُ!

فوقف أسيدٌ عليهما مُتَشتّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهَان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فقال له مصعب: أَوَتَجْلِسُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟

قال: أنصفت.

ثمّ ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسلاَمَ قَبلَ أنْ يَتَكَلَّمَ، فِي إشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ.

ثمّ قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدّين؟

قالا له: تَغْتَسِلُ، فَتَطّهّرُ، وَتُطَهِّرُ ثَوبَكَ، ثُمّ تُصَلِّي.

فقام فاغتسل، وطهّر ثوبه، وتشهّد شهادة الحقّ، ثمّ قام فقال لهما:

إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحدٌ من قومه! وسأرسله إليكما الآن: سعدُ بن معاذ.

ثمّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ وقومِه - وهم جلوس في ناديهم - فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلمّا وقف على النّادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرّجلين، فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيثهما فقالا: نفعل ما أحببث. وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنّهم عرفوا أنّه ابن خالتك ليحقروك، قال: فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثمّ قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً.

ثمّ خرج إليهما سعدٌ فلمّا رآهما مطمئنّين، عرف أن أُسيداً إنّما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتّماً ثمّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا منّي، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

فقال مصعب لسعد: أوَتقعدُ فتسمع فإن رضيث أمراً رغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت ثمّ ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقه وتسهُّله ثمّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا

الدِّين؟

قالا: تغتسل فتطهر وتطهِّر ثوبيك ثمّ تشهد شهادة الحقّ ثمّ تُصلّي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحقّ، ثمّ ركع ركعتين، ثمّ أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيِّدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبةً، قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلّا مسلماً أو مسلمةً.

هذا هو سعد بن معاذٍ بجلاءٍ، رجل ولاءٍ وبراء لا يعرف أنصاف الحلول، عندما كان الشّرك لم يهُن عليه أن يُعرض هذا الدِّين الجديد في أرضه، أرسل أُسيد بن حُضير ليطرد المجتمعين، ولولا أنّ أسعد بن زرارة ابن خالته لذهب بنفسه!

كان لبقاً يُراعي الرّحم، ولكن هذه المراعاة لم تكن على حساب وضوح مواقفه، فهو يهتم بالنّتيجة لا بالوسيلة!

وعندما أسلم كان أول ما فعله أن حملَ هذا الدِّين إلى قومه الأوس، فنعم السّيِّد الذي يحملُ الخير إلى قومه!

يُعادي سعد بن معاذ بكلِّه، ويُصالح بكلِّه!

ينفرُ من أمر ما بكلِّ خليّةٍ فيه، ويتبعه بكل خليّةٍ فيه!

في سيرة ابن اسحاق، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أميّة بن خلف، وكان أميّة بن خلف إذا انطلق إلى الشّام يمرّ بالمدينة فينزل عليه، فقال له أميّة: انتظر حتّى إذا انتصف النّهار، وغفل النّاس طفت بالبيت.

فبينما سعد بن معاذ يطوف إذ أتاه أبو جهل، فقال: من الذي يطوف آمنا؟!

فقال له سعد: أنا!

فقال له أبو جهل: أتطوف آمناً وقد أويتم محمداً وأصحابه؟

فقال له سعد: نعم!

فتلاحيا، وتصايحا، فقال أميّة لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنّه سيّد أهل الوادي.

فقال له سعد: والله لو منعتني، لقطعتُ عليك متجرك إلى الشّام!

فجعل أميّة يعيدُ عليه: لا ترفعْ صوتك!

فغضب سعد، وقال له: دعنا منكَ، فإنّي سمعتُ النّبيّ ﷺ: إنّه قاتلك!

فقال أمية: أيّايَ؟

فقال له سعد: نعم.

فقال أمية: والله ما يكذب محمّد!

فرجع أميّة إلى بيته، وقال لامرأته: أما تعلمين ما قال لي أخي

اليثربيّ؟ زعم أنّه

سمع محمّداً يزعُم أنّه قاتلي!

فقالت له: والله ما يكذب محمّد!

فلمّا خرجت قريش إلى بدر، قالت زوجة أميّة له: ما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربيّ؟

فأراد ألا يخرج، فقال له أبو جهل: إنّك من أشراف أهل الوادي، فسِر معنا يوماً

أو يومين.

فسار معهم، فقتله الله يوم بدرٍ بيد بلال بن رباح!

مرّةً أخرى يظهر الولاء والبراء في شخصيّة سعد بن معاذ!

أولاً: يذهبُ ليعتمر وهو على دين الإسلام، في عقر دار قريش وهي ما تزال في أوجّ جبروتها وقوتها، لم تُنازل المسلمين في بدرٍ فيكسروا شوكتها!

ثانياً: يدافع عن نفسه أمام أبي جهل وهو سيّد قومه، ويرفع صوته عليه، ولا يرضى بالذِّلّة أبداً، رغم أنّه غريب وليس في دار قومه!

ثالثاً: لا يرضى من صاحبه أميّة بن خلف أن يكتم صوته، بل يهدده، بأنّه إذا منعه أن يردّ على أبي جهل فإنّه سيمنعه طريق التّجارة إلى الشّام!

رابعاً: لا يحابي أميّة بن خلف، ويخبره علانية بما سمع من النّبيّ ﷺ بأن سيموت قتلاً!

أيُّ عِزَّةٍ هذه التي كانت في سعد بن معاذ، وأُي ولاءٍ لله وبراءٍ من المشركين؟!

اللَّيلة التي قبل أن ينشب القتال بين المسلمين والمشركين في بدر، جعل النَّبيُّ ﷺ يقول:

أشيروا عليّ أيُّها النَّاس.

فتكلَّم أبو بكر الصِّديق، فقالَ وأحسنَ.

ثمَّ قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن.

ثمَّ قام المقداد بن عمرو، فقال، وأحسن.

والنَّبيُّ ﷺ يقول: أشيروا عليّ أيُّها النَّاس!

لأنَّ الثَّلاثة الذين تكلموا إنَّما هم من المهاجرين، وهم أقلِّيَّة في الجيش، فأحبَّ النَّبيُّ ﷺ أن يعلم رأي الأنصار لأنهم الأكثريَّة، ولأنَّ بيعة العقبة كانت تنصُّ أن يمنعوه ممَّا يمنعوا منه أولادهم وأموالهم ما دام في المدينة، وهم الآن خارجها!

ففطن لذلك سعد بن معاذ، فقال للنَّبيِّ ﷺ: لكأنَّك تريدنا يا رسول الله!

فقال له النَّبيُّ ﷺ: أجل!

فقال له سعد: قد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة، فامضي يا رسول الله لما أردت، والذي بعثك بالحقِّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلَّف منَّا رجلٌ واحد، وما نكره

أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللّقاء، ولعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله!

نعم أعطى الأنصار عهدهم أن يُدافعوا عن النّبيّ ﷺ ويمنعوه ما دام في المدينة، لهذا أراد رأيهم لأنّ قواعد اللعبة قد تغيّرت!

وكلننا قلنا إنّ سعد بن معاذ يأتي كلّه أو يذهب كلّه!

لا ينصرُ في مكانٍ ويخذل في غيره!

إنّ الولاء والبراء الذي يُحرّك سعد بن معاذ يجعله صاحب قضية يُدافع عنها فوق كلّ أرض، وتحت كلّ سماء، فالذي مضى على عهد الأنصار في المدينة، لم يكن لينكث العهد خارجها!

اجتمعت العربُ على المسلمين يوم الخندق، وزاد الطّينبلّة أنّ بني قريظة غدروا من الدّاخل، وعلى خطى بني قريظة جاء عيينة بن حصن في غطفان ليكمل مسلسل الغدر، وصار المسلمون بين فكّي كمّاشة، عدوٌّ بعيد جاء من أرجاء جزيرة العرب، وعدوٌّ قريب أخلّ بالعهد وخان!

فأراد النّبيُّ ﷺ أن يعطي عُيينة بن حصن ومن معه ثلث ثمار المدينة، ليرجع هو ومن معه من غطفان ويُخذِّل الأحزاب، فأرسل إلى حد بن معاذ سيّد الأوس، وسعد بن عبادة سيّد الخزرج ليشاورها بما عزم عليه، وهذا من أدبه ﷺ، وحسن عهده، لأنّ الثّمار ثمارهم، ولم يشأ أن يقطع فيها دون إذنهما!

فلمّا كلمهما في ذلك، قالا: يا رسول الله، إن كان اللهُ أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه! لقد كنّا

وهؤلاء القوم على الشّرك بالله، وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرةً من تمر المدينة إلّا بيعاً أو ضيافة، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلّا السّيف!

فأثنى النّبيّ ﷺ، وصوّب رأيهما، وقال: إنّما هو شيء أصنعه لكم، لمّا رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة!

إنّه الولاء والبراء في أبهى صوره مجدّداً!

لو قَبِلا عرض النّبيّ ﷺ ما كان في الأمر بأس، فالنّبيّ ﷺ لا يعرض أمراً فيه بأس أساساً، وما هو إلّا جزءٌ من السّياسة، وتدبير الأمور، وإعمال العقل في الحوادث والنّوازل! والعاقل يختار أحياناً أن ينحني قليلاً حتى تمرّ العاصفة، وأن يشتري من يومه لغده.

ولكنّهما وبكل أدبٍ رفضا!

أخبرا النّبيّ ﷺ أنّهما لا يمانعان إن كان وحياً، فقد بايعاه على السّمع والطّاعة، أمّا إن كان عرضاً ولهم فيه رأي، فلن يعطوهم ولو تمرة واحدة، وليس بينهم وبين القوم إلا السّيف!

روى ابن اسحاق في سيرته، أنّ أمّ المؤمنين عائشة كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وأمُّ سعد بن معاذ معها، فمرّ سعد وعليه درع قد خرجت منه ذراعه كلّها فقالت عائشة لأمّ سعد: يا أمّ سعدٍ، لوددت أنّ درع سعدٍ كانت أسبغ ممّا هي!

وصدق حدس عائشة، ووقع الذي تخوّفت منه، فرُميَ سعدٌ بسهم قطع منه شريانه الأكحل.

رماه ابنُ العرقة، فلمّا أصابه، قال: خذها مني وأنا ابن العرقة!

فقال له سعد: عرّق اللهُ وجهكَ في النّار!

ثمّ دعا، فقال: اللّهمّ إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنّه لا قوم أحبّ إليّ من أن أجاهدهم فيك من قومٍ آذوا نبيّك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتّى تقرّ عيني من بني قريظة!

وردّ الله كيد الأحزاب بالرّيح، وسار النّبيّ ﷺ بالجيش إلى بني قريظة، فلمّا رأوا أنّه لا سبيل بهم إلى قتاله نزلوا على حكمه!

فجاء الأوس، وقالوا: يا رسول الله، إنّهم موالينا دون الخزرج، وقد كانوا حلفاءهم في الجاهلية، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، وقد كان النّبيّ ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إيّاهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فوهبهم له!

فلمّا كلّمه الأوس، قال لهم النّبيّ ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟

فقالوا: بلى

فقال: ذلك إلى سعد بن معاذ!

وكان النّبيّ ﷺ قد جعل سعداً في خيمة رفيدة، وكانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين.

وإنّما أمر النّبيّ ﷺ أن يكون سعد بن معاذ في خيمة رفيدة ليكون قريباً منه. فيعوده صباح مساء.

فلمّا حكّمه النّبيّ ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمارٍ قد وطئوا له بوسادة، ثمّ أقبلوا به إلى النّبيّ ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإنّ النّبيّ ﷺ إنّما ولّاكَ ذلك لتحسن إليهم!

فلمّا أكثروا عليه، قال: لقد آن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم!

فلمّا وصل سعد إلى النّبيّ ﷺ، قال النّبيّ ﷺ: قوموا إلى سّيدكم!

فقاموا إليه، وقالوا: يا أبا عمرو، إنّ رسول اللهِ ﷺ قد ولّاكَ أمرَ مواليكَ

لتحكم فيهم.

فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم ما حكمت؟

فقالوا: نعم!

فقال: وعلى من هاهنا؟!

إلى النّاحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرضٌ عن النّبيّ ﷺ إجلالاً له!

فقال النّبيّ ﷺ: نعم.

فقال سعد: فإنّي أحكم فيهم أن تُقتل الرّجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذّراري والنّساء!

فقال له النّبيّ ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات!

كان بنو قريظة حلفاءه في الجاهلية، وهو رجل يحفظ العهد أولاً، وقومه يُحثّونه أن يرفق بهم ثانياً، والأمر إليه ثالثاً فقد قبل الجميع بحكمه.

فحكم فيهم بالولاء والبراء، وأنّ الغدر، لا عفو عنه، فهو ليس كالخطأ العابر، وأنّ الله تعالى أحقُّ بالوفاء من النّاس!

فلمّا حكم سعد فيهم، ولم يبقِ الله من حرب قريش شيئاً، فقد كانت غزوة الخندق آخر حروب المسلمين معهم، تلاها فتح مكّة: انبعث الدّم من جرح سعد بن معاذ، وأسلم الرّوح إلى بارئها!

فلمّا وصل الخبر إلى النّبيّ ﷺ، حثّ أصحاب على المسير إليه بسرعة، وقال: إنّي أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة.

فلمّا وصلوا إلى بيت سعد، وجدوا أمّ سعد تبكيه وتقول: ويل أمّ سعدٍ سعداً، حزامةً وجِدّاً!

فقال النّبيّ ﷺ: كلُّ باكية تكذب إلّا أمّ سعد!

ثمّ حملوه إلى البقيع، ولمّا انتهوا من دفنه، قال الصّحابة للنّبيّ ﷺ: ما حملنا

ميّتاً أخف علينا منه، وكان سعد طويلاً بديناً.

فقال النّبيّ ﷺ: ما يمنعه أن يخفّ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا

لم يهبطوا قبل يومهم قط، قد حملوه معكم!

رحم الله سعد بن معاذ، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# حُذيفة بن اليمان!

لا تخبرْ بذلك أحداً!

بهذه الكلمات استودع النّبيُّ ﷺ حُذيفة بن اليمان سَرّه!

إنّه صاحبُ سرّ رسول الله ﷺ!

عملاقٌ من عمالقة الإسلام، وواحدٌ من الذين قام هذا الدِّين على أكتافهم!

شهد مع النّبيّ ﷺ كلّ غزواته، إلّا غزوة بدرٍ منَعه النّبيُّ ﷺ منها وفاءً للعهد!

يقول حذيفة بن اليمان ما منعني أن أشهد بدراً إلّا أن خرجتُ أنا وصاحبي أبي حُسيل، فأخذَنا كفّار قريشٍ، فقالوا: إنّكم تريدون محمّداً؟

فقلنا: ما نريدُه وإنّما نريد المدينة.

فأخذوا منّا عهد الله وميثاقه لننصرَفنّ إلى المدينة ولا نقاتل معه.

فأتينا النّبيّ ﷺ فأخبرناه بالخبر.

فقال: انصرفا، نفِي لهم بعهدهم ونستعين بالله عليهم!

درسٌ عظيمٌ في الوفاء، من رجلٍ عظيمٍ أوتِيَ مكارم الأخلاق كلّها!

رغم أنّ الكذب يجوز على الأعداء، وما كان بإمكان حذيفة بن اليمان وأبي حُسيل أن يخبرا قريشاً أنهما ذاهبان إلى النّبيّ ﷺ، ولكن لأنّ المشركين قد أخذوا عليها عهداً أن لا يقاتلا معه ضدهم،

أبى الشهمُ الكريمُ الوفيُّ أن يسمحَ لهما بالقتال، وقال لهما: انصرفا نفِي لهم بعهدهم!

كان حذيفة بن اليمان صادقَ اللّسان، نقِيّ القلب، عفيف اليد، زاهداً في الدّنيا. قال ابن سيرين، بعث عمر بن الخطّاب حذيفة على المدائن، فقرأ عهدة عليهم.

فقالوا: سَلْما شئت.

فقال: طعاماً آكله، وعلف حماري هذا!

فأقام فيهم ما شاء الله له أن يقيم، ثمّ كتب اليه عمر بن الخطّاب: أُقدم عليّ! فلما بلغ عمر قدومه، كمن له في الطّريق، فلمّا رآه على الحال التي خرج عليها، أتاه، فعانقه، وقال له: أنت أخي، وأنا أخوك!

أمّا صفة حذيفة التي عُرف بها، فهي التي بدأنا الكلام بها، حين قال له النّبيُّ ﷺ: لا تخبر بذلك أحداً!

كان حذيفة بن اليمان يعرف بين النّاس بصاحبِ سرّ رسول الله ﷺ، حيث اختصّه من بين الصّحابة بأسماء المنافقين، وعهد إليه أن يبقي الأمر سرّاً، فكتم حذيفة السرّ حتّى مات!

أمّا قصّة هذه الحادثة، هي أنّ النّبيّ ﷺ رجع قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتّى إذا كان ببعض الطريق، مكر به أناس من المنافقين، فتآمروا أن يطرحوه من رأس تلة في الطريق، فلمّا بلغوا التّلّة، أرادوا أن يسلكوها معه، فلمّا غشِيَهم النّبيُّ ﷺ، أخبره الله تعالى بخبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ ببطن الواد، فإنّه أوسع لكم!

وأخذ النّبيُّ ﷺ طريق التّلّة، وأخذ النّاس ببطن الوادي إلّا النّفر

الذين همّوا بالمكر بالنّبيّ ﷺ، لمّا سمعوا بذلك، استعدّوا وتكتّموا، وقد همّوا بأمرٍ عظيم!

وأمر النّبيّ ﷺ حذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر، فمشيا معه، وأمر عمّاراً أن يأخذ بزمام النّاقة، وأمر حذيفة أن يسوقها، وبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غَشَوْه، فغضب النّبيّ ﷺ، وأمر حذيفة أن يردّهم، وأبصر حذيفة غضب النّبيّ ﷺ، فرجع ومعه سكين، فاستقبل وجوه رواحلهم، فضربها ضرباً بالسّكين، وأبصر القوم وهم متلثّمون، فأرعبهم الله تعالى حين رأوا حذيفة، وأسرعوا حتّى خالطوا النّاس! وأقبل حذيفة حتّى أدرك النّبيّ ﷺ، فلمّا أدركه قال له: اضرب الرّاحلة يا حذيفة، وامشِ أنت هنا يا عمّار!

وقال النّبيّ ﷺ لحذيفة: هل عرفت من هؤلاء الرُّكّب أحداً؟

فقال له حذيفة: عرفتُ راحلة فلانٍ وفلانٍ، وكانت ظُلمة، وغشيتُهم وهم متلثّمون فلم أستَبِنهم!

فقال النّبيّ ﷺ لحذيفة وعمّار: هل علمتما ما كان شأن هؤلاءِ الرُّكّب وما أرادوا؟!

فقالا: لا، واللهِ يا رسول الله!

فقال: فإنّهم مكروا ليسيروا معي، حتّى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها!

فقالا: ألا تأمر بهم إذاً فنضرب أعناقهم؟

فقال: أكره أن يتحدّث النّاس ويقولوا: إنّ محمداً قد وضع يده في أصحابه!

وقال النّبيّ ﷺ لحذيفة: إنّ الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصُّبح!

فلمّا كان الصّباح، جاء حذيفة بن اليمان إلى النّبيّ ﷺ، فأخبره النّبيّ ﷺ بأسمائهم، وعدّهم له واحداً واحداً حتّى بلغوا اثنا عشر رجلاً!

وقال لحذيفة: فلا تخبر بذلك أحداً!

وكان عمر بن الخطّاب في زمن خلافته، إذا جيء بميّت، وكان قد شكّ هل هو من أهل النّفاق أم لا، نظر إلى حذيفة بن اليمان، فإن وجده قد صلّى عليه، صلى معه، وإن وجده لم يصلِ تنحّى عمر مع حذيفة، فلم يصلّ عليه، وترك النّاس يصلون عليه.

وروى البزّار من حديث حذيفة، قال: دُعِيَ عمر بن الخطّاب إلى جنازةٍ، فأراد أن يخرج فيها، فتعلّقتُ به، فقلت له: اجلس يا أمير المؤمنين، فإنّه من أولئك!

فقال لي: نشدتُك بالله، أنا منهم؟

فقلت: لا، ولا أبرّئ أحداً بعدك!

وإنّك لترى هذا الاصطفاء العظيم، وهذا الاختصاص الخالد من النّبيّ ﷺ، إذ جعله موضع سرّه، وآثره في هذا الأمر ما لم يؤثر أبا بكرٍ وعمرٍ على قربهما منه رضي الله عنهما!

وهذا إن دلّ على شيءٍ، فإنّما يدلُّ على مدى ثقة النّبيّ ﷺ بحذيفة، وهذه ميزةٌ تُحسب له ولا تنتقص لا شكّ بمن سواه، ولكنّه

فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده.

منذ تلك اللّحظة، والأمّة لا تعرفُ حذيفة بن اليمان إلّا بصاحب سرّ رسول الله ﷺ وأكرم به من لقبٍ، وأنعِم به من صفةٍ!

أمرٌ أخيرٌ لا يجب تجاهله في الحديث عن حذيفة بن اليمان، وهو أنه قد أُوتِيَ من الفهم ما جعله يدرك أن الخير في هذه الحياة واضح لمن يريده، وإنّ الشرّ هو الذي يتنكّر ويتخفّى!

لهذا دأب يدرس الشّرّ والأشرار، ويتقصّى أخبار الفتن، حتّى صار في هذا الباب مرجعاً عن دون بقيّة الصّحابة، وليس أدلُّ على هذا ما جاء في الصّحيحين حين يقول حذيفة: كان النّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشّرّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنّا كنّا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟

فقال: نعم!

فقلتُ: وهل بعد هذا الشرّ من خير؟

قال: نعم، وفيه دَخَن!

قلتُ: وما دَخَنُه؟

فقال: قومٌ يهدون بغير هذيي تعرف منهم وتُنكِر.

قلت: فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟

قال: نعم، دعاةٌ إلى أبوابِ جهنّم من أجابهم إليها قذفوه فيها!

قلت: يا رسول الله، صفهم لنا!

فقال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسِنتنا!

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

فقال: تلزم جماعة المسلمين!

وروى البُخاريُ من حديث حذيفة بن اليمان، أن عمر بن الخطّاب قال: أيُّكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟

فقلت: أنا أحفظ كما قال!

فقال عمر: هات، إنَّك لجريء!

فقلت: قال رسول الله ﷺ، فتنةُ الرّجل في أهله وماله وجاره، تكفِّرها الصّلاة والصّدقة، والأمر بالمعروف والنهّي عن المنكر!

فقال: ليست هذه، وإنّما التي تموجُ كموج البحر!

فقلت: يا أمير المؤمنين، لا بأس عليك منها، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً؟

فقال عمر: يُفتح الباب أو يُكسر؟

فقلث: بل يُكسر!

فقال: ذاك أحرى ألا يغلق!

فقال لي القوم: أعلِم عمرُ الباب؟

قلث: نعم، كما أنّ دون غدٍ الليّلة، إنّي حدّثته حديثاً ليس بالأغاليط!

وهابت الصّحابة بعد ذلك أن يسألوا حذيفة، فأمروا مسروقاً، فسأله: من الباب؟

فقال: عُمر!

وبالفعل فإنّ القارئ في التّاريخ والسّيرة، يعلم أنّ عمر بن الخطّاب كان الباب بين الخير والفتن، وأنّ كَسر الباب هو قتل عمر، وإنّ الباب إذا كُسِر فلن يُغلق أبداً وتأمّل بعده ما جرى من مقتل عثمان، وما جرى بين الصحابة رضوان الله علم جميعاً بعد ذلك، وما جرى في هذه الأمّة حتّى يومنا هذا!

رحِم الله حذيفة بن اليمان، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# بلال بن رباح!

إني سمعتُ دَفَّ نِعلَيكَ بين يديَّ في الجنّة!

بهذه الكلمات طمأن النّبيُّ ﷺ صاحبه بلال بن رباح، وأخبره إلى أين ينتهي به المآل، ولعَمري إنّ نهايةً إلى جنّة الرّحمن تجعل كلّ نهايةٍ دونها تافهة!

إنّه بلال بن رباح، العبد الذي صار بالإسلام سيّدنا!

كان عمر بن الخطّاب إذا رأى بلالاً قال: بلالٌ سيّدنا وأعتقه سيّدنا!

أسمر البشرة من الحبشة، أبيض القلب بالإيمان في مكّة!

مؤذّن النّبيّ ﷺ، وصاحبه!

أول من أسلم من العبيد، ومن أوائل من أسلم من هذه الأمّة!

روى مسلم من حديث أبي أمامة، قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كُنْتُ وَأنَا في الجَاهِلِيَّةِ أظُنُّ أنَّ النَّاسَ علَى ضَلَالَةٍ، وَأنَّهُمْ لَيْسُوا علَى شيءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأوْثَانَ، فَسَمِعْتُ برَجُلٍ بمَكَّةَ يُخْبِرُ أخْبَارًا، فَقَعَدْتُ علَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عليه، فَإِذَا رَسولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَآءُ عليه قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حتَّى دَخَلْتُ عليه بمَكَّةَ، فَقُلْتُ له: ما أنْتَ؟

قالَ: أنَا نَبِيٌّ!

فَقُلْتُ: وَما نَبِيٌّ؟

قالَ: أرْسَلَنِي اللَّهُ!

فَقُلتُ: وَبِأيِّ شَيءٍ أَرسَلَكَ؟

قالَ: أَرسَلَنِي بِصِلَةِ الأرحَامِ، وَكَسرِ الأوثَانِ، وَأنْ يُوَحّدَ اللّهُ لا يُشرَكُ به شَيءٌ.

قُلتُ له: فمَن معكَ علَى هذا؟

قالَ: حُرٌّ وَعَبدٌ!

قالَ: وَمعهُ يَومَئذٍ أبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمّنْ آمَنَ به.

فَقُلتُ: إنِّي مُتّبِعُكَ!

إذا ذُكر بلال بن رباح ذُكر معه الصّبر!

إنّه الصّبور، هذه هي صفته، وهذه هي السّمة الغالبة والمحرّكة لشخصيّته، الصّبر في بلالٍ صفةٌ وَسِمةٌ، وهذا شيءٌ والله عظيمٌ!

غير أن للصّبر مفهوماً أوسع من الصّبر على الأذى والبلاء، وإن كان هذا أشهر أنواع الصّبر لما ارتبط في أذهان النّاس من حاجته إلى جهد ومدافعة، ولما يُصاحبه من الألم!

غير أنّ للصّبر أنواع شتى، منها الصّبر على القضاء والقدر، فقد يريد العبد أمراً ويريد الله أمراً، والمؤمن الصّابر يصبر على قدر الله، ويرضى به، وإن خالف هواه!

والصّبر على الطاعة، وهذا لَعمري من أوسع أبواب الصّبر، ويكفي دليلاً عليها ما جاء في النّقل وما نعرفه بالتّجربة!

فأما في النّقل، فقد قال الله تعالى مخاطباً نبيّه الكريم: ﴿وَأمُر أهلَكَ بِالصّلاةِ وَاصطَبِر عَلَيها﴾!

وأمّا بالتّجربة، فما منّا من أحدٍ إلّا ويعرف أن الاستقامة على الطاعات تحتاجُ إلى صبرٍ ومجاهدةٍ!

والصّبر عن المعاصي، وهذا من أبواب الصّبر العظيمة، فقد يؤتى العبد صبراً على الطّاعات ويأخذ بحظّه منها، ولكنّه لا يصبر عن المعاصي ويخوض فيها!

ولا أعتقد أن أنواع الصّبر تخرج عن هذه، وكلُّ ما لم أذكره فداخلٌ في القضاء والقدر من فقد الأحبّة، والوظائف، والابتلاء بالظالمين، وأذيّة النّاس!

ولقد كان لبلال بن رباح باعاً طويلاً في كل أنواع الصبر!

إنّ قصّة تعذيب أميّة بن خلف لبلال بن رباح بعد إسلامه يعرفها الصغير قبل الكبير، وسمع بها العاميُّ قبل الفقيه، فلا تكاد تخفى على أحدا!

لقد أذاق أميّة بن خلف بلال بن رباح أصناف العذاب.

روى ابن سعد في الطّبقات عن مجاهد، قال: أوّلُ من أظهَرَ إسلامَه سَبعةٌ: رَسولُ اللهِ ﷺ، وأبو بكرٍ، وعَمّارٌ، وأمُّه سُمَيّةُ، وصُهَيبٌ، وبِلالٌ، والمِقدادُ؛ فأمّا رَسولُ اللهِ ﷺ فمنَعَه اللهُ بعَمّه أبي طالِبٍ، وأمّا أبو بكرٍ فمَنَعه اللهُ بقَومِه، وأمّا سائِرُهم فأخَذَهم المشرِكونَ فألبَسوهم أدراعَ الحديدِ وصَهَروهم في الشّمسِ، فما منهم إنسانٌ إلّا وقد واتاهم على ما أرادوا إلّا بلالٌ؛ فإنّه هانت عليه نَفْسُه في اللهِ، وهان على قَوْمِه، فأعطَوه الوِلْدانَ وأخَذوا يَطوفون به شِعابَ مكّةَ وهو يقولُ: أحَدٌ أحَدٌ.

وكَان أميّة يجيءُ بالصّخرة، ويضَعَها على صدر بلالٍ، ويقول له: قل كما أقول، يعني ذِكرَ هُبَل واللّات!

فيقول بلال: إنّ لساني لا يُحسِنُه!

ومَا زَال يُرَدِّد أحدٌ أحدٌ!

ثمّ فكّ الله تعالى أسر بلال بأبي بكر، إذ اشتراه وأعتقه!

إنّه سبيلُ الطّغاة على مرّ العصور، الاعتقال والتّعذيبُ والتّنكيل!

وإنّه صبرُ المؤمنين على مرّ العصور، لسان حالهم هو لسان حال سحرة فرعون حين آمنوا، وتوعّدهم بالتّعذيب والقتل: ﴿قالوا لَن نُؤثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ وَالّذي فَطَرَنا فَاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنّما تَقضي هذِهِ الحَياةَ الدُّنيا﴾!

أمّا عن صبر بلالٍ على العبادة، فحدّث ولا حرج!

روى الشّيخان، من حديث أبي هريرة، أنّ النّبيّ ﷺ قال لبلالٍ عند صلاة الفجر: يا بلال، حدّثني بأرجى عملٍ عملتَه في الإسلام، فإني سمعتُ دفّ نعليك بين يديّ في الجنّة!

فقال: ما عملتُ عملاً أرجى عندي أنّي لم أتطهّر طهوراً في ساعةِ ليلٍ أو نهارٍ، إلا صلّيت بذلك الطهور ما كُتِب لي أن أصلي.

ولك أن ترى هذا الصّبر على العبادة، إنّه لا يداوم على الفرائض فحسب، بل إنّه يُلزِم نفسه بالنّوافل، ما توضأ من ليلٍ أو نهارٍ، إلّا صلّى ما شاء الله له أن يصلّي!

وحين نتحدّث عن الصّبر على العبادة، فلا نستطيع أن نُغفِل الأذان!

بقي بلال يؤذِّن للنَّبيِّ ﷺ من اللّحظة الأولى التي هدى الله هذه الأمّة إلى الأذان وحتّى وفاة النّبيّ ﷺ.

بلال حاضرٌ في كلِّ الصّلوات، ضابطٌ للمواقيت، إنّه جهادٌ أعلى من جهاد الصّلاة نفسِها فالصلاة قد يصلِّيها المسلم في المسجد ولا يخرج من بيته إلّا بعد أن ينتهي المؤذن من أذانه، فيتوضأ ويأتي، أمّا المؤذِّن فليس حاضراً على الوقت، بل قبله، ولك أن تتخيّل لحظاتِ التّقرب والانتظار كم تحتاج إلى مجاهدة!

وكان بلال بن رباح من فقراء الصّحابة، فجمع بين الصّبر على الأذى، وعلى العبادة، وعلى الفقر، ومن باب أولى كان صابراً عن المعاصي!

وحديث بلال حين أراد الزّواج يُرِيك أمرين:

أولاً: فقره، وثانياً: تواضعه.

خرج بلال بن رباح مع أخيه إلى قومٍ من بني ليث، يخطب لنفسه ولأخيه، فقال: أنا بلال وهذا أخي، كنّا ضالّين فهدانا الله، وكنّا عبدين فأعتقنا الله، وكنا فقيرين، فأغنانا الله، فإن تُزوِّجونا فالحمد لله، وإن تَرُدُّونا فالمستعان الله!

فقالوا: نعم وكرامة، وزوجوّهما!

بالطبع إنّ مثل بلال لا يُردُّ وان لم يكن عملك شيئاً، ولكن بلالاً كان بالفعل لا يملك شيئاً، فلا هو صاحب عقارات، ولا له أب يرثه، ولا قبيلة تعطيه، ولا تجارة تدرُّ عليه مالاً، وشَغله الأذان عن الحِرَف أيضاً فلم يكن له من مالي الا ما كان عطاءً من بيتِ مال المسلمين كغيره

من المسلمين!

ولكن تأمّل تواضعه رضي الله عنه!

إنه لم يأت خاطباً قائلاً: أنا بلال مُؤذّن رسول الله ﷺ!

وإنّما قال: أنا بلالٌ وهذا أخي، كنّا ضالّين فهدانا الله، وكنّا عبدين فأعتقنا الله. إنّه لا يذكر مزاياه الشّخصيّة، بل يذكر فضل الله عليه!

وهذا صبرٌ آخرُ، إنّه الصّبر على الشُّهرة!

وكم من مفتونٍ بشهرته، يسير بين النّاس كأنّه السيّد والنّاس عبيد أبيه!

وروى ابن سعدٍ في الطّبقات:

لما احتُضِرَ بلال بن رباح قال: غداً نلقى الأحبّة، محمّداً وصحبه!

وكانت امرأته تقول: يا ويلاه!

فيقول لها: وافرحاه!

وتوفي في الشّام بدمشق، ودُفِن عند الباب الصّغير في مقبرة دمشق!

رحِم الله بلال بن رباح، ورضِي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أبو طلحة الأنصاريّ!

«لَصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل»!

بهذه الكلمات شهد النّبيّ ﷺ لأبي طلحة الأنصاريّ بشجاعته وبسالته في ميادين الجهاد!

أبو طلحة واحدٌ من رجالات الإسلام الذين قام على أكتافهم هذا الدّين، له مواقف مشهودة، وجهاد مبرور، وإنفاق مشكور!

كان مؤمناً صادقاً منذ لحظة دخوله الإسلام حتّى آخر لحظة له في هذه الدّنيا!

قصّة إسلامه واحدةٌ من أعاجيب القصص في تاريخ الإسلام!

يروي الشّيخان أنّ أبا طلحة جاء خاطبا أمّ سليم، فقالت له: يا أبا طلحة، ما مثلك يُردُّ، لكنّك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ لا يصلح لي أن أتزوّجك!

فقال لها: ما ذاك دهرك؟

فقالت: وما دهري؟

قال: الصّفراء والبيضاء! يعني بذلك الذّهب والفضّة!

فقالت له أمّ سليم: فإنّي لا أريد صفراءَ ولا بيضاءَ، أريد منك الإسلام، فإن تُسلم فذاك مهري، ولا اسألك غيره!

قال: فمن لي بذلك؟

قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ!

فما كان من أبي طلحة إلّا أن ذهب إلى النّبيّ ﷺ باحثاً عنه في المدينة، حتّى جاءه وهو جالسٌ بين أصحابه، فلمّا رآه النّبيّ ﷺ، قال: «جاءكم أبو طلحة غِرّة الإسلام بين عينيه!»

فأخبر أبو طلحة رسول الله ﷺ بما قالت أمُّ سُليم، فتزوّجها على ذلك!

يقول ثابت البنانيّ: ما بلغنا أنّ مهراً كان أعظم منه أنّها رضيت الإسلام مهراً، وهو أغلى وأعظم من الدّرهم والدّينار، والذّهب والفضّة، وما وُضعَ في غيرها من المهور!

كان أبو طلحة في الغزوات يرمي بين يدي النّبيّ ﷺ، كما حدث يوم أُحدٍ، إذ كان يرمي، والنّبيُّ ﷺ يتترّس به، فإذا ما رمى أبو طلحة، رفع النّبيُّ ﷺ رأسه ينظر أين وقع سهمه!

فيرفع أبو طلحة رأسه، ويقول للنبيّ ﷺ: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك!

ثمّ يُتنشدُ: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء!

وقد وصل الآن بنا المطاف: كما هي العادة في هذا الكتاب، إلى الحديث عن السّمة الغالبة والمحرّكة لشخصيّة الصّحابيّ، أو لتلك الصّفة التي غلبت على، وعُرِف بها!

والحقيقة أنّي وأنا أقرأ مواقف حياة أبي طلحة في مختلف المجالات، انتبهتُ أنّ أبا طلحة كان لمّاحاً جداً!

يدرك بيسرٍ وسرعةٍ ما يحتاج غيره إلى وقتٍ وتأملٍ ليدركه!

وهذه الصّفة هبة ربّانيّة يؤتيها الله تعالى من يشاء من عباده!

وهذا ما سنسلط عليه الضّوءَ في أكثر من موقف!

يُحدّثنا أنس بن مالك ابنُ أمّ سليم، أنّ أبا طلحة قال لأمّ سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا، فهل عندك شيء؟

فقالت: نعم، وأخرجت أقراصاً من شعيرٍ بالكاد تكفي ثلاثة رجال!

فأرسل أبو طلحة أنس بن مالك ليدعو النّبيّ ﷺ، فذهب أنس فوجده جالساً في المسجد ومعه النّاس، فلمّا رآه النّبيُّ ﷺ، قال له: أرسلك أبو طلحة؟

فقال أنس: نعم.

فقال له النّبيُّ ﷺ: ألِطعامٍ؟

فقال: نعم.

فقال النّبيُّ ﷺ للنّاس: قوموا!

ولمّا وصلوا إلى بيت أبي طلحة، قال أبو طلحة لأمّ سليم مستغرباً هذا المأزق الذي هو فيه، الطّعام قليل، والنّاس كُثر: يا أمّ سليم، قد جاء رسول ﷺ بالنّاس، وليس عندنا ما نطعمهم!

فقالت له: الله ورسوله أعلم.

فدخل النّبيُّ ﷺ وحده، وأخذ الخبز من أمّ سليم، وفتّه بيده الشّريفة. ثمّ صبّت عليه أمُّ سليم مرقاً من عندها، فلمّا خلطه، دعا فيه بالبركة، وطلب من أبي طلحة أن يُدخل عليه عشرة رجال، فدخلوا وأكلوا حتّى شبعوا! ثمّ خرجوا، ودخل عشرةٌ غيرهم، فأكلوا حتّى

شبعوا، وبقىَ على هذه الحال حتّى دخل سبعون رجلاً كانوا رفقة النّبيّ ﷺ، فأكلوا جميعاً وخرجوا، والطّعام على حاله.

أنظره لأبي طلحة كم كان لمّاحاً، عرف أنّ النّبيّ ﷺ جائع من صوته، فذهب إلى بيته مسرعاً يبحث له عن طعام!

هكذا هم النّبلاء، لمّاحون، ويعرفون حاجات النّاس من إشاراتٍ صغيرة، فيسارعون في قضائها، ويحفظون لهم كراماتهم، ويُغنونهم عن الطلب والسّؤال!

كن لمّاحاً، زيارةٌ إلى بيت صديقٍ، تكشف لك حاجةً لم يستطع أن يبوح بها، تغيّر عادة كان يفعلها فتوقّف عنها تُنبئك أنّه في ضيق، بعض النّاس يعزُّ عليهم أن يطلبوا، وإن طلبوا فكنايةً وتلميحاً، كالمرأة التي دخلت على الأمير، فقالت له: جئت أشكو إليك قلّة الفأر في بيتي!

فقال لها: ما أحسن كنايتك، ثمّ أعطاها ما يكفيها.

رحم الله اللمّاحين الذين يعرفون حاجات النّاس من وجوهم، وكلامهم!

وهنا إشارة:

كان الطعام قليلاً، ثمّ ببركة يد النّبيّ ﷺ حلّت به البركة، فصار كثيراً: والقليل الذي تحلُّ فيه البركة، خيرٌ من الكثير الذي تُنزع منه.

لا تنظر إلى قلّة راتبك، ولكن تحسّس البركة فيه!

عندما يمضي الشّهر وليس في بيتك مريض يحتاج دواءً فهي

البركة!

وعندما يمضي الشّهرُ ولا تستدين فهي البركة!

وعندما تجد أولادك حولك يتسابقون في برِّك فهي البركة!

وعندما تجد زوجتك تسعى في رضاك فهي البركة!

وعندما تجدين زوجك يحنو عليك فهي البركة!

كان عمر بن الخطاب يقول: إنّي لا أسأل الله الرِّزق، فقد فرغ من قسمته، ولكنّي أسأله البركة فيه!

روى الشّيخان من حديث أنس قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلاً بالمدينة، وكان أحبُّ أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النّبيُّ ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ طيّبٍ فيها.

فلمّا نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

قال أبو طلحة للنّبيّ ﷺ: يا رسول الله، إنَّ أحبَّ أموالي إليّ بيرُحاء، وإنّها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله!

فقال له النّبيُّ ﷺ: بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابح!

وقد سمعتُ ما قلتَ، وإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين.

فقال أبو طلحة أفعلُ يا رسول الله.

فقسمها أبو طلحة بين أقاربه وبني عمّه!

أرأيت إلى أيِّ حدٍّ كان أبو طلحة لمّاحاً!

إنّه يقرأ الآية من القرآن كأنّها أنزلت فيه وحده دون المسلمين!

يقرأ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

فيتبادر إلى ذهنه أحبّ أمواله إليه، فيُسارع ويجعل أرضه في سبيل الله!

روى الطّبرانيّ في المعجم الكبير، من حديث أنس بن مالك، قال:

قال أبو طلحة: دخلت على رسول الله ﷺ، فرأيت من بِشره وطلاقته ما لم أره على مثل تلك الحال.

فقلت: يا رسول الله، ما رأيتك على مثل هذه الحال أبداً!

فقال: وما يمنعي يا أبا طلحة، وقد خرج جبريل من عندي آنفاً، وأتاني ببشارةٍ من ربّي عزّ وجلّ: إنّ الله بعثني إليك مُبشّراً أنّه ليس أحدٌ من أمّتك يصلّي عليك صلاةً إلّا صلّى الله عزّ وجلّ وملائكته عليه عشراً!

مَرّةً أخرى نلاحظ كم كان أبو طلحة رضيَ الله عنه لمّاحاً.

لق لمحَ السّرور والابتهاج في وجه النّبيّ ﷺ، تماماً كما لمحَ من قبل الجوع في صوته!

روى ابن الأثير في كتابه أُسد الغابة في معرفة الصّحابة، من حديث أنس بن مالك، قال: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على قول الله عزّ وجلّ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾!

فقال: لا أرى ربّنا إلّا استنفرنا شبّاناً وشيوخاً!

يا بَنيّ، جهّزوني، جهّزوني!

فقالوا له: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتّى مات، ومع أبي بكرٍ حتّى مات، ومع عمر حتّى مات! فدعنا نغزو عنك!

فقال: لا، جهّزوني!

فغزا، وكانت الغزوة في البحر، فمات، ولم يجدوا له جزيرةً يدفنونه فيها إلّا بعد سبعة أيامٍ، فدفنوه فيها ولم يتغيّر!

رحم الله أبا طلحة، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# كعب بن مالك!

قال النبيُّ ﷺ لكعب بن مالك: أنتَ الذي قُلتَ:

زعَمتْ سخينةُ أن ستغلِبُ ربّها ولَيُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغَلّابِ!

فقال كعب: نعم يا رسول الله.

فقال له: أما إنّ اللهَ لم ينسَ ذلكَ لكَ!

وفي كواليس القصة أنّ ابن الزِّبعرَى هجا المسلمين وامتدحَ الأحزابَ في غزوة الخندق، فردّ عليه حسّان بن ثابت وكعب بن مالك.

فقال النبيُّ ﷺ عن هذا البيت من أبيات كعب: أما إنّ الله لم ينسَ ذلكَ لكَ!

وفي رواية أُخرى: شكرَ اللهُ قولكَ ومعنى البيت: أنّ سخينة وهو لقب لقريش، بارزتْ ربّها بالكفر والعناد، وحاربت الله ورسوله والمؤمنين، وسيُغلبُ حتماً من يُغالب الله ويُحاربه!

إنّ هذا الدين ثُغور شتى، فلينظر كل واحدٍ منا على أي ثغرٍ جعله الله مُستخلفاً وليحفظه جيداً، وليسده بلحمه ودمه، فهذا هو سبيله إلى الجنة!

كان كعب بن مالك موهوباً في الشّعر، فدافع عن هذا الدين بقوافيه، لأن المعركة كانت في الشعر، والسجال كان إعلامياً، شاعر قريش ابن الزبعرى يهجو المسلمين ودعوتهم، وكعبٌ يردُّ عليه، وقد قال بيتاً لقيَ عند جبار السماوات والأرض قبولاً!

بيت شعر واحدٍ حاز به كعب بن مالك رضى الملك الجبار!

فاعملْ ولا تستصغر، احمِ ثغركَ، ولا يُؤتينَّ الإسلام من قِبلكَ، ففي هذا بإذن الله منجاتك!

كعب بن مالكٍ نصرَ اللهَ تعالى بالكلمة والسّيف، وذادَ عن حياضِ هذا الدّين في كل معتركٍ، ولكن لأنّ لكلِّ جوادٍ كبوة، ولكلِّ حليمٍ نبوة، ويحدثُ أن يتعثّرَ العدّاءُ الماهر، تخلّف كعب بن مالكٍ عن غزوة تبوك، ودخلَ بسبب هذا في امتحانٍ سترى مشقّته، خرجَ منه ناجحاً مقبولاً، حقُّه توبة ربِّه، وتصاحبه ابتسامة نبيِّه ﷺ!

ووما سبقَ يُفهمَ أنّ الحديث عن كعب بن مالكٍ، هو حديث عن صفة، إنّه التّائب!

وقصّه تخلُّفه عن غزوة تبوك شيّقة على طولها، مليئة بالدروس والعِبر على الحزن الذي يتخللُ أرجاءها!

ولندعْ كعباً يروي لنا قصّته، فلا أحد أعلم بكواليسها منه!

يقولُ كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه:

لَمْ أتَخَلّفْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أنِّي كُنْتُ تَخَلّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أحدًا تَخَلّفَ عَنْهَا، إنّما خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حتّى جَمَعَ اللّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ!

وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنا عَلَى الْإسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أنّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإنْ كَانَتْ بَدْرٌ أذْكَرَ فِي النّاسِ مِنْهَا!

كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْى وَلَا أَيسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ! وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ! وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غزْوَةً إِلَّا وَرَايَّة بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غزَاهَا رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ!

وَالْمُسْلِمُون مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يجمْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ!

فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّب إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحيُ اللَّهِ!

وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَي أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيهِ!

فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُون مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيئًا!

فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَو يَوْمَينِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ!

فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا! فَلَمْ يزل بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلك!

فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيهِ النِّفَاقُ، أَو رَجُلًا مِمَّنْ عذرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ!

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ!

فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا.

فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ!

فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا، حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي!

فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ.

وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُم جَلَسَ لِلنَّاسِ فلما فعل ذَلَك، جاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ. وَبَايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ!

فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ!

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُم جَلَسَ

لِلنَّاسِ فمَلا فَع ذَلَك جاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ. وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَال لِي مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟

فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ!

فَقَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ!

فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ!

فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْل هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ بِمَا اعتذر إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي!

ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟

قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ!

فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟

قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ!

فَذَكرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شهِدَا بَدرًا فِيهِمَا أُسوَةٌ!

فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي!

وَنَهى رَسُولُ اللَّه ﷺ الْمُسلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا نحن الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ!

فَلَبِثْنا عَلَى ذَلِكَ خَمسِينَ لَيلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاستَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أُخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟!

ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحوَهُ أَعرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابنُ عَمِّي وَأَحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ!

فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟

فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ!

فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

فَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟

فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي، دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، ولم يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ!

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ!

فتيممتُ بِهَا التَّنُّور فَسَجَرْتُهُ بِها حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ!

فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أفعل؟

قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا!

وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ!

فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ!

فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يا رَسُولَ الله إِنَّ هلال بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟

قَالَ: لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ!

قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَان إِلَى يَوْمِهِ هَذَا!

فَقَال لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هلالٍ أَنْ تَخْدُمَهُ.

فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّه ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كملت لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً، مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ!

سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جبلٍ يُنادي بِأَعْلى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ!

فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاء فَرَجٌ!

وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ!

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يومئذٍ! وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ يقولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ!

حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ!

فَلَمّا سَلّمْت عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ سرور: أَبشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْك أُمّكَ!

قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يا رَسُولَ اللّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللّهِ؟

قَالَ: لَا بَلْ من عند اللّهِ!

وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إذَا سُرّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتّى كَأَنّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ!

فَلَمّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يا رَسُولَ اللّهِ إنّ مِنْ تمام تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إلَى اللّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللّهِ!

فقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: أَمْسِك عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ!

قُلْتُ: فَإِنّي أُمْسِك سَهْمِي الّذِي بِخَيْبَرَ!

فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللّهِ: إنّ اللّهَ إنّمَا نَجّانِي بِالصّدْقِ ، وَإِنّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدّثَ إلّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ فَوَاللّهِ ما أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَحْسَنَ مِمّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ إلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللّهُ فِيمَا بَقِيتُ!

وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إلَى قَوْلِهِ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِين!

فَوَاللّهِ مَا أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الّذِينَ كَذَبُوا!

قصّةٌ مليئةٌ بالعِبر، وتأخذُ بشغاف القلب، ومما يُستفاد منه في هذه القصّة:

1.الجهاد فريضة كالصلاة والصّيام والحجّ والزّكاة، وما كان النّبيُّ ﷺ ليغضب هذا الغضب على الذين تخلّفوا لو أنهم تركوا نافلةً! وما كان غضب رسول الله ﷺ إلا من بعد غضب الله، فهو الذي غضبَ، وهو الذي تابَ ورضيَ! وما أصاب هذه الأمة من مهانةٍ في زمنٍ إلا بتركها هذه الفريضة المباركة، وصدق عليٌّ بن أبي طالبٍ حين قال: ما تركَ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ذلُّوا!

2.لا تُسوِّف! لا تقُل: غداً أفعل، وبعد غدٍ أفعل!

ما أصابَ كعب بن مالكٍ ما أصابه إلا أنه كان قادراً فبدأ يُسوِّف!

دُقّ الحديد حامياً، وانجزْ أمركَ حين يكون مطلوباً منك، فلا أحد يدري ما تُخبىء له الأيام، والعاقل من يغتنم الصّحة والفراغ لينجز ما قد يمنعه عنه بعد ذلك المرض والانشغال!

3.لا تكُنْ مباشراً دوماً، ولا تكُنْ كتاباً مفتوحاً يقرأه الجميع، أترك لنفسكَ شيئاً لا يعلمه النّاسُ عنك! وقد أخبركَ كعب بن مالكٍ أنّ النّبيّ ﷺ كان يُورّي في الغزوات، أي أنّه يوهم القوم بأنه يريدُ قوماً وهو يريدُ غيرهم، فإذا مشى يسيراً إلى من لا يريدُ، غيّرَ بعد ذلك سيره النهائي إلى من يريد!

4.يُبتلى الإنسان بما يُحبُّ! ما كانت الغزوة صيفاً حين طابت الظلال، ونضجت الثمار، إلا امتحاناً! فإياك أن تحسب أن البلاء لا يأتيك إلا بما تكره، أكثر البلاء سيأتيك بما تُحب!

5.تعيشَ من قعدَ حين قامَ هذا الدِّين! تأمّلْ حال كعب بن مالكٍ حين كان يخرج من بيته فلا يرى إلا القاعدين ممن لهم العذر، أو المنافقين الذين ليس له أعذار! موجعٌ جداً أن تكون بين فئتين أنت لا تنتمي إلى أيٍّ منهما!

6.من وضعَ نفسه موضع الشُّبهة لاكته الألسن! وقد وضع كعبٌ رضي الله عنه نفسه بتخلّفه عن الجيش موضع الشُّبهة، فقال الرّجلُ فيه ما قال حين سأل النّبيُّ ﷺ عنه!

7.ذُبَّ عن عرض أخيك، ولا تسمح للألسن أن تناله في غيبته!

8.الصّدق منجاة! وإنَّ أول ما سيمليه عليكَ الشيطان من المخارج هو أن تكذب، فلا تطعه، فإنَّ الكذب مهما طال الزمن سينكشف، والصّدقُ قد يجرُّ عليك غضب ساعة، ولكن كن على يقين أنه سيتلوه رضى عُمرٍ كامل!

9.العتب يظهرُ في الوجوه وإن لم تقله الألسن! عرف كعب بن مالكٍ غضب النّبيِّ ﷺ من وجهه!

10.إن كان لكَ عذرٌ فهاته، وإن لم يكن فلا تخترع عذراً، لا تجمع على نفسك إثمين، إثم الخطأ، وإثم الكذب!

11.لا تستمع إلى صوت الباطل، حين أبتليَ كعب بن مالك بمقاطعة المسلمين له، جاءه صوت الباطل من الملك يطلب منه أن يأتيه ليواسيه! وقت الخصام كنْ على حذرٍ من الذين يصطادون في الماء العكر!

12.إخفاء الاهتمام القديم عقاب! أكثر من كان يؤذي كعب بن مالكٍ

هو أنَّ النّبيّ ﷺ لم يعد يُظهر له ذلك الحفاء الذي كان يبديه له حين كان راضياً عنه تمام الرّضى! فإذا غضبتَ فلا تفحش، الإعراض عقوبة قاسية، جرِّبها إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً!

13.العقيدة فوق القرابة! وجفاء أبي قتادة لكعب بن مالكٍ على حبِّه له، وقرابته منه، لم يكن إلا بأمر الله ورسوله! فحاول دوماً أن تُقدِّمَ أمر الله على هواك!

14.ستأتيكَ الفتن لتصرفكَ عن التوبة، فلا تلتفت، فإنَّ الله سيضع في طريقك ما يُؤكد حُسن توبتك أو ينفيها، فإياك أن ترسب!

15.إذا اقترفتَ الخطأ، فكُنْ شجاعاً في تقّل العقاب! لاحظْ أنَّ كعبَ بن مالكٍ رفضَ أن يُراجع النّبيّ ﷺ في شأن امرأته!

16.للتوبة علامات، بعضها في القلب، وبعضها لا بُدّ أن يظهر على الجوارح! ما زال هلال بن أُمية يبكي حتى لك يعد فيه طاقة للإقبال على امرأته!

17.لا أنساها لطلحة! مواقف الجبر في لحظات الإنكسار لا تُنسى! فكُن المهرول للمكسورين، فلن ينسوها لكَ!

18.التوبة ولادة ثانية! أبشرْ بخير يومٍ مرَّ عليك مذ ولدتكَ أمُّكَ! احصلْ دوماً على ولادةٍ جديدة، كُن توّاباً!

19.المشاعرُ تظهرُ على الوجوه، قارن حديث كعب بن مالك عن وجه رسول الله ﷺ حين كان غاضباً عليه، وحين رضيَ عنه!

20.إذا تُبتَ إلى الله، فقدِّمْ صدقةً بين يدي توبتكَ! أما رأيتَ أن كعب بن مالكٍ أراد أن ينخلع من ماله كله قرباناً بقبول الله توبته!

رحمَ اللهُ كعب بن مالكٍ، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# معاذ بن جبل!

«أعلمُ أمّتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل»!

بهذه الكلمات قلّدَ النّبيّ ﷺ معاذ بن جبل أرفع وسام في الفقه!

إنّه أعلمُ هذه الأمّة بالحلال والحرام!

لم يسبقه أحدٌ في هذا الباب ممن سبقوه إلى الإسلام، ولم يسبقه أحدٌ من الصّحابة الذين عاصروه، ومن باب أولى فلن يدركه أحدٌ حتّى يوم القيامة!

نصّبه النّبيّ ﷺ إماماً لهذه الأمّة في هذا المضمار!

كان جوّاداً كريماً، يُسابق الرّيح عطاءً، ويفوق المطر خيراً!

أخذ عمر بن الخطاب أربعمئة دينارٍ فجعلها في صُرّةٍ، وقال للغلام: اذهبْ بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثمّ امكث عنده ساعة تنظر ما يصنع!

فذهب الغلام، وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اِجعل هذه في بعض حاجتك.

فقال أبو عبيدة: وصلَ اللهُ أمير المؤمنين ورحمه.

ثمّ قال: تعالي يا جاريّة، اذهبي بهذه السّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان!

حتّى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل!

فقال: اذهبْ بها إلى معاذ بن جبل، ثمّ امكث عنده ساعةً تنظر ما يصنع!

فذهب إليه، وقال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اِجعل هذه في بعض حاجتك.

فقال معاذ: رحم الله أمير المؤمنين ووصله.

ثمّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا!

فاطّلَعَت امرأته، فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا!

ولم يبق في الخرقة إلّا ديناران، فأعطاهما لها!

فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره بذلك.

فقال عمر: إنّهم إخوة بعضهم من بعض!

إنّ جود الغنيّ مشكور، ولكن جود الفقير أكثر شكراً!

فإنّ الغنيّ يعطي القليل من الكثير، والفقير يعطي القليل من القليل، وقد يكون قد بلغ مرتبةً لا يمكن تصوّرها كتلك التي بلغها معاذ بن جبل، إذ يعطي الكثير كله، وهو لا يملك القليل!

كان عادلاً إلى حدٍّ لا يمكن تصوره!

عن يحيى بن سعيدٍ قال: كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان، فإذا كان يوم إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء!

ثمّ توفيت زوجتاه في يومٍ واحدٍ في الطاعون الذي أصاب الشّام،

فدفنهما في قبرٍ واحد، وخشي إن قدّم إحداهما على الأخرى أن يكون قد ميّز وما عدل، فأسهم بينهما بالقرعة، فالتي خرج اسمها قدّمها!

فهم عجيب للتعدد، وعدل أكثر عجباً!

لك أن تتخيّل أنّه لم يكن يشرب الماء في بيت واحدةٍ من زوجاته إذا كان يوم الأخرى، يعتبرُ أن كلّه للتي هو يومها!

وللأسف إنّ ما نشهده اليوم، من بُغض النّاس للتّعدُد، يرجع بعضه إلى الأفكار الغربيّة، والمسلسلات، وسموم النّسويات! ويرجع بعضه أيضاً أنّ بعض المعدّدين كانوا نماذج سيئة، فمالوا كلّ الميل إلى واحدة، حتّى صرنا نرى أنّه من النّادر أن يفتح أحدهم بيتاً جديداً دون أن يخرب الأول!

أمّا إذا أردنا أن نتحدّث عن السّمة الغالبة والمحرّكة لشخصيّة معاذ بن جبل، أو للصّفة التي عُرِف بها، فالحديث عن معاذ بن جبل حديث صفة.

إنّه إمام العلماء!

صفة لا يختلف فيها اثنان أنّها ثابتة لمعاذ بن جبل، كيف لا، والنّبيُّ ﷺ يقول: أعلم أمّتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل!

وروى أبو نُعيم في الحِلية، أنّ النّبيّ ﷺ قال: معاذ أمام العلماء يوم القيامة برتوةٍ أو رتوتين!

والرّتوة هي المسافة التي يقطعها السّهم إذا رُميَ!

وعليه يكون معنى الحديث، أنّ معاذ بن جبل يُحشر يوم القيامة إماماً للعلماء!

يكون أمامهم بمسافة، ثمّ يكونون بعده!

يا لهذا المجد يا معاذ بن جبل، يا لهذا المجد!

جاء في صفة الصّفوة لابن الجوزيّ، عن أبي مسلم الخولاني، قال: أتيت مسجد دمشق، فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب النّبيّ ﷺ، وإذا شاب منهم أكحل العين، برّاق الثّنايا، كلّما اختلفوا في شيءٍ ردُّوه إلى الفتى.

فقلت لجليسي: من هذا؟

فقال: معاذ بن جبل!

إنّ الذين يرجعون إلى معاذ بن جبل إذا اختلفوا في حكمٍ من أحكام هذا الدّين ليسوا عوام المسلمين، وإنّما هم أصحاب النّبيّ ﷺ!

سبقوه إسلاماً، وكانوا أكبر منه عمراً، ولكنّه كان مرجعهم!

هذه كانت منزلة معاذ بن جبل بين الصّحابة!

وكان معاذ بن جبلٍ من مفتي الصّحابة المعدودين، بل كان ممن يُفتي في حياة النّبيّ ﷺ، فقد جاء في كتاب أُسد الغابة في معرفة الصّحابة لابن الأثير: كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ من المهاجرين، عمر، وعثمان، وعلي، ومن الأنصار، أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت!

وفي كتاب صفة الصّفوة لابن الجوزيّ، عن أبي بحريّة قال: دخلت

مسجد حمص، فإذا أنا بفتى حوله النّاس، إذا تكلم كأنّما يخرج من فمه النّور واللؤلؤ!

فقلت: من هذا؟

فقالوا: معاذ بن جبل!

وفي سنن أبي داود، أنّ رسول الله ﷺ لمّا أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن، قال: كيف تقضي إذا عَرِضَ لك قضاء؟

فقال معاذ: أقضي بكتاب الله.

فقال له النّبيّ ﷺ: فإن لم تجد في كتاب الله؟

فقال: أقضي بسنّة رسول الله ﷺ!

فقال له النّبيّ ﷺ: فإن لم يكن فيما قضى به رسول الله؟

فقال: أجتهدُ رأيي ولا آلو!

فضرب النّبيّ ﷺ صدر معاذٍ بيده، وقال: الحمد للهِ الذي وفّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله!

إنّ الذي قاله معاذ بن جبل للنّبيّ ﷺ ارتجالاً، هو الذي صار فيما يُعرف لاحقاً، حين دوّن الفقهاء القواعد، مصادر التّشريع في الإسلام!

كان معاذ سابق النّاس علماً وفهماً!

على أنّ علم معاذ بن جبل لم ينحصر في مسائل الفقه، إنّ العلم والفهم كانا جزءاً أصيلاً في شخصيّته؟

لمّا بعثَ النّبيُّ ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، خرج معه يودّعه

ويوصيه، ومعاذٌ راكبٌ ورسول الله ﷺ تحت راحلته، فلمّا فرغ، قال له: يا معاذ عسى ألّا تلقاني بعد عامي هذا، لعلّك أن تمرّ بقبري ومسجدي! فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ!

وكانت تلك اللّحظة آخر مرّةٍ رأى فيها معاذ بن جبل رسول الله ﷺ، ولكن أنظر إلى ذكائه وفطنته، فهم من كلام النّبيّ ﷺ أنّه كلام مودِّعٍ!

ولعلّك تسأل نفسك: لِمَ يختصّ النّبيّ ﷺ معاذاً بهذه الإشارة!

والجواب أنّ النّبيّ ﷺ كان يُحبّ معاذاً حبّاً شديداً، هذا الحُبّ لم يكن يظهر في معاملة النّبيّ ﷺ له، وإنّما كان يقوله له أيضاً!

روى الإمام أحمد، والنّسائيّ، وأبو داود، من حديث معاذ بن جبل، قال: أخذ رسول الله ﷺ يوماً بيدي، فقال لي: يا معاذ، والله إنّي لأحبّك، فلا تدعنّ دُبر كلّ صلاةٍ أن تقول: اللّهمّ أعنّي على ذِكرك، وشكرك، وحسن عبادتك!

هذا الحبّ من النّبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل، جعله يختصّه بأشياء لم يكن يخبر بها أحداً غيره!

روى الشيخان، من حديث معاذ بن جبل قال: بينما أنا رديف النّبيّ ﷺ، ليس بيني وبينه إلّا آخرة الرّمل، فقال: يا معاذ بن جبل.

قلت: لبّيكَ رسول الله وسعديك!

ثمّ سار ساعة، ثمّ قال: يا معاذ بن جبل.

قلت: لبّيك رسولَ اللهِ وسعديك!

ثمّ سار ساعة، ثمّ قال: يا معاذ بن جبل.

قلت: لبّيكَ رسولَ اللهِ وسعديكَ!

فقال: هل تدري ماحقُّ الله على عباده؟

قَلث: اللهُ ورسوله أعلم!

قال: حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً.

ثمّ سار ساعة، ثمّ قال: يا معاذ بن جبل.

قلت: لبّيك رسول الله وسعديك.

فقال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوه؟

قلث: الله ورسوله أعلم؟

فقال: حقُّ العباد على الله ألا يعذّبهم!

فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشّرُ النّاس؟

فقال: لا تُبشّرهم فيتّكلوا!

وأخبر معاذ بالحديث عند موته تأثماً من أن يكون قد كتم علماً!

وإنّك لترى أنّ معاذاً لم يكن لديه العلم فقط، وإنّما كان لديه أمانته وأخلاقه أيضاً!

وكانت الحكمة تتناثر من بين كلامه كما تتناثر الجواهر بين يدي الصّائغ!

في كتاب صفة الصّفوة لابن الجوزيّ، عن عبد الله بن مسلمة، قال

رجلٌ لمعاذ: علمني!

فقال له معاذ: فهل أنت مطيعي؟

قال: إنّي على طاعتك لحريص!

قال له معاذ: صُمْ وأفطِرْ، وصلِّ ونمْ، واكتسِبْ ولا تأثمْ، ولا تموتنَّ إلّا وأنت مسلم، وإيّاك ودعوة المظلوم!

لخصَّ معاذ بن جبل الدُّنيا والآخرة في بضع كلمات، وهبه ربُّه شيئاً من جوامع الكلم الذي وهبه لنبيِّه كلَّه؟

وروى الإمام أحمد، عن معاوية بن قُرّة، قال: قال معاذ بن جبل لابنه: يا بنيّ، إذا صلّيت فصلِّ صلاة مودّع لا تظنُّ أنّك تعود إليها أبداً، وأعلم يا بُنيّ أنّ المؤمن يموت بين حسنتين، حسنةٌ قدّمها، وحسنةٌ أخّرها، وإنّك تجالس قوما لا محالة يخوضون في الحديث، فإذا رأيتهم غفلوا فارغبْ إلى ربّك عند ذلك رغباتٍ؟

وعن محمّد بن سيرين، قال: أتى رجلٌ إلى معاذ بن جبل ومعه أصحابه يُسَلِّمون عليه ويودّعونه، فقال له: إنّي موصيكَ بأمرين إن حفظتهما حُفظت، إنّه لا غنى بك من نصيبك من الدُّنيا، وإنّك إلى نصيبك من الآخرة أفقر! فآثر من الآخرة على نصيبك من الدُّنيا حتّى ينتظمه لكَ انتظاماً فتزول به معك أينما زلتَ!

وعن رجاء بن حيوة قال: قال معاذ بن جبل: أبتُلِيتُم بفتنة الضّرّاء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السّرّاء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النّساء إذا تسوّرنَ الذّهب، ولبسنَ رباط الشّام وعصب اليمن، فأتعبنَ الغنيّ، وكلّفنَ الفقير ما لا يجدا!

وفي الطّبقات لابن سعدٍ:

لمّا أصيب أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس، استخلف على النّاس معاذ بن جبل، واشتدّ الوجع، فقال النّاس لمعاذ: ادعُ اللهَ أن يرفعَ عنّا هذا الرِّجزا!

فقال: إنّه ليس برجزٍ، ولكنّه دعوة نبيّكم، وموت الصّالحين قبلكم، وشهادةٌ يختصُّ الله بها من يشاء من عباده منكم!

أيُّها النّاس: أربع خلالٍ من استطاع منكم ألا يدركه شيءٌ منها فلا يدركه شيءٌ منها!

قالوا: وما هُنّ؟

فقال: يأتي زمان يظهر فيه الباطل، ويصبح الرّجل على دينٍ ويمسي على آخر!

ويقول الرّجلُ: والله لا أدري علامَ أنا!

لا يعيش على بصيرةٍ ولا يموت على بصيرة!

ويُعطى الرّجل من المال، مال الله على أن يتكلّم بكلام الزُّور الذي يُسخط الله!

اللّهمّ آتِ آل معاذ نصيبهم الأوفى من هذه الرّحمة!

فأُصيب ابناه بالطّاعون، فقال: كيف تجدانكما؟

قالا: يا أبانا «الحقُّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين!»

قال: وأنا ستجداني إن شاء الله من الصّابرين!

ثمّ أُصيبت زوجتاه، فماتتا، وأُصيب هو في إبهامه، فجعل يمسُّها بفمه، ويقول: اللّهمّ إنّها صغيرة فبارك فيها فإنّك تبارك بالصّغيرة، فمات رضي الله عنه بالطّاعون!

رحم الله معاذ بن جبل، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# سعد بن عُبادة!

اللهمّ اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة!

بهذه الكلمات دعا النّبيّ ﷺ لسعد بن غبادة!

كان أثيراً على قلبِ النبي ﷺ، يُدنيه منه، وينزله منزله فهو سيِّد الخزرج الذين بايعوا، ونصروا، وصدقوا!

كان كاتباً وهذا نادرٌ في العرب، ثريّاً، يُحسن العوم والرّمي، لهذا كان يُلقّب بالكامل!

أسلم باكراً، وكان من أوائل الأنصار إسلاماً، شهِد بيعة العقبة مع السّبعين من الأنصار، وكان أحد النّقباء الاثني عشرا

بالنسبة إلى سيِّد قومه، وفردٌ من أفراد بيت زعامةٍ وسُؤدد، ليس مستغرباً أن يكون سعد بن عُبادة صاحب «كاريزما » وحضورا هكذا كانت شخصيّته، رجل مواقِف من الدّرجة الأولى، شخصيّته قوية، وحُضوره أخّاذ، لا يُحابي على حساب قناعاته، حتّى في مواقفه الحياتيّة اليوميّة تشعر أنّك في حضرة زعيمٍ!

روى الأوزاعيّ، عن يحيى بن كثير، أنّ سعد بن عبادة كان يدعو، فيقول: اللهمّ ارزقني مالاً، فلا تصلح الفِعال إلّا بالمال!

لاحِظ كيف تتفجّر شخصيّة الزّعيم من ثنايا دعائه!

إنه لا يدعو بالمال ليكنزه، ولا ليشتري به البيوت والبساتين، وإنّما لينفق إنفاق الزُّعماء والسّادة، فيدفع دِيَة، ويقيم صلحاً أو يسدّ ديناً، ويجبُر خاطراً، ويكون حاضراً في حياة النّاس!

يدعو بالمال لا لأجل المال، وإنّما لأنّه يعرف أن من أراد أن يكون جمّالاً فعليه أن يوسّع باب داره!

وهكذا كانت داره، دار سيادةٍ تُقصد، وحوائج تُقضى!

كان جواداً كريماً، وقد جعل للنّبيّ ﷺ كلّ يومٍ صحفةً مليئةً لحماً! وكان النّبيّ ﷺ إذا خطبَ زوجةً من زوجاته في المدينة، ودفع صداقها، يزيدها أعطيّة فيقول لها: صحفة سعد بن عبادة تدور معي إذا دُرث إليكِ!

روى الإمام أحمد في المُسند، من حديث ابن عبّاس قال: لمّا نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾!

قال سعد بن عبادة وكان سيّد الأنصار: أهكذا نزلت يا رسول الله؟

فقال النّبيّ ﷺ: ألا تسمعون إلى ما يقول سيّدكم؟!

فقالوا: لا تلُمهُ يا رسول الله، فإنّه رجلٌ غيور، والله ما تزوّج امرأةً قطُّ إلّا بِكراً، ولا طلّق امرأةً قطُّ، واجترأ أحدٌ أن يتزوجها!

فقال سعد: والله يا رسول الله إنّي لأعلم أنّها حقٌّ وأنّها من الله، ولكنّي قد تعجّبتُ أنّي لو وجدتُ لكاعاً قد تفخّذها رجلٌ، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه حتّى آتي بأربعة شهداء، فو الله لا آتي بهم حتى يقضيَ حاجته! كلّا والذي بعثك بالحقّ، إنْ كنت لأعالجه بالسّيف!

فقال النبي ﷺ: أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ منّي، ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن،

ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذرُ من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشِّرين والمنذرين، ولا أحد أحبُّ إليه المِدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنّة!

أنظر إلى هذه الشخصيّة القويّة، وهذا الحضور اللّافت، إنّه يراجع النّبيّ ﷺ في آيةٍ نزلت، ويخبره أنّه يعلم أنّها من عند الله، وأنّها حقٌّ، ولكنّها لا تنسجم مع تركيبته النفسيّة، إنّه سليلُ بيتِ حُكمٍ وسلطانٍ، وهذه البيوت تغفرُ كلّ شيء إلّا ما يتعلّق بالأعراض، وتُشيخ النّظر عفواً إلّا في شأن نسائها.

وبالطّبع سعدٌ ليس أغير من النّبيّ ﷺ، وليس أغيَر من الله تعالى على الحرمات، ولكنّها آيةٌ كانت في التّدرُّجِ في التشريع، وهذا شأن القرآن في أكثر من قضيّة، ثمّ نزل بعد ذلك في هذه الآيةِ آيةٌ أخرى، كان سبب نزولها قصّة هلال بن أميّة مع زوجته، وهذا ليس سياقها ومن أرادَ أن يطّلع عليها فإنّ فيها عبرة!

ولكنّ الشاهد في الحديث في هذه الشخصيّة التي كان يتمتّع بها سعد بن عبادة، فالصّحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يراجعون النّبيّ ﷺ في حُكمٍ من أحكام الله، وسعد بن عبادة لم يكن على غير ما كانوا عليه، كان يسمع ويطيع، ولكن لمّا تعارض الحُكم مع تركيبته النّفسيّة، مع هذه الكاريزما الحاضرة كالهالة في شخصيّته، لم يُنكر بقلبه، بل يناقش، ويعلّل، ويبدي رأيه!

فإذا كانت شخصيّة سعدٍ القويّة لم تنحبس مع النّبيّ ﷺ فلا شكّ أنّها كانت مع غيره أقوى حضوراً، وقناعاته ورأيه لا يغيّرهما إن هو لم يقتنع، وسبحان من جعل لكلّ فئةٍ من النّاس صفاتٍ يمتازون

بها، فنجدُ بيوت الحُكم تختلف عن غيرها، وبيوت المال تختلف عن غيرها، إنَّه شيءٌ يتعلّق بالطّباع، ونهج الحياة، وليست من باب المفاضلة بين النّاس، فإنّ كلّ هذا أمام التّقوى عرَضٌ زائلٌ!

ولمّا تُوفّيَ النّبيُّ ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدةٍ يريدون أن يبايعوا سعد بن عبادة خليفةً على المسلمين، وكان يومها قد اشتكى من مرضٍ، فاستلقى، وجلس القوم!

فجاء أبو بكرٍ وعمر بن الخطّاب إليهم لمّا علموا باجتماعهم، ودار بينهم الحوار الشّهير، الذي أعقبه كلام أبي بكرٍ الذي وضع فيه النّقاط على الحروف.

فقال قائلٌ: منّا أميرٌ ومنكم أميرا!

فقال عمر بن الخطّاب: هذا أوّل الوهن!

فتوجّه أبو بكرٍ بالكلام إلى سعد بن عبادة، وقال له: لقد علمتَ يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريشٌ وُلاةُ هذا الأمر، فَبَرُّ النّاسِ تبعٌ لِبَرِّهم، وفاجِرُهم تبعٌ لفاجِرِهم!

فقال له سعد: صدقت، نحنُ الوزراء وأنتم الأمراء!

فبايع سعدٌ أبا بكرٍ، ثمّ بايع عمر بن الخطّاب بعد وفاة أبي بكرٍ!

والرّواية التي تقول أنّ سعد بن عبادة لم يبايع أبا بكرٍ، ولم يبايع عمر بن الخطّاب بعده، روايةٌ باطلةٌ لا تصِحُّ، وإنّما تحقّقَ إجماع بيعةِ المسلمين جميعاً لأبي بكرٍ، ولم يتخلّف منهم أحدٌ، وبايعه عليٌّ بن أبي طالبٍ بعد ذلك، إذ لم يكن في السّقيفة لاشتغاله بجهاز النّبيّ ﷺ للدّفن، وأساساً ما جاء أبو بكرٍ إلى السّقيفة إلّا بعد أن علِم بانعقادها!

والشّاهد في القصّة أمران:

الأوّل: شخصيّة الزّعامة والقوّة التي كان يتمتّع بها سعد بن عبادة، والتي لأجلها تطلّعت عيون الأنصار إليه يريدون أن يبايعوه بالخلافة بعد النّبيّ ﷺ!

الثّاني: هذه الشّخصيّة القويّة، وهذا الحضور البارز، لم يكن على حساب الحقّ، فعلى الرّغم من أنّ الأنصار أرادوا بيعته بالخلافة ولم يطلبها هو لنفسه، إلّا أنّه وبمجرّد أن ذكّره أبو بكرٍ أنّ هذا لا يحلُّ له، وأنّ النّبيّ ﷺ قال بحضرته ما يُثبت ذلك، سارع إلى الإذعان إلى الحقّ، وجمع الله تعالى به كلمة المسلمين!

ولك أن تتخيّل أنّ هذه الشّخصيّة القياديّة لو لَم تكن مُنقادة بالتّقوى، ومخافة الله ما الذي كان سيحدث؟!

تخيّل لو أنّ سعد بن عبادة أصرّ أن يكون الخليفة نزولاً عند رغبة الأنصار، ما الذي كان سيحدث بين المهاجرين والأنصار يومها، بل ما الذي كان سيحدث للإسلام كلّه؟

الحقُّ يُقال أنّ رضوخ سعد بن عبادة إلى الحقّ، ونزوله عنده، كان سبباً في بقاء الإسلام قوّةً واحدةً موحّدةً!

رحِم الله سعد بن عبادة، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# أُسيد بن حُضير!

نِعمَ الرَّجلُ أُسيد بن حُضير!

بهذه الكلمات أدخلَ النَّبيّ ﷺ أسيد بن حُضير التَّاريخ من أشرف أبوابه، فإنَّ «نِعمَ» من النَّبيّ ﷺ توازي تزكية البشريَّة كلِّها!

كان سليل مجدٍ وعزٍّ، وابن بيتِ سلطانٍ وحُكمٍ، أبوه حُضير بن سماك زعيم الأوس ورئيسهم يوم بُعاث، ومن هذا البيت خرج أُسيد، وفي هذا العزِّ عاش، وهذه الزَّعامة وَرِثَ!

إنَّه رجلُ المواقف، هذه هي صفته برأيي؟

تجد في كل موقفٍ مرَّ عليه لمسته الخاصَّة، شيءٌ من دهاءٍ وعقلٍ، وشيءٌ من لباقةٍ وظُرف، وشيءٌ من إيمان وثبات، وشيءٌ من خفَّةِ الدَّم وحلاوة الرُّوح!

من لحظة إسلامه الأولى كان له موقفٌ ولمسةٌ، وحتَّى فارق الدُّنيا بقيت له لمسته ونكهته على المواقف!

وما كنتُ أحبُّ أن أعيد قصَّة إسلامه إذ وردت عرضاً حين تحدَّثنا عن مصعب من عمير، وسعد بن معاذ، فالثَّلاثة تربطهم قصَّة لا يمكن المرور عليها، ولكنَّها بالنِّسبة إلى أُسيد بن حُضير هي قصَّة موقف أكثر منها قصَّة إسلام! ولأنَّ شخصيَّته هي شخصيَّة رجل المواقف فكان لزاما أن نسردها ونقف عند الموقف الذي فيها!

روى ابن إسحاق في السِّيرة: أنَّ أُسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بن عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل به حائطاً [أي:

بستاناً] من حوائط بني ظفر، على بئرٍ يقال لها بئرُ مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجالٌ ممّن أسلم.

وسعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير يومئذٍ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركٌ على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير:

لا أبا لك! انطلِق إلى هذين الرّجلين اللّذين قد أتيا دارينا ليُسَفِّها ضُعفاءَنا، فازجُرْهُما وانْهَهُما عن أن يأتيا ديارنا، فإنّه لولا أنّ أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمتَ كفيتُك ذلك.

فأخذ أُسيد بن حضير حربته، ثمّ أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعد ابن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيِّد قومه، قد جاءك فاصدُقِ الله فيه. قال مصعب: إنْ يَجلِس أكلِّمْهُ!

فوقف أُسيدٌ عليهما مُتشتِّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهَان ضُعفاءنا؟ عتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فقال له مصعب: أَوَتَجلِسُ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟

قال: أنصفت.

ثمّ ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ.

ثمّ قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدّين؟

قالا له: تَغْتَسِلُ، فَتَطَّهَّرَ، وَتُطَهِّرُ ثَوْبَكَ، ثُمَّ تُصَلِّي.

فقام فاغتسل، وطهّر ثوبه، وتشهّد شهادة الحقّ، ثمّ قام فقال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحدٌ من قومه! وسأرسله إليكما الآن: سعدُ بن معاذ.

ثمّ أخذ حربته، وانصرف إلى سعدٍ وقومِه - وهم جلوس في ناديهم - فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلمّا وقف على النّادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرّجلين، فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيثهما فقالا: نفعل ما أحببث.

وقد حُدّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنّهم عرفوا أنّه ابن خالتك ليحقروك!

فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثمّ قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً.

ثمّ خرج إليهما سعدٌ فلمّا رآهما مطمئنّين، عرف أن أُسيداً إنّما أراد أن يسمع منهما.

في هذا الموقف يظهر دهاء أُسيد بن حُضير:

فهو لو عاد إلى سعد بن معاذ، وقال له: لقد أسلمث!

لثار عليه سعد بن معاذ، ولجرى بينهما قيل وقال، وليس هذا الذي كان يخشاه أُسيد بن حُضير، وإنّما كان يرمي إلى شيءٍ أكبر وأعظم؟

كان يريد من سعد بن معاذ أن يجلس بين يدي مصعب بن عمير ويسمع منه! ولو طلب منه مباشرة هذا، فإنّ سعداً لا شكّ لن يقبل، فهو بالأساس أرسله ليطرد مصعب بن عميرٍ وأسعد بن زرارة، ولولا أنّ أسعد ابن خالته، لكان تكفّل هو بطرد مصعب، فلم تكن تنقصّه الجرأة!

ولكنّه علِمَ مكانة أسعد بن زرارة عند سعد بن معاذ، وقرابته له، وحبّه إياه، وقبل كلّ هذا شهامة سعدٍ وثوريّتِه، لهذا أخبره أنّ قوماً يريدون بابن خالته سوءاً، فانطلى الأمر على سعد بن معاذ، وجاء وجلس إلى مصعب، وكان هذا سبباً في إسلامه!

يمكن القول إذن، إنّ أُسيد بن حُضير نصبَ لسعد بن معاذ فخّاً، ولكنّه فخٌّ من فخاخ الهداية، فكان سُعد بن معاذ نعم الصّيد!

في غزوة بني المصطلّق، تحركت أحقاد زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فقال لمن حوله من أهل المدينة: لقد أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمسّكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير دياركم، أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلّ!

وكان قاتله الله يعني بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول الله ﷺ!

وسمع زيد بن الأرقم هذه الكلمات، فرأى أنّه لزاماً عليه أن يخبر النّبيّ ﷺ، ليعلمَ ما يُقال خلف ظهره، وما يُحاك له!

وتألّم النّبيُّ ﷺ من كلام عبد الله بن أُبيّ بن سلول.

فلقيَ النّبيُّ ﷺ أُسيد بن خضير، فقال له: أما بلغك ما قال

صاحبكم؟

فقال له أُسيد: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟

فقال النّبيّ ﷺ: عبد الله بن أبيّ!

فقال له أُسيد: وماذا قال؟

فقال له النّبيّ ﷺ: زعم أنّه إن رجعَ إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ!

فقال له أُسيد: فأنت والله، يا رسول الله، تخرجه منها إن شاء الله، هو والله الذّليل، وأنتَ العزيز!

يا رسول الله، ارفق به، فو الله لقد جاءنا اللهُ بكَ، وإنّ قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه على المدينة مَلِكاً، فهو يرى أنّ الإسلام قد سلبه مُلكاً!

رجل مواقف من الطّراز الرّفيع، ولاءٌ وبراء، فهمٌ وحكمة!

ما شكا النّبيّ ﷺ عبد الله بن أبيّ إلى أُسيد بن حضير، إلّا لأنّه يعلمُ مكانة أُسيد ومنزلته في المدينة المنوّرة. وهذه نقطة لا يجب إغفالها أبداً!

واستمع أُسيد إلى النّبيّ ﷺ باهتمام، ولمّا لمسَ أنّ كلام عبد الله بن أُبيّ قد جرحه، عَمِدَ إلى ما يعمدُ إليه الحكماء في الجراح، إنّهم يُنظّفون الجرح قبل خياطته، فقال للنبيّ ﷺ كلاماً بلسم قلبه، فيه ولاءٌ وبراءٌ: هو والله الذّليل وأنت العزيز!

فلمّا طابت نفس رسول الله ﷺ بكلام أُسيد، انتقلَ إلى معالجة

الموقف، بفهمٍ عميقٍ للأسباب، وتحليل دقيق للنفسيات، فأخبر النبيّ ﷺ أنّه عبد الله بن أبيّ حاقد لأنّه رأى في الإسلام هذا الذّين الذي سلبه ملكه، فعداؤه للإسلام ليس عداوة لفكرة، وإنّما عداوة لمصلحة، وأنّ الأمر ليس له بعد عقديّ، وإنّما بعدٌ شخصيّ!

بهذا التفكير الهادئ، العميق والمتّزن كان أُسيد دائماً يُعالج القضايا، ببديهة حاضرةٍ، وفهم ثاقب!

توّج أُسيد بن حُضير هذا الفهم العميق، وهذه الشّخصيّة الفذّة، خفّة دمٍ، وحلاوة روحٍ، فقد كان يكثر من ممازحة الصّحابة وإضحاكهم، فبينما هو ذات يوم عند النّبيّ ﷺ يُحدّث النّاس ويُضحكهم، إذ طعنه النّبيُّ ﷺ بعودٍ في خاصرته، يمازحه أيضاً!

فقال له أُسيد: لقد أوجعتني يا رسول الله، أصبرني: أي اجعلني أقتصّ منك، فأطعنك كما طعنتني!

فوقف النّبيُّ ﷺ، وقال له: اصطبر!

فقال أُسيد: يا رسول الله، إنّ عليك قميصاً، وليس عليّ قميص!

فرفع النّبيُّ ﷺ قميصه، فانكبّ عليه أُسيد، فاحتضنه، وقبّل بطنه، وقال له: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، والله ما أردتُ إلا هذا!

أرأيت كيف يُحوّل موقفاً عادياً إلى موقفٍ يبقى خالدًا في التّاريخ؟!

أرأيتَ هذا الذّكاء المُتقّد؟!

أرأيت حلاوة الرّوح؟!

هكذا هو المؤمن يألَفُ ويُؤلَفُ، يُحِبُ ويُحَبُ، ولا خير في كلِّ غليظٍ متجهم!

جاء أُسيد بن حُضير إلى النَّبيِّ ﷺ، وقد كان قسمَ طعاماً، فذكَرَ له أهل بيت من الأنصار من بني ظفرٍ فيهم حاجة، وجُلُّ أهل ذلك البيت نسوة! فقال له النَّبيُّ ﷺ، تَركتنا يا أُسيد حتى ذهب ما في أيدينا؟! فإذا سمعت بشيءٍ قد جاءنا فاذكرْ لي أهل ذلك البيت.

فجاءه بعد ذلك طعامٌ من خيبر، فقسّم النَّبيُّ ﷺ في النّاس، وقسّمَ في الأنصار فأجزلَ، وقسّم في أهل ذلك البيت وأجزل.

فقال أُسيدُ متشكراً: جزاك الله يا نبيِّ اللهِ أطيبَ الجزاء.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: فأنتم معشر الأنصار، جزاكم الله أطيب الجزاء، فإنَّكم ما علمت أعفَّةٌ صُبرٌ، وسترون بعدي أثرة في الأمر والقسم، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض؟

هذا موقف من مواقف النُّبل، فإنَّ النَّبيل هو الذي يطلبُ لغيره؟ ويسعى في حاجة غيره؟

أول ما سمع أُسيد بن حُضير أنَّ عند النَّبيِّ ﷺ طعاماً يقسمه، عاجل وجاءه، يذكر له أهل بيت مساكين!

الإنسان الذي يطلب لنفسه يشعر بذلّةٍ ولو طلب قشّةً!

والإنسان الذي يطلبُ لغيره يشعر بعزّةٍ ولو طلب جبلاً من ذهب!

روى الشيخان، من حديث أُسيد بن حُضير، بينما هو يقرأ من اللَّيل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكتَ

فسكتتْ، فقرأ، فجالت الفرس، فسكتَ وسكتت الفرس!

فقرأ، فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلمّا أبعده، رفع رأسه إلى السّماء حتّى ما يراها.

فلمّا أصبح، حدّثَ النّبيّ ﷺ، فقال له: اقرأ يا ابن حُضير، اقرأ يا ابن حُضير!

فقال: فأشفقتُ يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان قريباً منها، فرفعتُ رأسي، فانصرفتُ إليه، فرفعت رأسي إلى السّماء، فإذا فيها مثل الظُّلة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتّى لا أراها!

فقال له النّبيّ ﷺ: وتدري ما ذاكَ؟

فقال: لا.

فقال له: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظرُ النّاسُ إليها، لا تتوارى منهم!

تأملها معي يا صاحبي: تلك الملائكة دنتْ لصوتك!

يا للمجد يا أُسيد بن حُضير، يا للمجد!

إيمانٌ، وفهمٌ، وظرفٌ، ولُطفٌ، وعقيدةٌ، وحكمةٌ!

رحم الله أُسيد بن حُضير، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أبو الدّرداء!

«إنّ الله وعدني بأبي الدّرداء أن يُسلم»!

بهذه الكلمات بشّرَ النّبيّ ﷺ أصحابه بإسلام أبي الدّرداء وهو قادمٌ إليه، ليشهد له بالرّسالة ولربّه بالوحدانيّة!

كان أبو الدّرداء من آخر الأنصار إسلاماً، وكان يعبُدُ صنماً، فدخل عبد الله بن رواحة ومحمّد بن مسلمة بيته وكسرا صنمه!

فرجع أبو الدّرداء، فجعلَ يجمعُ الصّنمَ ويقول: ويحكَ، هلّا امتنعت، ألّا دفعت عن نفسك!

فقالت أمُّ الدّرداء: لو كان ينفعُ أو يدفعُ عن أحدٍ، دفع نفسه ونفعها!

فقال لها أبو الدّرداء: أعدّي لي ماءً في المغتسل.

فاغتسلَ، ولبس حلّته، ثمّ ذهب إلى النّبيّ ﷺ، فنظر إليه عبد الله بن رواحة مقبلاً، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدّرداء، وما أراه إلّا جاء في طلبنا!

فقال له النّبيّ ﷺ: إنّما جاء ليُسلم، إنّ ربي وعدني بأبي الدّرداء أن يُسلم!

كان أثيراً على قلب النّبيّ ﷺ، يحبّه ويُدنيه منه، ويُشيدُ به أمام النّاس!

يوم أحدٍ، قال النّبيّ ﷺ: نِعمَ الفارس عويمر!

وهذا اسم أبي الدّرداء، عويمر بن زيد بن قيس.

وقال عنه النّبيّ ﷺ: هو حكيم أمّتي!

هناك صفتان بارزتان في شخصيّة أبي الدّرداء، هما: الزُّهد وحلاوة المعشر!

فلا نكاد نجد حدثاً من الأحداث، أو خبراً من الأخبار، التي نقلها إلينا الرُّواة وأهل السِّير عن أبي الدّرداء، إلّا كانت لا تخرج عن إحدى هاتين الصِّفتين، إمّا الزُّهد، وإمّا حلاوة المعشر!

دخل عمر بن الخطاب على أبي الدّرداء، فدفع الباب فإذا ليس فيه غلق، وإذا البيت مظلم، فجعل يتلمّسه حتّى وقع عليه، فجسّ وسادةً فإذا هي بردعة توضع على ظهر الحمار: وجسّ دثاره فإذا هو كساءٌ رقيق، فقال له: ألم أوسّع عليك؟! ألم أُعطك؟!

فقال له أبو الدّرداء: اتذكرُ حديثاً حدّثنا إياه رسول الله ﷺ؟

فقال له عمر: أيُّ حديث؟!

فقال: ليكنَ بلاغ أحدكم من الدُّنيا كزاد الرّاكب!

فقال عمر: نعم.

فقال له أبو الدّرداء: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟!

فما زالا يتجاوبان بالبكاء حتّى أصبحا!

إنّ الذي استغرب من زهد أبي الدّرداء، ورآه زهداً قاسياً، لي أحد أثرياء النّاس الذين أدرجوا أنفسهم في النّعيم: إنّه عمر بن الخطاب، الزّاهد الذي كان في ثوبه ثمانية عشر رقعة وهو أمير المؤمنين!

إنّه عمر الذي وُضِعَ له زيتٌ وخلٌّ في إناءٍ واحد، فقال غاضباً:

إدامان في إناءٍ واحدٍ والله لا أذوقه!

لهذا عندما يستغرب زاهد من زاهد، فاعلم أنّ الزُّهد قد بلغ مداه!

وروى البخاريُّ في صحيحه، من حديث أبي جُحيفة، قال: آخى النّبيُّ ﷺ بين سلمان وأبي الدّرداء، فزار سلمانُ أبا الدّرداء، فرأى أمَّ الدّرداء مُتبذِّلة؟

أي أنّها كانت في هيئةٍ رثّة!

فقال لها: ما شأنك؟

فقالت: أخوك أبو الدّرداء ليس له حاجة في الدُّنيا.

فجاء أبو الدّرداء، فصنعَ له طعاماً، وقال له: كلْ.

فقال أبو الدّرداء: إنّي صائم.

فقال له سلمان: ما أنا بآكل حتّى تأكل.

فأكل أبو الدّرداء.

فلمّا كان اللّيل، ذهبَ أبو الدّرداء يقوم/يصلّي. فقال له سلمان: نمْ!

فقام، ثمّ ذهب يقوم، فقال له سلمان: نمْ!

فلمّا كان من آخر الليل، قال له سلمان: الآن قم.

فصلّيا، ثمّ قال له سلمان: إنّ لربّك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقّه!

فأتى أبو الدّرداء النّبيّ ﷺ، وذكر ذلك له، فقال له النّبيُّ ﷺ: صدق سلمان!

الحياء من الإيمان، وأجمل مستحضرات تجميل المرأة هو الحياء!

وما أجمل أمّ الدّرداء إذ تستخدم الكناية، فلم تقُل: هو معرضٌ عنّي لهذا أنا رثّة الثّياب والمظهر؟

وإنّما قالت: ليس له حاجة في الدّنيا!

الموازنة أمرٌ مطلوب، وهذا ما كان ينقص زهد أبي الدّرداء أول الأمر، فضبطه له سلمان، وأيّدَه النّبيّ ﷺ، فصار من ذلك الوقت زهد أبي الدّرداء زهداً عادلاً!

فإذا كان الانغماس في العبادة حدّ إهمال الزّوجة قد كرهه الإسلام، فمن باب أولى أن يكره كل انغماسٍ في الدّنيا قد يؤدي إلى هذا الأمر!

ومن القبيح المُشاهد بين النّاس، انقطاع التّاجر إلى تجارته حتّى أنّه يحملها معه إلى سريره! وانغماس منا له هواية فيها حتّى تشغله عن الدّنيا كلّها! وكذلك تجد الصُّحبة قد اعتادوا أن يسهروا كلّ ليلةٍ في مقهى أو استراحة حتّى ساعةٍ متأخرةٍ من اللّيل!

طبعاً من حقّ الإنسان أن يكون له صحبة، وأن يخرجوا من وقت لآخر، ولكن الذي ليس من حقّه أبداً أن يجعل زوجته هي وأثاث البيت واحداً!

وعلى أيّة حالٍ لن نفهم أبا الدّرداء لأننا لسنا مثله، ثمّة قلوبٌ ليس فيها متسعٌ لشيء آخر غير الله!

ولأبي الدّرداء موقف عجيب يوم فتح قُبرص!

عن جُبير بن نفير، قال: لمّا ُفتحث قُبرص، رأيت أبا الدّرداء جالساً وحده يبكي، فقلت له: يا أبا الدّرداء، ما يُبكيك في يومٍ أعزّ اللهُ فيه الإسلام وأهله!

فقال لي: ويحك يا جُبير، بينما كانوا أمّة غالبة، صاروا إلى ما ترى، ما أهون الخلقَ على الله عزّ وجلّ إذا تركوا أمره!

كان زاهداً في كلّ شيءٍ، قلبه معلّق بالآخرة، حتّى النّصرَ كان زاهداً فيه، النّاس فرحون بالفتح، وحُقّ لهم طبعاً، وهو يبكي، ويعتبر، ولن تفهم كيف ينظر أبو الدّرداء إلى الأمور إلّا إذا كان قلبه في صدرك!

أمّا حلاوة معشره، ورقّة تصرّفاته، فقد كانت هي الصّفة الثّانية البارزة في شخصيّته رضي الله عنه.

عن أبي قلابة، أنّ أبا الدّرداء مرّ على رجلٍ قد أصاب ذنباً، وكانوا يسبّونه، فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في بئرٍ، ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلى فقال: لا تسبّوا أخاكم، واحمدوا الله عزّ وجلّ الذي عافاكم!

فقالوا: أفلا تبغضه؟!

فقال: إنّما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي!

يا للرّحمة والرّقة يا أبا الدّرداء!

درس بليغٌ إلى كلّ من عافاه اللهُ تعالى من الذّنوب، فإذا به ينظر في معاصي العباد كأنّه قد عصَم نفسه بقوّته، ثمّ ما منّا أحدٌ معصومٌ،

وكلُّنا مذنبون، ولكن الفرق بين مذنبٍ وآخر، أنَّ أحدهما ستره الله تعالى، والآخر قد كَشفَ ستره عنه!

وفي كتاب الزُّهد للإمام أحمد بن حنبل، تقول أمُّ الدّرداء، نظرتُ إلى أبي الدرداء، وهو ينفخُ النّار حتّى قِدرنا هذه، وعيناه تفيض بالدُّموع!

أرأيت حلاوة معشره، وحسن صحبته، ورفقته بأهل بيته!

يرى أنَّ من النُّبل أن يحمل المهام الشّاقة عن زوجته، وها هي تريد أن تطبخ، فكره أن يجمع عليها عملين، الطّبخ وإيقاد النّار، فأوقد النّار، ووضع القدر فوقها، وجعل ينفخ في النّار، والدُّخان يصيبه، فتدمع عيناه!

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق، كان لأبي الدّرداء جملٌ يُقال له «دَمُّون»، وكان لا يحملُ عليه ما لا يطيق، وإذا استعاره منه أحد، يوصيه ويقول: لا تحمل عليه كذا وكذا، فإنّه لا يطيق!

فلمّا حضرت أبا الدّرداء الوفاة، قال: يا دَمُّون، لا تخاصمني غداً عند ربي، فإنّي لم أكن أحمل عليكَ ما لا تطيق!

إلى هذا الحدّ بلغ به حُسنُ معشره، وحلاوة روحه!

إلى الحدّ الذي يرفق بجمله، ولا يحمّله ما لا يطيق، وإذا أعاره، يوصي من استعاره أن يرفق به، ويخبره بما يطيق وما لا يطيق!

فإذا كانت هذه رحمة أبي الدّرداء بجمله، فتُراه كيف كانت رحمته بأهله؟!

رحم الله أبا الدّرداء، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# الزُّبير بن العوّام!

إنّه الزُّبير بن العوّام، جامع المجد من طرفيه، الرّحِم والصُّحبة!

فأمّا الرّحِمُ فهو ابن صفيّة بنت عبد المطّلب عمّة النّبيّ ﷺ!

لمّا استشهِدَ حمزة يوم أُحُدٍ جاءت صفيّة لتنظرَ إلى أخيها وقد مثّل به المشركون، فقال النّبيّ ﷺ للزُّبير: اِلقَها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها!

فقال لها: يا أماه، إنّ رسول الله ﷺ يأمركِ أن ترجعي!

فقالت: ولِمَ، وقد بلغني ما مُثِّل بأخي، وذلك في سبيل الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله!

فأتى الزُّبيرُ النّبيّ ﷺ وأخبره بقولها، فقال له النّبيُّ ﷺ: خلِّ سبيلها!

فأتتْ صفيّةُ حمزةَ، فنظرتْ إليه، وصلّت عليه، واستغفرتْ له!

وأمّا الصُّحبة فهو أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وهو أوّل من سلّ سيفه في سبيل الله! ذلك أنّه قد كان قائلاً وقت الظهيرة، فسمع من يهمسُ أنّ قريشاً قد قتلت النّبيّ ﷺ، فخرج من البيت مجرّداً سيفه يريدُ أن يثأر له!

فلقِيَه النّبيُّ ﷺ في الطّريق وقال له: ما شأنك يا زبير؟

فقال: سمعتُ أنّك قُتِلتَ!

فقال له النّبيُّ ﷺ: فما كنتَ صانعاً؟!

فقال: أقتل بك من لقيتُ من أهل مكّة!

فدعا له النّبيّ ﷺ بخير!

كان فارساً مقداماً لا يُشقُّ له غبار، هاجر إلى الحبشة، وشهِد الغزوات كلّها مع النّبيّ ﷺ، وشارك في قتال المرتدّين زمن أبي بكرٍ، وفي اليرموك وفتح مصر زمن عمر بن الخطّاب!

قلّدهُ النّبيُّ ﷺ وساماً رفيعاً لم يحُزهُ في هذه الأمّة غيره!

لمّا كان يوم الخندق، وحاصر الأحزاب المدينة، قال النّبيّ ﷺ: من يأتينا بخبر بني قريظة؟

فقال الزّبير: أنا!

فأعادها النّبيُّ ﷺ: من يأتينا بخبر بني قريظة؟

فقال الزّبير: أنا!

فأعادها النّبيُّ ﷺ مرّةً ثالثة، فقال الزّبير: أنا!

فقال النّبيُّ ﷺ: لكلّ نبيٍّ حواريٌّ، وحواريّ الزّبير!

لهذا سمع عبد الله بن عمر رجلاً يقول: أنا ابن الحواريّ!

فقال له: إن كنت من ولد الزّبير فنعم، وإن لم تكن فلا، حواريُّ رسول الله ﷺ هو الزّبير!

ولأنّه ليس من أغراض الكتاب تقديم سردٍ تاريخيّ، ولا سيرة عاديّة، إلّا بحدود ما لا يُستغنى عنه لوضع الكلام على سِكّته، وإنّما الغرض هو البحث في شخصيّة الصّحابيّ عن سمةٍ محرّكةٍ لشخصيّته، وغالبةٍ عليه، نسلّط الضوء عليها، ونحقق العنوان الفرعيّ للكتاب، الصّحابة كما لم تعرفهم من قبل!

امتاز الزُّبير بغيرةٍ شديدةٍ على عِرضه ونسائه، فقد كان من أغير النَّاس!

روى البخاريُّ من حديث أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: تزوَّجني الزُّبير، وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ غيرِ ناضحٍ وغيرِ فرسِهِ، فكنتُ أعلِفُ فرسَه وأستقي الماء، وأخْرِزُ غَربَه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار، وَكُنَّ نسوةَ صدقٍ، وكنتُ أنقل النَّوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثُلثَي فَرْسَخٍ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثمَّ قال: «إخْ إخْ» ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبيرَ وغيرتَه وكان أغيرَ الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيَنِي رسول الله ﷺ، وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخَ لأركَبَ، فاستحيَيتُ منه وعرفتُ غيرتَكَ!

فقال: والله لَحَملُكِ النَّوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه!

قالت: حتَّى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادمٍ فكفتني سياسةَ الفرس، فكأنَّما أعتقني!

الغيرة على العِرض من مكارم الأخلاق، والعربُ أمَّة غيورة بطبعها، رجالها ونساؤها غيورون، والغيرة في النِّساء فضيلة، وفي الرِّجال هي أمُّ الفضائل، فماذا يبقى من الرِّجل إن ذهبت غيرته!

وبما أنَّ الغيرة طبعٌ، والطِّباع في النَّاس قسمةٌ وأرزاق، فقد كان

الزُّبير أكثر غيرةً مما عليه النَّاسُ عادةً!

وإنّ البيوت إنّما تستمرُّ بفهم الطبائع ومداراتها، لا بمجابهتها، فإنّ الطبع غلّاب، وما جُبِل عليه المرء لا يستطيع فكاكاً منه!

وانْظُر إلى فطنة أسماء وحُسْنِ مراعاتها لخُلُق زوجها وطبعه!

لم تركب مع النّبيّ ﷺ وهو أطهر النّاس، لهذا فإنّ ما بين الزّوجين يجب أن يُراعى بغض النّظر عمّن هو الشّخص الذي بينهما!

كان بإمكان أسماء أن تركب، ولو غضبَ الزُّبير، فحجّتها معها، من ذا يستطيع أن يُشكّكَ بطهر النّبيّ ﷺ ونقائه، ولكنها لم تركب، وهكذا هي العاقلة من النّساء لا تُشعِلُ ناراً ثمّ تجلس تحاول احتواءها، وإنّما تئد الحريق في مهده، فلا أحد يستطيع أن يتكهّن إلى أين سيمتد اللّهب!

في كتاب الإصابة في تمييز الصّحابة لابن حجر أنّ الزُّبير بن العوّام تزوّج عاتكة بنت زيدٍ، وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها قبل أن يتزوّجها، فشقّ عليه ذلك، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله!

فكَمَنَ لها لمّا خرجت إلى صلاة العشاء، فلمّا مرّت به، وضع يده على بعض جسدها، ثمّ توارى واختفى!

فنظرت عاتكة حولها فلم تجد أحداً، فقالت: ما لكَ قطع الله يدك؟!

ثمّ رجعت إلى بيتها، وقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد!

وكان الزُّبير يقول لها: ألا تخرجين إلى المسجد يا عاتكة؟

فتقول: كنّا نخرج إذا النّاس ناس، وما بهم من باس، أمّا الآن فلا؟

غيرةٌ شديدةٌ قلّ نظيرها في النّاس، إنّه يغارُ حتّى أن تمشيَ زوجته في الطّريق إلى المسجد!

نحن لا نتحدّث عن الغيرة من الخلطة في العمل، أو في اجتماع العائلات، أو الأسواق، فهذا يشترك فيها كلُّ الرّجال من أصحاب الفِطَرِ السّويّة، وإنّما نتحدّثُ عن غيرةٍ بلغت مبلغاً عظيماً لم يكن يستطيع هو دفعها في نفسه أو التقليل منها، رغم إيمانه أنّه ما في الأمر بأس، ولا حرجٌ شرعيٌّ، وحاشا هذا الدّين أن يشرع ما فيه بأس، لهذا لم يطلب الزُّبير من عاتكة عدم الذّهاب إلى المسجد، لأنّ في هذا معارضة لأمر النّبيّ ﷺ، فعمَدَ إلى الحِيلة ليوفّقَ بين طبعه هذا الذي لا يجد له دفعاً، وبين هذا النّص النّبويّ الذي لا يجدُ له رفضاً!

وقد آتَت الحِيلة أُكلها، وبلغ فيها ما تشتهي نفسه، ويطيب خاطره، فقد كفّت عاتكة من تلقاء نفسها عن الذّهاب إلى المسجد لأنّها رأت أنّ الطّريقَ غير مأمونة، وأنّ طباعَ النّاس ما عادت كما كانت من قبل، ويا للنّساء حين يكُنّ نساءً فعلاً فيغرنَ هنّ على أعراضهنّ قبل أن يغار عليها أزواجُهُنّ!

عاتكة تعيش في المدينة، والمدينة موطنُ الصّحابة، وأصل العفّة والإيمان، ولكنّ موقفاً واحداً جعلها تترك الذّهاب إلى المسجد، وهكذا هي العاقلة من النّساء تترك الحلال، بل المندوب، إذا كان في هذا الحلال والمندوب لوثةٌ في عِرضها ولا تلقي بنفسها في مواطن الاختلاط والشبهات ثمّ تأتي تشتكي ما قد يحصل لها، الإنسان إن

كان يضمن نفسه فإنّه لا يضمن النّاس، وفي الشّرع الحنيف بابٌ عظيمٌ اسمه سدُّ الذّرائع، إنّها الوقاية، لأنّها أسهل من العلاج، فحبّذا لو فهمناه وطبّقناه!

وللرّجال أقول: إيّاكم أن تتخلّوا عن غيرتكم ولو أُتُّهِمتُم بالتّخلُّف والرّجعيّة، فنحن نعيش في زمنٍ يحاول أن يسلبَ من الإنسان فطرته قبل دينه، ودينه قبل إنسانيّته! كونوا رجالاً حقاً، فالمرأةُ يُعجبُها الرّجُل الحقُّ فعلاً، وتزدري بطبعها ذلك الدّيُّوث الذي لا يغار عليها، ولكن بعقلٍ يرحمكم الله، فأحياناً يكون المضمون صحيحاً ولكنّ الأسلوب خاطئ، والكلام صواباً ولكنّ مفرداته جارحة، نحن نريد تقوم بيوتنا لا كسرها، كلُّ النُّصح الذي يُقدَّمُ بلُطفٍ يسلبُ القلب، ويقعُ في النّفس، وكلُّ النُّصح الذي يُقدَّم على طبقٍ من الغلطة يكرهُه النّاس ولو كان صواباً!

عليكم بالغيرة التي تُتَوِّجها الحكمة، والرُّجولة التي يُزيِّنُها الأدب!

# عبد الله بن مسعود!

عبد الله بن مسعود درسٌ بليغٌ مفاده: إنّما الرِّجال بقلوبهم لا بأجسادهم!

صعد عبد الله بن مسعود شجرةً من الأراك يجتني منها سِواكاً، وكان دقيق السّاقين، فجعلت الرِّيحُ تكفؤه، فضحك الصّحابة منه!

فقال لهم النّبيُّ ﷺ: ممَّ تضحكون؟

فقالوا: من دقّة ساقيه!

فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد!

وعن زيد بن وهب قال: إنّي لجالسٌ مع عمر بن الخطّاب، إذ جاء عبد الله بن مسعود، فكاد الجلوس يوارونه عن قصر قامته، فضحك عمر حين رآه، وجعل يكلّمه، ويتهلّل بوجهه له، ويضاحكه، فلمّا مضى ابن سعود، أتبعه عمر ببصره حتّى توارى، ثمّ قال:

كنيفٌ مُلِئَ عِلماً!

أسلمَ في مكّة باكراً، وخالط الإيمان قلبه مُذ كان يافعاً، وسبب إسلامه كانت كرامة من كرامات النّبيِّ ﷺ رآها بعينيه، فشرح الله صدره للإسلام!

يقول ابن مسعود محدّثاً عن سبب إسلامه: كنتُ غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقبة بن أبي مُعَيطٍ في مكّة، فأتى رسول الله ﷺ فقالا: يا غلام، عندكَ لبنٌ تسقينا؟

فقلت: إني مؤتمن ولستُ بساقيكما!

فقال النّبيُّ ﷺ: هل عندك شاةٌ لم ينزُ عليها الفحل بعد؟

فقلت: نعم! وأتيتُه بها!

فأخذ النّبيُّ ﷺ ضِرع الشّاة ودعا، فامتلأ الضّرعُ لبناً!

فأتاه أبو بكرٍ بصخرةٍ منقعرةٍ، فحلب فيها، ثمّ شرب هو وأبو بكر، ثمّ سقاني، ثمّ قال للضرع: أقلُص! فقلصَ ورجع كما كان!

فلمّا كان بعد ذلك، أتيتُ رسول الله ﷺ، وقلتُ: علِّمنِي من هذا القول الطيِّب!

فمسحَ على رأسي، وقال: إنّكَ غُلامٌ مُعلَّم!

كان لصيقاً بالنّبيّ ﷺ، مُلازماً له، فقد روى البخاريُّ من حديث أبي موسى الأشعريّ أنّه قال: قدِمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً، وما نحسبُ ابن مسعودٍ وأمّه إلّا من أهل بيت النّبيّ ﷺ لكثرةِ دخولهم وخروجهم عليه!

وبما أنّ غرض الكتاب الرّئيس هو تتبع السِمة الغالبة والمحرِّكة لشخصيّة كلّ صحابيٍّ من الصّحابة الذين نتناولهم بالدّرس والتّحليل، فإنّه في مقابل السّمة الغالبة والمحرّكة للشّخصيّة هناك أيضاً صفةٌ غالبة، والفرق بينهما أنّ السّمة راجعةٌ إلى الطّبع والتّركيبة النّفسيّة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، أمّا الصّفة فهي اشتغال وانهماكٌ بمجال ما، ويصحُّ كذلك أن تكون أعطيةٌ ربّانيّةٌ وكرامةٌ لعبده، وبهذا المفهوم يمكن وصف عبد الله بن مسعودٍ بأنّه صديقُ القرآن!

إذا تتبّعنا حياة عبد الله بن مسعود نجدُ أنّ حياته كلّها تدور مع رحى القرآن، فهو الحافظ له، العامل به، المُحلُّ حلاله، والمحرّم حرامه، وإنّ أغلب القصص والأحداث في كتب السِّيَر والتّراجم التي ترتبط بحياة ابن مسعودٍ لها علاقةٌ بشكلٍ أو بآخر بالقرآن الكريم!

كيف لا وعبد الله بن مسعود هو القائل عن نفسه: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورةٌ من كتاب اللهِ إلّا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آيةٌ من كتاب الله إلّا أنا أعلم فيمَ أُنزلت. ولو أعلمُ أحداً أعلمُ منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه!

وعن قيس بن مروان أنّه أتى عمر بن الخطّاب، فقال له: جئتُ من الكُوفة يا أمير المؤمنين، وتركتُ بها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلبٍ!

فغضب عمر، وقال له: ومن هو ويحك؟

فقال: هو عبد الله بن مسعود يا أمير المؤمنين؟

فجعلَ غضب عمر ينطفئُ حتّى عاد إلى حاله، ثمّ قال له: ما أعلمُ أنّ أحداً بقِيَ من النّاس هو أحقُّ بذلك من ابن مسعود!

وسأحدّثك: كان رسول اللهِ ﷺ يسمرُ عند أبي بكرٍ في أمرٍ من أمور المسلمين وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه، فإذا رجلٌ قائم يُصلّي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يسمع قراءته، فلمّا كدنا أن نعرفه، قال رسول الله ﷺ: من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبدٍ! فعرفنا أنّه عبد الله بن مسعود!

ثمّ جلس يدعو، فجعل رسول الله ﷺ يقول: سَلْ تُعْطَ!

فقلتُ: واللهِ لأغدُوَنّ إليه صباحاً فلأبشرنّه!

فغدوتُ، فوجدتُ أبا بكرٍ قد سبقني!

يا لهذا المشهد، ويا لهذه الشّهادة!

فأمّا المشهد فمهيبٌ، النّاس في بيوتهم قد أخذوا مضاجعهم وابن مسعودٍ في المسجد قائم يصلّي ويقرأ القرآن ويدعو، كان يجدُ في القرآن صحبة، وفي ظلمة المسجد كانت الآيات له نوراً!

وأمّا الشّهادة، فمن سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبدٍ! هذه تزكيةٌ لقراءة عبد الله بن مسعود ما بعدها تزكيةٌ، إنّه يقرأ بالحرف الذي نزل به جبريل من ربّ العزّة!

وتتوالى الأحداث والرّوايات، ويتوالى معها صِلَة صدِيق القرآن عبد الله بن مسعود، فهو أوّل من جهر بالقرآن الكريم عند الكعبة في مكّة حين كان المسلمون في ضعفٍ وتسلُّطِ قريشٍ عليهم!

اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ يوماً في مكّة، وقالوا: والله ما سمعت قريشٌ هذا القرآن يُجهَر لها به قطُّ، فمن رجلٌ يُسمِعُهم؟

فقال عبد الله بن مسعود: أنا!

فقالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريدُ رجلاً له عشيرة تمنَعُه من القوم إن أرادوه!

فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني!

فغدا ابن مسعودٍ حتّى أتى المقام في الضُّحى، وقريشٌ في أنديتها، فرفع صوته يقرأ سورة الرحمن، فجعلوا يقولون: ما يقول

ابن أمِّ عبدٍ؟

فقال بعضهم: إنّه ليتلو بعض ما جاء به محمّد!

فقاموا إليه، وجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ منها حتّى بلغ ما شاء الله أن يبلغ!

ثمّ انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك!

فقال: ما كان أعداء الله قطّ أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً!

فقالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون!

ما إن قيل: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطّ، فمن رجلٌ يُسمعهم؟!

حتّى هبّ عبد الله بن مسعود مُتطوّعاً، صدِيق القرآن أوفى النّاس لصدِيقه، ويرى أنّه مِن تمام الصُّحبة ألا يكون أحدٌ بتبليغه منه!

رغم أنّ عبد الله بن سعود رجلٌ ضعيفٌ في جسده كما تقدّم، والكلُّ يعرفُ أنّه سيُضرب ويؤذى وأكثرهم عِلماً بذلك ابن مسعود نفسه، إلّا أنّه انبرى ليقرأ القرآن عند المقام رغماً عن أنف قريشٍ!

ورغم أنّ عبد الله بن مسعود رجلٌ ضعيفٌ في عشيرته، ولا أحدَ له ليمنعه من قريشٍ إذا آذته، إلّا أنّه لا يجد أحداً أحقّ بواجبِ تبليغِ القرآن لقريشٍ أكثر منه، كان حقّاً صاحباً وفيّاً!

وروى البخاريُّ في صحيحه، من حديث عبد الله من مسعود قال:

قال لي النّبيّ ﷺ: اقرأ عليّ القرآن!

فقلت: أقرأ عليكَ، وعليك أُنزل؟!

فقال: فإنّي أحبُّ أن أسمعه من غيري؟

فقرأتُ عليه سورة النّساء، حتّى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾!

قال: أمسِك!

فنظرتُ إليه، فإذا عَينَاه تذرِفَان!

كان النّبي ﷺ يعيش القرآن بكلّ جوارحه، ولو تأمّلتَ الآية التي أثقلتْ عليه وأبكته، لعرفتَ كيف كان القرآن مختلطاً بلحمه وعظمه بأبي هو وأمّي، يحدّثه ربُّه عن مشهدٍ من مشاهدِ يوم القيامة، وكيف سيأتي كلُّ نبيٍّ شهيداً على قومه أنّه قد بلّغهم رسالةَ ربِّهم، وكيف يجمع الله الأمم وأنبيائها سيأتي النّبيُّ صلّى الله عليه وسلم شهيداً على كلّ الأنبياء أنّهم قد بلّغوا الرّسالة، وعلى كلّ الأمم أنّها قد تلقّت الرسالة!

إنّها عظمة التّشريف مقرونة بعظمة التّكليف!

ولا شكّ أنّ القصّة تكريمٌ لصديق القرآن عبد الله بن مسعود، وتشريفٌ له، أن يطلب منه صاحب الرّسالة والشّريعة، الرّجل الذي صبّ جبريل القرآن في قلبه صبّاً، أن يتلوه عليه!

أيُّ فخرٍ هذا، وأيُّ تشريفٍ، فالنّبيُّ الذي اعتاد أن يتلقّى القرآن من أمين الوحي مباشرةً لن تُرضيه إلّا تلاوةٌ طبق الأصل عنها، وحين

يُراد للأمر أن يكون كذلك، فليس لها إلّا ابن مسعود، ومن سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزِل فليقرأ على قراءة ابن أمِّ عبدٍ!

رحِم الله صديق القرآن عبد الله بن مسعود، ورضي عنه، وجزاه عنّا خير ما جزى رجلاً حمل كتابه فحفظه وبلّغه وتلاه وعمل به، وجمعنا به عند حوض النّبيّ ﷺ!

# سعد بن الرّبيع!

رحمه الله، نصح لله ورسوله حيّاً وميتاً!

بهذه الكلمات ودّعَ النّبيّ ﷺ سعد بن الرّبيع حين بلغه ما قال وهو يجودُ بروحه يوم أحدٍ!

نشأ سعد بن الرّبيع في بيت عزٍّ وشرف، كان أبوه من سادة الخزرج، عهد به منذ نعومة أظافره إلى المعلّمين والمؤدّبين ليُعلّموه القراءة والكتابة، فأتقنهما صغيراً، وعندما اشتدّ عوده، وبلغ مبلغ الفتيان، عهِد به إلى الفرسان ليعلّموه ركوب الخيل، والمبارزة بالسّيف، والطّعن بالرّمح، والرّمي بالقوس، فما كاد يبلغ عمر الشّباب حتّى غدا فارساً لا يُشقُّ له غبار! ولمّا تُوفيَ أبوه خلّفه على زعامة قومه!

أسلم سعد بن الرّبيع قبل الهجرة النّبويّة الشّريفة بسنوات، فقد شهِد بيعتي العقبة الأولى والثّانية، وكان أحد نقباء الأنصار!

شهد بدراً وأبلى فيها بلاءً حسناً، وشهِدَ أُحداً وتوّج فيها مسيرة الإيمان بتاجِ الشّهادة!

كان سعد بن الرّبيع موضع ثقةِ النّبيّ ﷺ، فكان يأتمنه على أسراره العسكريّة، ويسمعُ رأيه، ويُعجَبُ بفكره!

وحين أرسل العبّاس بن عبد المطلب إلى النّبيّ ﷺ رسالةً عسكريّةً سريّةً مع رجلٍ من بني غفار، يخبره فيها بتحرّك جيش قريشٍ إلى أحدٍ!

والتقى النّبيّ ﷺ مبعوث العبّاس في قباءٍ بعيداً عن أعين المنافقين واليهود، وأخذ الرّسالة، وكان معه أبيّ بن كعب، فقرأ له الرّسالة، واستكتمه النّبيّ ﷺ على ما فيها، قصَد بعدها على الفور بيت سعد بن الرّبيع، فأعلمه بالرّسالة وما جاء فيها!

ولا شكّ أن هذه الحادثة، ترِيكَ بجلاءٍ مكانَة سعد بن الرّبيع عند النّبيّ ﷺ، ومقدار ثقته به. فقد كان بمثابةِ مستشاره العسكريّ!

مقتضبةٌ جداً هي سيرة سعد بن الرّبيع في كتب التّراجم والسِّير، وهذا برأيي عائدٌ إلى أمرين:

الأول: أنّه من أهل المدينة، والإسلام قبل الهجرة الشّريفة كانت مكّة ميدان أحداثه، وإنّما طالت سِيَر ومواقف أهل المدينة من الصّحابة بعد ذلك ألنّهم عمّرُوا في صُحبة النّبيّ ﷺ!

الثاني: فهو استشهاده في غزوة أُحد، وقد كانت في السّنة الثالثة للهجرة الشريفة، أي أنّ عمر صحبته العمليّة والفعليّة لم تكمل ثلاث سنوات وحين نجد مادّةً كثيرةً عن حياةِ حمزة بن عبد المطّلب، ومصعب بن عمير، اللّذان استشهدا في غزوة أُحُد أيضاً، لا نجدُ مثل هذا مع سعد بن الرّبيع، والسبب أنّهما مَكّيّان، وقد كانت الفترة المكّيّة حافلةً بالأحداث، في حين أن المدينة المنوّرة كانت تنتظر الهجرة الشّريفة لها لتستلم الرّاية، وسعد بن الرّبيع لم يعش فيها كثيراً!

هذا لا يعني أبداً أنّه من العسير الحديث عن صفةٍ بارزةٍ في حياة سعد بن الرّبيع! على العكس تماماً، صفته بارزة، وبصمةُ حياته واضحةٌ جداً، ويمكن وصف سعد بن الرّبيع بأنّه باذلُ ماله ونفسه!

روى البخاريُّ في صحيحه من حديث أنس بن مالك، قال: قدِم علينا عبد الرّحمن بن عوف، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الرّبيع، وكان كثير المال.

فقال سعدٌ لعبدِ الرّحمن: قد علِمتْ الأنصار أنّي من أكثرها مالاً، وسأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتّى إذا حلّت تزوّجتها!

فقال له عبد الرّحمن بن عوف: باركَ الله لك في أهلك ومالكَ، لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟

فقال له: سوقُ قينقاع.

فغدا عبد الرّحمن إليه، فأتى بأقِطٍ وسَمنٍ، ثمّ تابع الغدو أي يتاجر حتّى كثُر مالُه.

ثمّ ما لبِث عبد الرّحمن بن عوف أن جاء عليه أثرُ صُفرةٍ، فقال له النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: تزوّجتَ؟

فقال: نعم.

فقال له: ومن؟

فقال: امرأةٌ من الأنصار.

فقال له: كم سُقتَ؟ أي من المهر.

فقال: زِنَةُ نواةٍ من ذهب!

فقال له النّبيُّ ﷺ: أولِمْ ولو بشاةٍ!

أرأيتَ هذه الصِّفة العظيمة التي أخبرتك عنها: باذل نفسه وماله!

تخيّل هذا البذل وهذا الجود، يأتي عبد الرّحمن بن عوف من مكّة ولا شيءَ معه، ويؤاخي النّبيُّ ﷺ بينه وبين سعد بن الرّبيع الثريِّ كثيرِ المال، فيعزم سعد أن يتنازل له عن نصف ماله! كان يرى أنّ الاسلام رحِمٌ يفوق رحِمَ الدّم، وقد أحسن وصلَ هذا الرّحِم، وإنّك في الحياة تستغرب وتندهش إذا سمعتَ أنّ رجلاً قد أعطى نصف ماله لأخيه من أبيه وأمّه لأنّها نادرةٌ في النّاس، بل لا تكون في كلّ مئة سنة مرّة هذا إن كانت أساساً، أمّا أن ينزل رجلٌ عن نصف ماله لأخيه في العقيدة الذي آخاه معه النّبيُّ ﷺ منذ يوم وليلة، لعمري إنّها الدّهشة بعينها!

وما منع هذا البذل من أن يتحوّل من فكرةٍ إلى واقع إلّا تعفُّفَ عبد الرّحمن بن عوف، واختياره أن يتاجر ويكسب وإلّا لو أراد أن يأخذ نصف مال سعد بن الرّبيع لأخذه ولطابت نفس سعد بذلك؟

وأمّا استعداده لطلاق إحدى زوجته ليتزوّجها عبد الرّحمن بن عوف بعد أن تقضيَ عدّتها، فلعلّك تجدُ في نفسكَ منها شيئاً، ولستُ بقائل لكَ: أخرِجْ ما في نفسِك! وإنّما سأقول لك: بعضُ الأفعال لن تفهمها إلّا إذا كانت قلوب أصحابها في صدرك!

وعلى أيّةِ حالٍ فإنّ من أراد أن يطلقها سعد لن تصبح زوجةً لعبد الرّحمن إلّا برضاها، إذ لا سلطة له عليها لا في دينٍ ولا في عرفٍ بعد انقضاء عدّتها، ولكنّه غلبَ على ظنّه أنّها سترتضي عبد الرّحمن كما ارتضتْ سعداً، فهي صحابيّة جليلة، تحبُّ الدّين وأهله، وعبد الرّحمن بن عوف من خيرة أصحاب النّبيّ ﷺ!

ثانياً: إنّ عبد الرّحمن رجلٌ رفيع النّسب، وهذا شيءٌ معتبرٌ ومرغوبٌ عند العرب، كما أنّه فوق رفيع نسبه، رفيعٌ في خُلُقه وهمّته، إنّه الرّجل الذي آثر أن يترك مالَ صاحبه، ويعمل ويتاجر ويكِدّ، حتّى غدا من أكثر أصحاب النّبيّ ﷺ مالاً!

وهي فوق كلّ هذا لها أن ترفض برغم كلّ هذه الصّفات، لأنّها نهاية المطاف مالكةٌ رأيها، حرّةٌ في قرارها!

وأمّا باذلُ نفسِه: فقد روى ابن القيّم في زادِ المَعاد، أنّ النّبيّ ﷺ قال يومَ أحِدٍ: من يأتيني بخبر سعد بن الرّبيع؟!

ثمّ انتدب لذلك زيد بن ثابت، ويقول زيد: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحِدٍ أطلب سعد بن الرّبيع، وقال لي: إن رأيتَه فأقرئه منّي السّلام وقُل له: يقولُ لك رسول الله: كيف تَجِدُك؟!

فجعلتُ أطوف بين القتلى، فأتيته وهو في آخرِ رمقٍ، وفيه سبعون ضربةً ما بين طعنةٍ برمح، وضربةٍ بسيف، ورميةٍ بسهم!

فقلتُ: يا سعد، إنّ رسول الله ﷺ يقرأ عليك السّلام ويقول لك: كيف تَجِدُك؟

فقال: على رسول الله السّلام، فقُل له: يا رسول الله، أجدُ ريحَ الجنّة!

وقُل لقوميَ الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تِطْرِف!

ثمّ فاضتْ نفسه، فرجعتُ إلى النّبيّ ﷺ وأخبرته.

فقال: رحمه الله، نصَحَ للهِ ورسوله حيّاً وميتاً!

جراحاتُ سعد بن الرّبيع تُخبِرُك أيّ قتالٍ قاتل يوم أُحد، وأيّ بسالةٍ هي التي كانت فيه، وعن مدى التحامه بالأعداء، وقربه منهم، وإثخانه فيهم!

جراحاتُ سعد بن الرّبيع تخبرك إلى أيّ مدىً بذل نفسه، وريحُ الجنّة التي شمّها قبل أن تفيض روحه، ما هي إلّا مكافأةُ نهاية الخدمة، ودليلُ صدقٍ على قبول هذا القربان، وأيُّ قربانٍ يقرّبُه المرءُ لله أعظم من دمه وروحه؟!

وحديث سعد بن الرّبيع مع زيد بن ثابت حتّى نقل له رسالة النّبيّ ﷺ، تُرِيكَ عظمة هذا الرّجل، هو في آخر لحظاته في الدّنيا، روحه بدأت تفيضُ شيئاً فشيئاً، فيه من الجراح ما أحصاها زيدٌ، ومن الوجع والألم ما لا يُعلَم مقداره إلّا الله تعالى، ومع هذا لا يحفلُ بنفسه، كلُّ همّه هذا الدّين، وهذا النّبيُّ الذي بقاؤه في هذه المرحلة هو بقاءُ الإسلام، فينسى نفسه، ويرسلُ إلى قومه الأنصار وصيّة، لا عُذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تطرف!

ليس نادماً على ما بذل، ولا شاكّاً في الطريق التي مشى فيها، على العكس تماماً، هو في هذه الحظة أكثر لحظات حياته إيماناً بهذا الدّين!

بذلَ روحه، ويدعو قومه أن يبذلوا أرواحهم في الدّفاع عن النّبيّ ﷺ!

رحِمَ الله سعد بن الرّبيع، ورضيَ عنه، وكتبَ له أجرَ صُحبتِه

وجهادِه وشهادتِه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# أنس بن النضِر!

أنس بن النَّضِر دليلٌ ساطعٌ على ما يمكن أن يبلغه المرء بصدقه مع الله!

لم يكن صدّيقاً كأبي بكرٍ، ولا فاروقاً كعُمَر، ولا عَلماً من أعلام النّاس كعثمّان، ولا فارساً وحكيماً كعليّ، ولا له ذكرٌ كبقيّة العشرة المبشَّرِين بالجنّة!

وإنّما كان من عموم النّاس وأبسطهم، مجهولٌ عند النّاس، ليس له في كُتُبِ التّراجم صفحاتٌ طِوال، ولكن كان بينه وبين الله سرٌّ خفيَ على النّاس ولم يخفَ على ربّهم، وهذا الذي بلغ به أن يكون خالداً في الدُّنيا بذكره، خالداً في الجنّة بموقفِ صدقٍ وقفَهُ للهِ!

كسرت أخته الرّبيع بنت النّضِر ثنيّة/مقدّمة أسنان امرأةٍ من الأنصار فجاء أهلها يحتكمون إلى النّبيّ ﷺ، فحكم بالقصاص!

فقال له أنس بن النّضِر: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ لا تُكسَر ثنيّتُها!

فقال له النّبيّ ﷺ: يا أنس، كتابُ الله القصاص!

ثمّ ما لبث أهلُها أن رضوا بالعِوَض الماديّ وكانوا من قبل رافضين له!

فقال النّبيّ ﷺ مُزكّياً أنس بن النّضر: إنّ من عباد الله من لو أقسم على اللهِ لأبرّه!

هذا هو أنس بن النّضِر المجهول في الأرض المعروف في السّماء!

هذا هو أنس بن النّضِر الذي يجهلُه النّاس ويعرفه الله!

هذا هو أنس بن النّضِر العزيز على الله إلى درجة أنّه لو أقسم عليه لأبرّه!

إنّ الموقف الذي تخلّد فيه أنس بن النّضِر في الدّارين، ودخل به التّاريخ من أشرف أبوابِه، يسهل معه وفيه أن نقول: إنّ الصّفة التي يُمكن إطلاقها عليه هي: صادق العهد!

روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أنس بن مالك قال: غاب عمّي أنس بن النّضِر عن قتال بدرٍ.

فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوّلِ قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليريَنّ اللهُ ما أصنعُ!

فلمّا كان يوم أُحد انكشف المسلمون، فقال: اللهمّ إنّي أعتذرُ إليكَ مما فعلَ هؤلاء يعني أصحابه.

وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين!

ثمّ تقدّمَ، فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: يا سعد بن معاذ، الجنّةُ وربِّ النّضِر، إنّي لأجِدُ ريحها من دون أُحدٍ!

قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنعَ!

وقال أنس بن مالك: فوجدنا به بِضعاً وثمّانين ضربةً بالسّيف، أو طعنة برمحٍ، أو رميةً بسهمٍ، ووجدناه قد قُتِلَ ومثّل به المُشركون، فما عرفه أحدٌ إلّا أُختُه بِبَنَانِه!

قال أنس: كنّا نرى أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾!

إنّنا لن ندركَ مدى صدق العهد عند أنس بن النّضِر حتّى نحيط بكلّ تفاصيل الحادثة عِلماً، فإنّ ما قبلها قبل، وإن كان ما تلاها أعظم!

إنّنا نرى مدى تألُّمه وحسرته أن غاب عن أوّل نِزالٍ بين المسلمين والمشركين، رغم أنّ هذا الغياب لم يكن بيده، فالنّبيُّ ﷺ ما انتدبَ المسلمين إلى القتال، ولا خرج أساساً وفي خاطره أنّه سيكون قتال، كُلّ ما أراده هو القافلة، ولكنّ سبحان من إذا شاء أن يجمع فريقين جمعهما كيف شاء!

ورغم أنّ غياب أنس بن النّضِر لم يكن تخلُّفاً إذ لم يكن هناك دعوة إلى الخروج، إلّا أنّه كان يتوجّع لأنّه لم يشهد المشهد الأول من حرب الحقّ ضدّ الباطل!

هذا الوجع لم يستطع أن يبقيه حبيس صدره وخاطره، لقد كان ثقيلاً جداً، فأراد أن يتخفّف منه، فكان بوحه الخالد: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلْتَ فيه المشركين، لئن اللهُ أشهدني قتالَ المشركين ليَرَيَنّ اللهُ ما أصنع!

إنّ صدقَ العهد، يلزمه بالضّرورة أن يكونَ هناك عهد ليُصدِّقه، وها هو يُطلِقُ عهده على رؤوس الأشهاد!

الآن قد مضى عامٌ تقريباً مُذ أعلن أنسُ بن النّضِر عن عهده، وها هي لحظة الوفاء قد حانت. وخرج مع النّبيّ ﷺ لقتال المشركين في أُحُدٍ!

أبلى المسمون بلاءً حسناً، وبدأت قريش تندحر، وتذوق المرارة التي ذاقتها في بدر، ثمّ نزل الرّماة عن الجبل، وانقلبت الآية!

ولك الآن أن تتخيّل وَقْعَ ما حدث على أنس بن النّضِر!

بينما يلاحق والمسلمين فلول قريش، وإذ به يرى المشركين في ظهره قد أعملوا السّيف في أصحابه، وبدأوا يتساقطون شهيداً في إثر شهيد!

وأشيع أنّ النّبيّ ﷺ قد قُتِلَ!

لو كنتَ تُشاهد فيلماً لتملّكَكَ الرّعب، فكيف والأمر حقيقة، وأنتَ في قلبِ الحدث!

نظرَ إلى الرّماة، والأسى يعتصره، وقال: اللّهمّ إنّي أعتذر إليكَ ممّا فعل هؤلاء! كان يعرفُ أنّ مخالفة النّبيّ ﷺ أمرٌ عظيم، ولكنّه يستغفر لأصحابه عن هذا الخطأ، ويعلن عن عدم رضاه به!

ونظر إلى المشركين، وهذه المقتلة التي أحدثوها في المسلمين، وقال: اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء! إنّه تمام الولاء والبراء، والعقيدة الصّادقة في أجمل وجوهها!

ثمّ تابع قتاله، ولكنّه وهو في خِضّم هول المشهد رأى عجباً، بعض الصّحابة قد قعدوا عن القتال، وإذا به يسأل مستغرباً، فيأتيه الجواب: قُتِلَ رسول الله ﷺ:

يا للخبر الذي يهدّ الجبال، ويا للنّبأ العظيم!

خبرٌ كفيلٌ أن يخلع القلب من الصّدر، ونبأٌ يكفي لأن يذهب بالعقل!

ولكنّه تمالك نفسه، وقال قَولةً ما زالت حتّى اليوم دستوراً يسترشدُ بها كلُّ مجاهدٍ في سبيل الله حتّى قيام السّاعة: وما تَصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه!

هذا النّبأ العظيم كان ليدفع رجلاً عاديّ الإيمان إلى أن يُراجع حسابه بهذا الدِّين كله؟!

كيف يموت رسول الله ﷺ ولم يظهر دينه بعد؟! هل كنّا على حقٍّ منذ البداية؟!

هذه أسئلةٌ قد يسألها من كان في مثل مكانه وموقفه، ولكنّ أنس بن النّضِر كان راسخ الإيمان، ثابت العقيدة، اختلط الإسلام بلحمه ودمه، وخالط الإيمان قلبه وروحه، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ!

ولنفهم ثبات أنس بن النّضِر في هذا الموقف العظيم، علينا أن نغوص فيه غوصاً، فإنّ الذين جلسوا لا يدرون ما يصنعون عندما أُشيع خبر مقتل النّبيّ ﷺ، لم يكونوا كلهم حديثو عهدٍ بالإسلام، كان منهم قممٌ راسخة، وأصحاب جهادٍ وسابقةٍ، منهم عمر وطلحة وسعد! إلى هذه الدّرجة كان الأمر مهولاً!

وكان بإمكان أنس بن النّضِر ولم يكن له سابقة كسابقتهم، ولا جهادٌ مكيٌّ واحتمال أذىً كما كان لهم، أن يجلس مجلسهم، ويحذو حذوهم، ولكن سبحان من يربط على قلوب بعض عباده حين يتملّك الذهول بعضهم الآخر!

ومضى أنس بن النّضِر يقاتل قتال من لا يهاب الموت، بل يقتحم

غِماره غير عابئٍ به، ويلقاه سعد بن معاذٍ وهو على حالته تلك، فيقول له: يا سعد بن معاذ الجنّة وربِّ النّضِر إنّي أجدُ ريحها من دون أُحُدٍ!

يا لأنس بن النّضِر ما أكرمه على الله تعالى، يشمّ رائحة الجنّة وهو ما زال في الدّنيا، يُبشّره ربّه بمكان وصوله وهو ما زال على الطّريق يسعى، هذا ما يبلغه الصّدق بالرّجال!

وتنتهي المعركة بما انتهت إليه، وينزلُ المسلمون ليتفقدوا شهداءهم، فإذا هو شهيدٌ قد قُتِلَ أفظع قِتلَةٍ، وجدوا به أكثر من ثمّانين ضربةٍ، منها ما هو بالسّيف، ومنها ما هو بالرّمح، ومنها ما هو بالسّهم، وقد مثّلَ به المشركون فلا يعرف الصّحابة من هو هذا الشّهيد، ثمّ تأتي أخت أنس بن النّضِر وتعرفه من علامةٍ فارقةٍ في إصبعه!

هكذا وفى أنس بن النّضِر بعهده مع الله، لم يفِ به كلاماً وإنّما وفى به قِتالاً، ولم يفِ به خطابةً وإنّما وفى به دماً، فكان من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه!

رحم الله أنس بن النّضِر، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عبد الله بن عبّاس!

اللهمّ فقّهه في الدّين، وعلّمه التّأويل!

بهذه الكلمات دعا النّبيّ ﷺ لعبد الله بن عبّاس!

وإنّها لدعوة نبيٍّ لا تُخطئ، بلغتْ رميها، وأصابت هدفها، فنشأ فقيهاً صاحِب رأيٍ واجتهادٍ، وكان ضليعاً في التّأويل، ماهراً في استنباط الأحكام من الآيات، يفوق أقرانه، بل ويفوق كثيراً ممّن سبقوه إلى الإسلام!

كان عمر بن الخطّاب زمن خلافته يُدني ابن عباسٍ، ويسمحُ له أن يكون في مجلسه بين كبار الصّحابة، لِما كان يجدُ من علمه وفقهه رغم حداثة سِنِّه!

وعن هذا يقول ابن عبّاس: كان عمر بن الخطّاب يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجدَ في نفسه، فقال: لمَ تُدخِلُ هذا معنا ولنا أبناء مثله؟!

فقال عمر: إنّه مَن قد علمتم!

فدعاني ذات يومٍ وأدخلني معهم، وما أحسبه إلّا دعاني ليريَهم!

فقال لهم: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟

فقال بعضهم: أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرنا، وفُتِحَ علينا!

وسكتَ بعضهم ولم يقل شيئاً!

فقال لي: أهكذا تقولُ يا ابن عبّاس؟

فقلتُ: لا!

فقال: فما تقول؟

قلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلَمَهُ به!

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، ذلك علامةُ أجلِك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾!

فقال عمر: ما أعلمُ منها إلّا ما تقول!

إلى هذه الدّرجة كان عبد الله بن عبّاس عالماً، فقيهاً، مجتهداً منذ نعومة أظافره!

وبالإضافة إلى أنّه كان راسخاً في العلم، فقد كان ليّن الأخلاق، سمحَ النّفس، سهلاً قريباً من النّاس، بعيداً عن الشّدّة والغِلظة!

والمتأمّل في سيرة ابن عبّاسٍ، ومواقفِ حياتِه، لا يحتاج إلى كثير تأمُّل ليلحظَ كيف رُكّبَتْ فيه صلابة العلم مع سماحة النّفس! لهذا إن كان لا بُدّ من اختيار صفةٍ لهذه الشّخصيّة العظيمة فهي: الصّلبُ السّمحُ!

وعندما نقول: الصّلبُ السّمحُ، فنحن لا نجمع المُتناقضات التي تؤدّي إلى تنافرٍ في الشّخصيّة، أساساً إنّ الصّلابة في الدّين والعقيدة لا تتنافى أبداً مع سماحة النّفس، على العكس تماماً إنّهما صفتان إذا اجتمعتا في نفسٍ واحدةٍ زانتها وطيّبتها، وبلغت بها ذروة الكمال الإنسانيّ، والكمال لله وحده!

إذا ما تعلّق الأمر بالدِّين والعقيدة نجِدُ ابن عبّاسٍ جبَلاً لا يلينُ ولا ينحنِي، وإذا ما تعلّق الأمر بالسلوك والأخلاق نجِدُ ابن عبّاسٍ من أليَنِ النّاسِ وأقربهم إلى الخَلق!

أما ترى أنّ النّبيّ ﷺ قد قال لعمّه حين تعلّق الأمر بالعقيدة والله يا عمُّ، لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يُظهره الله أو أهلِك دونه؟!

وهو مع هذا الصادقُ الأمينُ، الذي يصِلُ الرّحِم، ويُحسِن الجِوار، ويغيثُ الملهوف، ويساعد المحتاج، متوّجاً كلُّ ذلك بقول ربِّه له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾!

ومواقفُ صلابةِ العقيدة، ورسوخِ العلم، في حياة عبد الله بن عبّاسٍ أكثر من أن تُحصى، وليس من أغراضِ الكِتاب تدوين المواقف، وإنّما الإشارة إلى سِمة الشّخصيّة في هذه المواقف، لهذا يكفي مناظرته للخوارج لنرى صلابةَ العقيدة ورسوخ العلم عنده!

وكذلك، فإنّ مواقفَ سماحةِ نفسه، وانفتاحِه على الحياةِ والنّاس والمجتمع، أكثر من أن تحصى، فهذه هي حياته، وهذا هو دأبه فيها، ويكفي أيضاً أن نعرض لموقفٍ واحدٍ منها، وبهذا نميط اللّثام عن هذه الصّفة في شخصيّته!

وعن مناظرةِ الخوارجِ يقول ابن عبّاس: لمّا خرج الخوارج على عليِّ بن أبي طالبٍ، وكانوا ستّة آلافٍ، قلتُ لعليٍّ: يا أمير المؤمنين، أبرِد بالصّلاة، لَعَلّي أكلّمُ هؤلاء القوم!

فقال: إنّي أخافُهم عليك!

قلتُ: كلّا إن شاء الله!

فلبستُ أحسن ما يكونُ من حُلَلِ اليمن، ورجّلتُ شَعري، ودخلتُ عليهم في الظّهيرة وهم يأكلون.

فقالوا: مرحباً بك يا ابن عبّاس، فما هذه الحُلّة؟!

فقلتُ: ما تُعيبونَ عليّ؟ لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ في أحسنِ ما يكون من الحُلَلِ، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾!

قالوا: فما جاء بك؟

قلتُ لهم: أتيتُكم من عند أصحاب النّبيّ ﷺ المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عمّ النّبيّ صلّ الله عليه وسلّم وصِهرِه، وعليهم القرآن نزل، فهم أعلمُ بتأويله منكم، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون.

فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً، فإنّ الله يقول عنهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾!

وقال بعضهم: لنكلّمنّه ولننظرنّ ما يقول!

فقلتُ: هاتوا ما نقمتُم على ابن عمّ رسول الله ﷺ وأصحابه!

فقالوا: ننقِمُ عليه ثلاثاً!

قلتُ: ما هُنّ؟

فقالوا: أمّا إحداهُنّ، فإنّه حكّمَ الرّجال في أمر الله، والله يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾!

قلتُ: هذه واحدةٌ.

قالوا: وأمّا الثّانية، فإنّه قاتل ولم يسبِ ولم يغنم، إن كانوا كفّاراً لقد حلّ سبيُهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلّ قتالهم!

قلتُ: هذه ثنتان، فما الثّالثة؟

قالوا: ومَحا نفسَه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قلتُ: هل عندكم شيءٌ غير هذا؟

قالوا: حسبُنا!

فقلتُ لهم: أرأيتُم إن قرأتُ عليكم من كتاب ربّكم، وسنّة نبيّكم، ما يردُّ قولكم، أترجعون؟!

قالوا: نعم.

قلتُ: أمّا قولكم: حكّم الرّجال في أمر الله، فإنّي أقرأ عليكم في كتاب الله أنّ الله قد صيّر حكمَهُ إلى الرّجال في ثمَنِ رُبعِ درهمٍ، فأمرَ الله تعالى أن يحكموا فيه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾!

وكان من حكم اللهِ أنّه صيّره إلى الرّجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز من حكّم الرّجال!

أنشدِكُم بالله، أحُكمَ الرّجال في صلاح ذات البين وحقن دمائهم أفضل، أو في دَمِ أرنب؟!

قالوا: بلى، هذا أفضل!

قلتُ: وقال الله تعالى في المرأة وزوجها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾!

نشدتُكم الله، أحُكْمَ الرِّجال في صلاح ذاتِ بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بِضْعِ امرأة؟

قالوا: اللهمّ بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم.

قلتُ: خرجتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

قلتُ: وأمّا قولُكم: قاتَل ولم يسبِ ولم يغنَم، أفتَسبُون أمّكم عائشة؟

تستحِلّون منها ما تستحلّون من غيرها وهي أمُّكم؟!

فإن قلتُم: إنّا نستحِلُّ منها ما نستحِلُّ من غيرها فقد كفرتم!

وإن قلتم ليست بأمّنا فقد كفرتم، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ﴾!

فأنتم بين ضلالتين، فهاتوا لها بمخرج!

فنظر بعضهم إلى بعض!

قلتُ: خرجتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

قلتُ: وأمّا قولُكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، قد سمعتُم أنّ النّبيّ ﷺ صالح المشركين يوم الحديبية، فقال لعليٍّ: اكتُب يا عليّ، هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله!

فقالوا: لو نعلم أنّك رسول الله ما قاتلناك!

فقال النبيُّ ﷺ: أمحُ يا عليّ! اللهمّ إنّك تعلم أنّي رسول الله، امحُ يا عليّ، واكتب: هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله.

واللهِ لرسول الله ﷺ خيرٌ من عليّ، ما أخرجه من النّبوّة حين محا نفسه!

ثمّ قلتُ: أخَرجتُ من هذه؟

قالوا: نعم!

رجع من هذه المناظرة ألفان، وخرج بقيّتُهم على ضلالتهم، فقتلهم الصّحابة؟

هذه المناظرة تُرِيكَ بجلاء إلى أيّ حدٍّ كان عبد الله بن عبّاس راسخاً في العلم! لقد جاءهم ولم يكن يعلم ما هيَ شُبهاتهم ومآخذهم على عليّ بن أبي طالب!

بمعنى أنّه اقتحم غمار مدرستهم الفكريّة دون تحضير مسبق للأدلّة والرّدود!

وكما رأينا، فقد كانت شبهاتهم تحتاج الضّليع في العِلم، المتمكّن من القرآن، الحافظ من السُّنّة!

وعندما كانت كلُّ هذه المواصفات في عبد الله بن عبّاس، استطاع

أن يُفنّدَ شبهاتِهم ويردّ عليها!

وأنتَ الآن تقرأ الإجابات تحسب الأمر يسيراً، ولكن تخيّل أن تُطرح عليك هذه الأسئلة مباشرة، وستّة آلاف سيفٍ رهنوا أنفسهم نتيجة هذه المناظرة!

استطاع ابن عبّاسٍ أن يُقنِع ألفي مقاتلٍ من الخوارج بالتّوبة، والابتعاد عن قتال المسلمين، وهذا يُريكَ أهميّة الرّسوخ الفكريّ لهذه الأمّة!

عبد الله بن عبّاس بفكره كان أهمّ من ألف فارسٍ، لأنّ ألفَ فارسٍ بالكاد يقتلون ألفين من الأعداء، أمّا ابن عبّاسٍ فقد نحّى ألفي مقاتلٍ دون أن يقتلهم، نحّاهم وهداهم الله به!

أمّا الموقفُ الذي تظهر فيه سماحة عبد الله بن عبّاس مع عمر بن أبي ربيعة الشّاعر!

روى المبرّد في الكامل، أنّ ابن الأزرقِ الخارجيّ أتى ابن عبّاسٍ يوماً، فجعل يسأله حتّى أمَلّهُ!

وجعل ابن عبّاسٍ يُظهر الضّجر، وجاء عمر بن أبي ربيعة وكان ما زال غلاماً وقتها، فقال له ابن عبّاسٍ: ألا تُنشدنا من شعرك؟!

فأنشده واحدةً من رقيقِ قصائده الغزليّة التي مطلعها:

أمِن آلِ نُعمٍ أنتَ غادٍ فَمُبكِرُ

غداةَ غَدٍ أم رائِحٌ فَمُهَجِّرُ

لِحاجَةِ نَفسٍ لَم تَقُل في جَوابِها

فَتُبلِغَ عُذراً وَالمَقالَةُ تُعذِرُ

وبقيَ ابن عبّاسٍ يستمعُ للقصيدة حتّى أتمّها عمر بن أبي ربيعة ثمّانين بيتاً، فقال له ابن الأزرق: للهِ أنتَ يا ابن عبّاسٍ! نضربُ إليك أكباد الإبل نسألك عن الدّين فتُعرِض، ويأتيك غلامٌ من قريشٍ فينشدكَ سَفهاً فتسمعه!

فقال له ابن عباس: تاللهِ ما سمعتُ سَفهاً!

فقال ابن الأزرق: أمَا أنشدك:

رأيتُ رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضتْ

فيخزى وأمّا بالعشيّ فيخسر

فقال له ابن عبّاس: ما هكذا قال، وإنّما قال:

فيضحى، وأمّا بالعشيّ فيخصرُ!

فقال له ابن الأزرق: أوَ تَحفظُ الذي قال؟!

فقال: واللهِ ما سمعتُها إلّا ساعتِي هذه، ولو شئتَ أن أنشدها عليكَ أُنشِدُها!

فقال له ابن الأزرق: فأنشِدْها!

فأنشده إيّاها كلّها!

من سماحة نفسه كان يأنس بشعر الغزل، ويحفظه، ويعيده!

كان لصيقاً بالنّاس، ابن بيئته ومجتمعه، لم يجلس في برجٍ عاجيٍّ ويرمق النّاس من علٍ، وإنّما كان يعيش بينهم واحداً منهم!

شخصيّةُ عبد الله بن عبّاس شخصيّة فريدة، تُمثّل شخصيّة المسلم الذي نحتاجه في هذا العصر، لأنّ النّاس أكثرهم قد غدا أحدَ رجلين:

الأول ملتزمٌ معتزلٌ للمجتمع هاجرٌ له!

والثاني متفلّتٌ مقبلٌ على الحياة هاجرٌ للدّين!

الأول قد ينجو بنفسه، ولكنّه لا يبني أمّة ولا يقيمُ ديناً!

والثّاني ابن الحياة والمجتمع، ولكنّها حياة مشوّهة المفاهيم، مفتقرةٌ إلى الهدف الذي خُلق لأجله الإنسان، ومجتمعٌ بلا هوية، تابعٌ ومنقاد!

رحِم الله عبد الله بن عبّاس، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# حسّان بن ثابت!

أجب عنّي، اللّهمّ أيّده بروحِ القُدس!

بهذه الكلمات كان النّبيُّ ﷺ يحثُّ حسّان بن ثابتٍ على هجاء المشركين!

فقد كان وزارة إعلام الإسلام، والنّاطق الرسميّ باسم الإيمان!

كانت العربُ تُقدّس الشِّعر، كان خبزهم وزادهم، ومن تخلّد منهم فقد قال شعراً، أو قيل فيه شعرًا!

ومن الطّبيعي والحال كذلك، أن يتّخذ المشركون الشِّعر سِلاحاً للمعركة، ومن الطّبيعي أن يكون ردُّ العدوان من جنسه، وهذا كان ميدان حسّان وملعبه!

سيّدَ الشُّعراء المؤمنين، المؤيّد بروح القُدس!

بهذه الكلمات افتتح الإمام الذهبيُّ ترجمة حسّان بن ثابت في كتابه سير أعلام النُّبلاء!

سيّد الشُّعراء المؤمنين!

يا لهذا الدِّين كيف يُخلّد رجاله، وكيف يحوّلهم من رجالٍ حبيسي المكان والزّمان، فيطوف بهم أرجاء الدُّنيا، ويُبقِيهم أبدَ الدّهر!

سيرةُ حسّان بن ثابتٍ فيها واحدٌ من أبلغ الدُّروس التي علّمنا إيّاها هذا الإسلام العظيم، هذا الدّرس عنوانه العريض: كلُّ واحدٍ على ثغر!

عاش حسّان بن ثابت مئة وعشرين سنة، ستّين سنة في الجاهليّة،

وستين سنة في الإسلام، لم يحمل فيها سيفاً قطُّ، ولم يشترك في غزوةٍ ولا قتالٍ، ولعلّه الشّخص الوحيد في التّاريخ الذي كان قريباً من الحروب إلى هذا الحدّ ولم يكن له فيها ضربة واحدة! وقد قبل النّبيّ ﷺ هذا منه، فَهِمَ طبعه، ومميّزات شخصيّته، فأقامه في الثّغر الذي يجيده! وهذا درسٌ عظيمٌ لنا في كلّ عصرٍ، أنّه لن يحمِلَ الجميع السّيف، وأنّ النّاس لم يولدوا كلُّهم للمعارك، وإنّما يُستفاد من المرءِ حيث يبرع ويجيد!

ذكر ابنُ سعدٍ في الطّبقات، والواقديُّ في كتابه المغازي، والإمام الذهبيُّ في سِيَر أعلام النُّبلاء: لم يشهد حسّان بن ثابتٍ مشهداً واحداً مع النّبيّ ﷺ، كان يَجْبُنُ!

أي بمعنى أنّه كان يخافُ الحرب والقتال، وليس الجُبْنَ على إطلاقه، وإلّا فإنّ شجاعتَه في شعره ظاهرة، والحرب آخره الميدان، ولكن في كلّ عصرٍ لها ميادينها الأخرى.

وكون حسّان بن ثابتٍ كان يهجو أعداء الإسلام فلا شكّ أنّه قد سلّ عليهم سيفاً وكان رأسه عندهم مطلوباً، وهذا كان يعرفه حسّان جيّداً!

في سيرة ابن هشام: كانت صفيّة بنت عبد المطّلب عمّة النّبيّ ﷺ في فارعٍ، وهو حصنُ حسّان بن ثابتٍ، وكان في الحصن النّساء والصبيان!

تقول صفيّة: فمرّ بنا رجلٌ من يهود، فجعل يطوف بالحصن، وقد نقضت بنو قريظة عهدها، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفعُ عنّا، ورسولُ الله ﷺ والمسمون في

نحور عدوّهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ!

فقلتُ: يا حسّان إنّ هذا اليهوديّ كما ترى يطوف بالحصن، وإنّي والله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شُغِلَ عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه بقتال الأحزاب عند الخندق، فانزِلْ إليه فاقتله!

فقال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطّلب، والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا!

فلمّا قال لي ذلك، ولم أرَ عنده شيئاً، احتجزتُ ثمّ أخذتُ عموداً من الخيمة، ثمّ نزلتُ من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتّى قتلته!

فلمّا فرغتُ منه، رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسّان، انزل إليه فاسلبه، فإنّه لم يمنعني من سلبه إلّا أنّه رجل!

فقال: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطّلب!

هذا الموقف يُريك علاقة حسّان بن ثابت بالحرب والقتال، فهو لم يكن يبتعد عنهما في اللّحظات التي يكون فيها مختاراً فقط، وإنّما في اللّحظات التي يكون فيها مضطراً كذلك!

لك أن تتخيّل حساسيّة الموقف، هذا اليهوديّ لو عاد إلى قومه فسيُفشِي عن مكان نساء المسلمين وأولادهم، وقتله هو كتمان لسرّ المسلمين، وصيانةٌ لدمائهم وأعراضهم، ومع هذا عجز حسّان أن يفعل ما فعلته امرأة!

لم يكن هذا ميدان حسّان أبداً! حسّان كان له ميدانه الذي صال فيه وجال!

عن عائشة أمّ المؤمنين، أنّ النّبيّ ﷺ قال: اهجُوا قريشاً، فإنّه أشدُّ عليهم من نَضْحِ النّبلِ!

فأرسل إلى عبد الله بن رواحة، فقال له: أهجُهُم!

فهَجَاهُم ابنُ رواحة، فلم يرضَ النّبيُّ ﷺ!

ثمّ أرسل إلى كعب بن مالك، وقال له: أهجُهُم!

فهجاهم ابنُ مالكٍ، فلم يرضَ النّبيُّ ﷺ!

ثمّ أرسل إلى حسّان، فلمّا دخل حسّان قال: قد آن لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسدِ الضّاربِ لذَنَبِه!

ثمّ دَلَعَ لسانه وجعلَ يحرّكُه، وقال للنّبيّ ﷺ: والذي بعثك بالحقّ، لأفرِيَنّهم فَرْيَ الأدِيم!

فقال له النّبيُّ ﷺ: لا تعجل، فإنّ أبا بكرٍ أعلمُ قريشٍ بأنسَابِها، وإنّ لي فيهم نسباً حتّى يخلص لكَ نَسَبِي!

فأتاه حسّان، ثمّ رجع فقال، يا رسول الله، قد خلّصَ لي نسبك، والذي بعثكَ بالحقّ لأسُلّنّكَ منهم كما تُسلُّ الشّعرة من العجين!

فقال له النّبيُّ ﷺ: إنّ روح القُدس لا يزال يُؤَيِّدُك ما نافحتَ عن الله ورسوله!

وكان الذي هجا النّبيّ ﷺ هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب أي ابن عمّ النّبيّ ﷺ! فردّ عليه حسّان يقول:

هَجَوْتَ مُحَمّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ

وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمّدًا بَرًّا حَنِيفًا

رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

أتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ

فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ

وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فَإنّ أبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي

لِعِرْضِ مُحَمّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

كان النّبيُّ ﷺ يعرفُ منزلة الشّعر عند العرب، لهذا دعا الشُّعراء واحداً بعد واحدٍ حتّى وجدَ ضّالته عند حسّان بن ثابتٍ!

فالمعركة مع قريشٍ لم تكن معركة سيوفٍ فقط، للحرب ميادينها اللوجستيّة الدّاعمة الأخرى، وبدونها لا يستقيم الميدان!

وفي أمّةٍ عاشقةٍ للشّعرِ تتنفسه كما تتنفس الأمم الأخرى الهواء، نعرف تلك القيمة التي كان عليها حسان بن ثابت، وأهمية الدور الذي لعبه في الصّراع بين الإيمان والكفر!

كانت القبيلة في الجاهليّة إذا بُشّرت بميلادِ شاعر فيها، أضرمت النّار في مضاربها ثلاث ليالٍ احتفاءً به!

وعن الشّعر قالوا: كان العرب ولم يكن لهم من علمٍ غيره!

وهذا من باب بيانِ سطوة الشّعر، وأهميّته، وشغفهم به، والا فقد غرِفَ فيهم الطبّ، والاستدلال بالنّجوم للمسير، واتّباع الأثر، وكثير من الذّكاء والفراسة!

وفي ثنايا القصّة موقفٌ نبويٌّ من الضّروريّ أن نقف عنده، فالنّبيُّ ﷺ على عدائه مع قريشٍ، لم يَهُن عليه نسَبَه وقرابته ورحمه!

ورغم أنّ القَضيّة كفرٌ وإيمان حيث لا مواربة ولا مجاملة، إلّا أنّ الأصيل لا يذمُّ عرضه، ولا يهجو رحِمه، وإنمّا يهجو الفكرة المُشرِكَة، والنّهج الأعوج!

في قضيّة الشرك والإيمان لم يهُن على النّبيّ ﷺ نسبه ورحِمه، ونحن للأسف اليوم نجِدُ أنّ العائلة إذا اختلف أفرادها على شيءٍ من الدّنيا نشروا أعراض بعضهم البعض بين النّاس، وفي مواقع التّواصل، وفجَروا في الخصومة، وتناولوا الأحياء والأموات، دون أدنى وازعٍ من ضميرٍ ولا أخلاق!

أن يُطالب الإنسان بحقّه شيء، وأن يكون بذيئاً، قليل أصلٍ وأخلاقٍ ودينٍ شيءٌ آخر! إنّ الغاية لا تُبرِّر الوسيلة، نحن أمّة الأخلاق، وفي ديننا ظهرُ الغاية تحتّم البحث عن ظهر الوسيلة!

وبالعودة إلى حسّان بن ثابت، فإنّ المتأمّل في محطّات حياته يلحظُ أنّ الله تعالى كان يُعِدُّه في الجاهليّة على مهلٍ، ليقوم بهذا الدّور العظيم الذي شرّفه بعد إسلامه أن يقوم به!

قبل أن يعتنِق حسّان الإسلام، كان مُنصرِفاً إلى الدّفاع عن قومه بالمفاخرة، فكان شعره تغلبُ عليه صبغة الفخر، فقد كان العداء

مستعِراً بين الأوس والخزرج، وكان حسّان شاعر الخزرج بلا منافس!

لقد عاش أجواء الصراعات والسّجالات باكراً، كان شعره يولد من رحِم النّزاعات، وكان قد اكتسب خبرةً واسعة في هذا الميدان، لهذا عندما انضوى تحت لواء الإسلام، وحمل راية المنافحة عنه شعراً، لم يكن الأمر جديداً عليه، إنّه يقوم الآن بما اعتاد طوال عمره أن يقوم به، ولكنّ الإسلام العظيم أعطاه قضيّة أكبر من القبيلة والنّسب، إنّها قضيّة الإيمان التي لأجلها خُلقت السماوات والأرض!

وفي الجاهليّة اتّصل حسّان بالغساسنة الذين كانوا ملوك العرب! فمدحهم ردحاً من الزمن، ودافع عنهم سنواتٍ طوالاً، هذا الأمر قرّبه من بلاط الحكم، وأدخله معترك السّياسة، وبالنسبة إلى شخصٍ خَبِرَ بلاط الملوك، وأدبيات التّواصل معهم، وجد لاحقاً لديه ما يكفي من الخبرة للتّعامل مع الشخصيّة النبويّة المباركة!

وكذلك كان قد تهيأ بشكلٍ أو بآخر لأن يخرج من دائرة قضاياه الشخصيّة، من اختلافٍ في الهدف والنّيّة لا شكّ، فاتّصال حسّان مع الغساسنة إنّما كان لأجل المال والمنفعة، ونفاحه عن حياض الإسلام كان من أجل العقيدة!

كان حسّان بن ثابتٍ نابغةً، ذكيّاً في اختيار الهدف الذي يُصوّبُ إليه، فهو لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان، لأنّه كان يعرف أنّهم راضون بكفرهم، قانعون بأصنامهم، وقد قرّعهم القرآن تقريعاً بهذا بما يكفي أن ينتهوا، ولكنّهم لم ينتهوا! لهذا كان يهجوهم بالأيّام التي هُزِموا فيها، ويُعيّرُهم بالمثالب والأنساب، ولو هجاهم بالكفر ما بلغ منهم الذي بلغ! ناهيك أنّ القرآن كتابُ عقيدةٍ وأمّة، وهو أرفعُ

مقاماً وأعلى قدراً أن يتناول تلك النّقاط التي تناولها حسّان، وشتّان بين كلام ربٍّ وكلام عبدٍ من عباده!

وما ترفّع عنه القرآن أدباً ومنهجاً، تناوله حسّان نكاية، فأصابهم في مقتلهم!

كان حسّان، كما بقيّة الصّحابة، شديد المحبّة للنّبيّ ﷺ، أكثر من مدحه والثّناء عليه، وكلُّ ما يُقال في رسول الله ﷺ قليل، غير أنّ لحسّان في النّبيّ ﷺ بيتَينِ عدّهُما النّقّاد أبلغ ما قيل في المديح في تاريخ العرب:

وأحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني

وأجملُ منكَ لم تلدِ النّساء

خُلِقتَ مُبرّأً من كلّ عيبٍ

كأنّك قد خُلقت كما تشاءُ!

وكان النّبيُّ ﷺ قد نهى الصّحابة أن يقِفوا له إجلالاً كما يقفُ الرُّوم لقيصر، وكما يقِف الفُرس لكسرى. فدخَل عليهم مرّةً، فقاموا له دون أن يشعروا، فغضب، وكان ﷺ إذا غضب عُرِفَ ذلك في وجهه!

عندها قال له حسّان بن ثابت:

وقوفي للعزيز عليّ فرضٌ

وتركُ الفرضِ ما هو مستقيمُ

عجبتُ لمن له عقلٌ وفهمٌ

يرى هذا الجمالَ ولا يقومُ

فرَضِيَ النّبيُّ ﷺ وأجازه!

تُوُفِّيَ حسّان بعد أن بلغ من العمر مئة وعشرين سنة، قضى منها ستّين سنةً منافحاً عن الإسلام، مُدافعاً عن العقيدة، وترك خلفه قصائد رائعة خلّدها تاريخُ الأدب، وما عند الله له خيرٌ وأبقى!

رحِم الله حسّان بن ثابتٍ، ورضِيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوضِ النّبيّ ﷺ!

# سَلمان الفارِسيّ!

سلمانُ منّا آل البيت!

بهذه الكلمات صنّف النّبيُّ ﷺ سلمان حين اختلف الصّحابة أين يكون سلمان، ومع من يحفِر!

ذاك أنّه لمّا غزا الأحزاب المدينة المنوّرة، قال سلمان للنّبيّ ﷺ: إنّا كنّا بفارسٍ إذا حُوصِرنا خَنْدَقْنَا علينا!

فأمر النّبيُّ صلّى الله عليه وسلم بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين، وكان من حكمته ﷺ أن قسّم مسافةَ الحفر بين الأنصار والمهاجرين، فاختلفوا في سلمان كلٌّ يريدُه معه، فسلمان ليس مهاجراً من مكّة، وليس أنصاريّاً من المدينة، فجعل المهاجرون يقولون: منّا سلمان! وجعل الأنصار يقولون: منّا سلمان!

فقال النّبيُّ ﷺ: سلمان منّا آل البيت!

إنّ قصّة إسلام سلمان الفارسيّ هي واحدةٌ من أعاجيب قصص الإيمان، ليس في تاريخ الإسلام فحسب، بل في تاريخ البشريّة كلّها! وفيها تظهر جليّاً تلك الصّفة الغالبة والمحرّكة لشخصيّة سلمان، إنّها صفة: الباحث عن الحقيقة!

هذا النّوع من النّاس تجده في مُطاردة الحقيقة، يبحث عنها أرجاءَ الأرض، وكأنّ في داخله فوضى لا ترتّبُها إلّا الحقيقة! لن تفهم سلمان حقّاً إلّا إذا كنت سلمان نفسه! أن تشعر بجوع إلى الحقيقة فلا تشبع إلّا منها، وأن تشعر بعطشٍ إلى المعرفة فلا ترتوي إلّا حين تعثُر عليها! ثمّة شيء في أعماقك لا يهدأ حتّى تكون مطمئناً في قلبك، وقتها

فقط ستضع رأسك على وسادتك وتنام مرتاحاً، غير هذا سيبقى ينقصك شيء، هو في الحقيقة كلّ شيءٍ!

حدّث سلمان عبد الله بن عبّاس عن قصّة إسلامه، وعبد الله حدّث بها النّاس فحفظتها الأمّة في سجِلّ الخالدين!

قال سلمان: كُنتُ رَجُلًا فارسِيًّا مِن أهْلِ أصْبَهانَ مِن أهْلِ قَرْيةٍ منها يُقالُ لها جَيٌّ، وكان أبي دِهْقانَ قَرْيَتِه، أي رَئِيسَها، وكُنتُ أحبَّ خَلقِ اللهِ إليه، فلم يَزَلْ به حُبُّه إيّايَ حتّى حَبَسَني في بَيتِه كما تُحبَسُ الجاريةُ، واجتَهَدتُ في المَجوسيّةِ حتّى كُنتُ قَطِنَ النارِ الذي يُوقِدُها لا يَترُكُها تَخبو ساعةً.

وكانَت لأبي ضَيعةٌ عَظيمةٌ، فشُغِلَ في بُنيانٍ له يَومًا، فقال لي: يا بُنَيّ، إنّي قد شُغِلتُ في بُنيانٍ هذا اليومَ عن ضَيعَتي، فاذْهَبْ فاطّلِعْها، وأمَرَني فيها ببَعضِ ما يُريدُ، فخَرَجتُ أُريدُ ضَيعَتَه، فمَرَرتُ بكَنيسةٍ مِن كَنائِسِ النّصارى، فسَمِعتُ أصواتَهُم فيها وهُم يُصلُّون، وكُنتُ لا أدْري ما أمرُ الناسِ لِحَبسِ أبي إيّايَ في بَيتِه، فلمّا مَرَرتُ بِهِم، وسَمِعتُ أصواتَهم، دَخَلتُ عليهم أنظُرُ ما يَصنَعون!

فلمّا رَأيتُهُم أعْجَبَني صَلاتُهُم، ورَغِبتُ في أمرِهِم، وقُلتُ: هذا -واللهِ- خَيرٌ مِن الدِّينِ الذي نَحنُ عليه!

فو اللهِ ما تَرَكتُهم حتّى غَرَبَتِ الشمسُ، وتَرَكتُ ضَيعةَ أبي ولم آتِها، فقُلتُ لهُم: أين أصلُ هذا الدِّينِ؟

قالوا: بالشّامِ!

ثمّ رَجَعتُ إلى أبي، وقد بَعَثَ في طَلَبي وشَغَلتُه عن عَمَلِه كلِّه، فلمّا

جِئْتُه، قال: أيْ بُنَيّ، أين كُنتَ؟ ألم أكُنْ عَهِدتُ إليكَ ما عَهِدتُ؟

قلتُ: يا أبَتِ، مَرَرتُ بناسٍ يُصَلُّون في كَنيسةٍ لهُم فأعْجَبَني ما رَأيتُ مِن دِينِهِم، فو اللهِ ما زِلتُ عِندَهُم حتّى غَرَبَتِ الشمسُ!

قال: أيْ بُنَيّ، ليس في ذلك الدِّينِ خَيرٌ، دِينُك ودِينُ آبائِكَ خَيرٌ منه!

قلتُ: كلّا واللهِ إنّه لخَيرٌ مِن دِينِنا!

فخافَني، فجَعَلَ في رِجلي قَيدًا، ثمّ حَبَسَني في بَيتِه!

وبَعَثتُ إلى النّصارى فقُلتُ لهم: إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ مِن الشّامِ تُجّارٌ مِن النّصارى فأخْبِروني بهم. فقَدِمَ عليهم رَكْبٌ مِن الشّامِ تُجّارٌ مِن النّصارى، فأخْبَروني بهم.

فقُلتُ لهُم: إذا قَضَوْا حوائِجَهُم وأرادوا الرَّجْعةَ إلى بِلادِهِم فآذِنوني بِهِم.

فلمّا أرادوا الرَّجْعةَ إلى بِلادِهم أخْبَروني بهم، فألْقَيتُ الحَديدَ مِن رِجلي، ثمّ خَرَجتُ معهم حتّى قَدِمتُ الشّامَ، فلمّا قَدِمتُها، قُلتُ: مَن أفْضَلُ أهْلِ هذا الدِّينِ؟

قالوا: الأُسقُفُ في الكَنيسةِ.

فجِئتُه، فقُلتُ: إنّي قد رَغِبتُ في هذا الدِّينِ، وأحبَبتُ أنْ أكونَ معَكَ أخْدِمُكَ في كَنيسَتِكَ، وأتَعَلَّمُ منكَ وأُصَلّي معَكَ.

قال: فادْخُلْ.

فدَخَلتُ معَه، فكان رَجُلَ سَوءٍ؛ يَأمُرُهم بالصّدَقةِ ويُرَغِّبُهم فيها، فإذا جَمَعوا إليه منها أشياءَ، اكْتَنَزَه لنَفْسِه، ولم يُعطِه المَساكينَ، حتّى

جَمَعَ سَبعَ قِلالٍ مِن ذَهَبٍ ووَرِقٍ، وأبغَضْته بُغْضًا شَديدًا لِما رَأيته يَصنَعُ، ثمّ ماتَ، فاجتَمَعَتْ إليه النّصارى لِيَدفِنوه، فقُلتُ لهم: إنّ هذا كان رَجُلَ سَوءٍ؛ يَأمُرُكم بالصّدَقةِ ويُرَغِّبُكم فيها، فإذا جِئتُموه بها اكتَنَزَها لنَفْسِه، ولم يُعطِ المَساكينَ منها شَيئًا!

قالوا: وما عِلمُكَ بذلك؟

قلتُ أنا أدُلُّكم على كَنزِه.

قالوا: فدُلَّنا عليه.

فأرَيتُهم مَوضِعَه، فاستَخرَجوا منه سَبعَ قِلالٍ مَملوءةً ذَهَبًا ووَرِقًا، فلمّا رَأوْها قالوا: واللهِ لا نَدفِنُه أبَدًا فصَلَبوه، ثمّ رَجَموه بالحِجارةِ.

ثمّ جاؤوا برَجُلٍ آخَرَ، فجَعَلوه بمَكانِه، فما رَأيتُ رَجُلًا لا يُصلّي الخَمسَ، أرى أنّه أفضَلُ منه، أزهَدُ في الدُّنيا، ولا أرغَبُ في الآخِرةِ، ولا أدأبُ ليلًا ونَهارًا منه، فأحبَبتُه حُبًّا لم أُحِبّه مَن قَبلَه، فأقَمتُ معَه زَمانًا، ثمّ حَضَرَتْه الوَفاةُ، فقُلتُ له: يا فُلانُ، إنّي كُنتُ معَكَ وأحبَبتُكَ حُبًّا لم أُحِبّه مَن قَبلَكَ، وقد حَضَرَكَ ما تَرى مِن أمرِ اللهِ، فإلى مَن تُوصي بي، وما تَأمُرُني؟

قال: أي بُنَيّ، واللهِ ما أعلَمُ أحَدًا اليومَ على ما كُنتُ عليه، لقد هَلَكَ الناسُ وبَدّلوا وتَرَكوا أكثَرَ ما كانوا عليه، إلّا رَجُلًا بالمَوصِلِ، وهو فُلانٌ، فهو على ما كُنتُ عليه، فالحَقْ به.

فلمّا ماتَ وغُيِّبَ، لَحِقتُ بصاحِبِ المَوصِلِ فقُلتُ له: يا فُلانُ، إنّ فُلانًا أوصاني عِندَ مَوتِه أنْ ألحَقَ بكَ، وأخبَرَني أنّكَ على أمرِه.

فقال لي: أقِمْ عِندي.

فأقَمتُ عِندَه، فوَجَدتُه خَيرَ رَجُلٍ على أمرِ صاحِبِه، فلم يَلبَثْ أنْ ماتَ، فلمّا حَضَرَتْه الوَفاةُ، قُلتُ له: يا فُلانُ، إنّ فُلانًا أوْصى بي إليكَ، وأمَرَني باللُّحوقِ بكَ، وقد حَضَرَكَ مِن اللهِ عزّ وجلّ ما تَرى، فإلى مَن تُوصي بي، وما تَأمُرُني؟

قال: أيْ بُنَيّ، واللهِ ما أعلَمُ رَجُلًا على مِثلِ ما كُنّا عليه إلّا بِنَصِيبِينَ، وهو فُلانٌ، فالْحَقْ به.

فلمّا ماتَ وغُيِّبَ لَحِقتُ بصاحِبِ نَصِيبِينَ، فجِئتُه فأخبَرْتُه خَبَري، وما أمَرَني به صاحِبي.

قال: فأقِمْ عِندي.

فأقَمتُ عِندَه، فوَجَدتُه على أمرِ صاحِبَيه، فأقَمتُ مع خَيرِ رَجُلٍ، فو اللهِ ما لَبِثَ أنْ نَزَلَ به الموتُ، فلمّا حَضَرَ، قُلتُ له: يا فُلانُ، إنّ فُلانًا كان أوْصى بي إلى فُلانٍ، ثمّ أوْصى بي فُلانٌ إليكَ، فإلى مَن تُوصي بي، وما تَأمُرُني؟

قال: أيْ بُنَيّ، واللهِ ما نَعلَمُ أحدًا بَقِيَ على أمرِنا آمُرُكَ أنْ تَأتيَه إلّا رَجُلًا بِعَمُّورِيّةَ؛ فإنّه على مِثلِ ما نَحنُ عليه، فإنْ أحبَبتَ فأْتِه، فإنّه على أمرِنا.

فلمّا ماتَ وغُيِّبَ لَحِقتُ بصاحِبِ عَمُّورِيّةَ، وأخْبَرْتُه خَبَري، فقال: أقِمْ عِندي.

فأقَمتُ مع رَجُلٍ على هَدْيِ أصحابِه وأمرِهِم.

واكتَسَبتُ حتّى كان لي بَقَراتٌ وغُنَيمةٌ، قال: ثمّ نَزَلَ به أمرُ اللهِ،

فلمّا حُضِرَ قُلتُ له: يا فُلانُ، إنِّي كُنتُ مع فُلانٍ، فأوصى بي فُلانٌ إلى فُلانٍ، وأوصى بي فُلانٌ إلى فُلانٍ، ثمّ أوصى بي فُلانٌ إليكَ، فإلى مَن تُوصي بي، وما تأمُرُني؟

قال: أي بُنَيّ، واللهِ ما أعلَمُه أصبَحَ على ما كنّا عليه أحَدٌ مِن الناسِ آمُرُكَ أنْ تأتيَه، ولكنّه قد أظَلّكَ زَمانُ نَبيٍّ هو مَبعوثٌ بدِينِ إبراهيمَ يَخرُجُ بأرضِ العَرَبِ، مُهاجِرًا إلى أرضٍ بَينَ حرّتَينِ بَينَهُما نَخلٌ، به عَلاماتٌ لا تَخفى: يَأكُلُ الهَديّةَ ولا يَأكُلُ الصّدَقةَ، بَينَ كَتِفَيه خاتَمُ النُّبوّةِ، فإنِ استَطَعتَ أنْ تَلحقَ بتلك البِلادِ فافعَلْ.

ثمّ ماتَ وغُيِّبَ، فمَكَثتُ بعَمُّوريّةَ ما شاءَ اللهُ أنْ أمكُثَ، ثمّ مَرّ بي نَفَرٌ مِن كَلْبٍ تُجّارًا، فقُلتُ لهُم: تَحمِلوني إلى أرضِ العَرَبِ، وأُعطيكُم بَقَراتي هذه وغُنَيمَتي هذه؟

قالوا: نَعَمْ.

فأعطَيتُهُموها وحَمَلوني، حتّى إذا قَدِموا بي واديَ القُرى ظَلَموني فباعوني مِن رَجُلٍ مِن يَهودَ عَبدًا، فكُنتُ عِندَه، ورَأيتُ النّخلَ، ورَجَوتُ أنْ تكونَ البَلَدَ الذي وَصَفَ لي صاحِبي، ولم يَحِقْ لي في نَفسي، فبَينَما أنا عِندَه، قَدِمَ عليه ابنُ عَمٍّ له مِن المَدينةِ مِن بَني قُرَيظةَ فابتاعَني منه، فاحتَمَلَني إلى المَدينةِ، فو اللهِ ما هو إلّا أنْ رَأيتُها فعَرَفتُها بصِفةِ صاحِبي، فأقَمتُ بها وبَعَثَ اللهُ رسولَه، فأقامَ بمكّةَ ما أقامَ لا أسمَعُ له بذِكرٍ مع ما أنا فيه مِن شُغلِ الرِّقِّ، ثمّ هاجَرَ إلى المَدينةِ، فو اللهِ إنّي لَفي رَأسِ عَذْقٍ لسَيِّدي أعمَلُ فيه بَعضَ العَمَلِ، وسَيِّدي جالِسٌ، إذْ أقبَلَ ابنُ عَمٍّ له حتّى وَقَفَ عليه، فقال: فُلانُ، قاتَلَ اللهُ بَني قَيلةَ، واللهِ إنّهم الآنَ لَمُجتَمِعون بقُباءٍ على رَجُلٍ

قَدِمَ عليهم مِن مكّةَ اليومَ، يَزْعُمون أنّه نَبيٌّ.

فلمّا سَمِعْتُها أخَذَتْني العُرَواءُ، حتّى ظَنَنتُ سأسْقُطُ على سيِّدي، ونَزَلْتُ عن النّخلةِ، فجَعَلتُ أقولُ لابنِ عمِّهِ ذلك: ماذا تقولُ؟ ماذا تقولُ؟

فغَضِبَ سيِّدي فلَكَمَني لَكْمةً شَديدةً، ثمّ قال: ما لكَ ولهذا، أقْبِلْ على عَمَلِكَ.

قُلتُ: لا شَيءَ، إنّما أرَدْتُ أنْ أستَثْبِتَه عمّا قال.

وقد كان عِندي شَيءٌ قد جَمَعْتُه، فلمّا أمْسَيتُ أخَذْتُه ثمّ ذَهَبتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو بقُباءٍ، فدَخَلتُ عليه، فقُلتُ له: إنّه قد بَلَغَني أنّكَ رَجُلٌ صالِحٌ، ومعَكَ أصحابٌ لكَ غُرَباءُ ذَوو حاجةٍ، وهذا شَيءٌ كان عِندي للصّدَقةِ، فرَأيْتُكم أحقَّ به مِن غيرِكم.

فقَرّبْتُه إليه، فقال رسولُ اللهِ ﷺ لِأصحابِه: كُلوا.

وأمْسَكَ يَدَه فلم يَأكُلْ، قال: فقُلتُ في نفْسي: هذه واحِدةٌ.

ثمّ انصَرَفتُ عنه فجَمَعتُ شَيئًا، وتَحوّلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المَدينةِ، ثمّ جِئتُه به، فقُلتُ: إنّي رَأيتُكَ لا تَأكُلُ الصّدَقةَ، وهذه هَديّةٌ أكرَمْتُكَ بها.

قال: فأكَلَ رسولُ اللهِ ﷺ منها، وأمَرَ أصحابَه فأكَلوا معَه.

فقُلتُ في نَفْسي: هاتانِ اثْنَتانِ.

ثمّ جِئتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو ببَقيعِ الغَرْقَدِ، وقد تَبِعَ جِنازةً مِن أصحابِه، عليه شَمْلَتانِ له، وهو جالِسٌ في أصحابِه، فسَلّمتُ عليه، ثمّ

استَدَرْتُ أنظُرُ إلى ظَهْرِه، هل أرَى الخاتَمَ الذي وَصَفَ لي صاحِبي؟

فلمّا رَآني رسولُ اللهِ ﷺ استَدْبَرْتُه، عَرَفَ أنّي أستَثْبِتُ في شَيءٍ وُصِفَ لي، فألْقى رِداءَه عن ظَهْرِه، فنَظَرْتُ إلى الخاتَمِ فعَرَفْتُه، فانْكَبَبْتُ عليه أُقَبِّلُه وأبْكي، فقال لي رسولُ اللهِ ﷺ: تَحَوَّلْ، فتَحَوَّلْتُ، فقَصَصْتُ عليه حَديثي كما حَدَّثْتُكَ يا ابنَ عبّاسٍ.

فأُعجِبَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَسمَعَ ذلك أصحابُه، ثمّ شَغَلَ سَلْمانَ الرِّقُّ حتّى فاتَه مع رسولِ اللهِ ﷺ بَدْرٌ، وأُحُدٌ.

ثمّ قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: كاتِبْ يا سَلْمانُ.

فكاتَبْتُ صاحِبي على ثَلاثِ مِئةِ نَخلةٍ، أُحْييها له بالفَقيرِ، وبأرْبَعينَ أُوقيّةً.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ لِأصحابِه: أعِينوا أخاكُم.

فأعانوني بالنَّخلِ: الرَّجُلُ بثَلاثينَ وَدِيّةً، والرَّجُلُ بعِشْرينَ، والرَّجُلُ بخَمْسَ عَشرةَ، والرَّجُلُ بعَشْرٍ؛ يَعْني: الرَّجُلُ بقَدْرِ ما عِنْدَه، حتّى اجتَمَعَتْ لي ثلاثُ مِئةِ وَدِيّةٍ، فقال لي رسولُ اللهِ ﷺ: اذْهَبْ يا سَلْمانُ ففَقِّرْ لها، فإذا فَرَغْتَ فأْتِني أكونُ أنا أضَعُها بِيَدي.

ففَقَّرْتُ لها، وأعانَني أصْحابي، حتّى إذا فَرَغْتُ منها جِئْتُه فأخبَرْتُه، فخَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ معي إليها، فجَعَلْنا نُقَرِّبُ له الوَدِيَّ ويَضَعُه رسولُ اللهِ ﷺ بِيَدِه، فو الذي نَفْسُ سَلْمانَ بِيَدِه، ما ماتَتْ منها وَدِيّةٌ واحِدةٌ، فأدَّيْتُ النَّخلَ، وبَقِيَ علَيَّ المالُ، فأُتِيَ رسولُ اللهِ ﷺ بمِثْلِ بَيْضةِ الدَّجاجةِ مِن ذَهَبٍ مِن بَعضِ المَغازي، فقال: ما فَعَلَ الفارِسيُّ المُكاتَبُ؟

فذَعِيتُ له، فقال: خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليكَ يا سَلْمانُ.

فقُلتُ: وأين تَقَعُ هذه يا رسولَ اللهِ ممّا عليَّ؟

قال: خُذْها؛ فإنَّ اللهَ سيُؤَدِّي بها عنك.

فأخَذْتُها فوَزَنْتُ لهُم منها، والذي نَفْسُ سلْمانَ بِيَدِهِ، أربَعينَ أُوقِيَّةً، فأوْفَيْتُهم حقَّهُم، وعَتَقْتُ! فشَهِدتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ الخَنْدَقَ، ثمَّ لم يَفُتْني معه مَشْهَدٌ.

لعلَّ سلمان هو أحد أشهر الباحثين عن الحقيقة في التّاريخ!

بحث سلمان عن الحقيقة ليس بحثاً مُترفاً، ولا مجانيّاً، ولا هو بحثٌ عن فضول العلم والمعرفة.

ما كان يبحث عنه سلمان هو قضيّة الإيمان، القضيّة المركزيّة لهذا الكون كلّه، والسبب الذي لأجله خُلقت السماوات والأرض، وقام سوقُ الجنّة والنّار، وكان الموت والحياة، والقبر والنُّشور، والحساب والصِّراط!

ولقد كان سلمان يشعر بفراغٍ في أعماقه بإدراك هذه الحقيقة، وهذا الإيمان!

ثمّة قضايا في هذه الحياة، يأتي الإيمان على رأسها، يشعر المرء في أعماقه بجوعٍ إليها ودونها لا يمكن لشيءٍ إشباعه، وبظمأٍ غريبٍ، ولكنّه ليس ظمأً في الحلق ترويه شَربةُ ماءٍ، وإنّما هو ظمأٌ في القلب لا يرويه إلّا إدراك هذه الحقيقة!

أيضاً لا يمكن اعتبار المرء باحثاً حقّاً عن الحقيقة ما لم يكن هذا

البحث مكلفاً، والمرء على استعدادٍ لأن يُضحّي بالغالي والنّفيس لأجلِ إدراكها!

ومن هذا النّوع كان سلمان!

سلمان الابن المدلل لأبٍ يخافُ عليه من نَسمة الهواء، هذا الأب بلغ به حبُّ ابنه درجةً تجعله معها على استعداد لحبسه في البيت خوفاً عليه من قسوة العالم في الخارج!

كان أبوه يفيضُ عليه حبّاً، لهذا هو لم يترك بيته ترك الطائشين الذين يعانون من المشكلات الأسريّة، وإنّما ترك بيته ترك الباحثين عن الحقيقة، المضحّين بكلّ شيءٍ في سبيلها!

أيضاً كان سلمان من أسرةٍ ثريّةٍ، أبوه يملك المال والبساتين، وصاحب مركزٍ اجتماعيٍّ مرموقٍ، وهذه الحياة هي حلم ملايين من الشباب على مرّ العصور، ولكنّ سلمان ضحّى بكلّ هذا في سبيل إرواء عطشه إلى الحقيقة!

البحث عن الحقيقة كلّف سلمان أن يُضحِي بالأسرة المستقرّة، وبكلّ هذا الحُبّ الذي يجده، وبكلّ هذا الرّضاء والثّراء، ويندفُع بكلّيّته نحو المجهول!

من بلدٍ الى بلدٍ سافر سلمان وهو لا يملك من مقوّمات الرّحالة شيء، لا مال ولا زاد!

ومن راهبٍ إلى راهبٍ انتقلَ يبحثُ عن طمأنينة قلبه!

لم يكن يُرضيه من الحقيقة إلّا أرفعها، لهذا كان دائماً يسأل عن الأفضل!

رحلة البحث عن الحقيقة في حياة سلمان لم تكلفه فقد أسرته وثرائها، لقد كلّفته أيضاً سنواتٍ طويلةٍ من عمره في الرِّق والعبودية!

تخيّل كم كان ثمن عثور سلمان على الحقيقة مُكلفاً، الولدُ المُدلل كان وحيداً، والابن الثّريُّ كان فقيراً، والذي كان يُحوطه أبوه بالحبِّ كان في فم الخطر، وأقسى ما كان فيه سلمان أن يُباع عبداً!

أثمّر البحث عن الحقيقة أخيراً، علم الله تعالى ما في قلب سلمان من البداية، علم صدق نيّته، وطهارة قلبه، فقلّبه في هذه الدُّنيا تقليباً في دروب شاقّة لا شيءَ غيرها يُمكِنه أن يُوصِله إلى ما كان يبحث عنه!

وصل سلمان أخيراً، وصلَ ووجدَ ضالّته عند النّبيّ ﷺ، ولن يفهم شعور سلمان إلّا سلمان نفسه، تخيّل أن تكون رحلة عمرك كلّها ركضاً ثمّ تأتي اللّحظة التي تشعر فيها أنّك وصلت!

رحم الله سلمان، ورضي عنه. وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# سعد بن أبي وقّاص!

هذا خالي فليُرني امرؤٌ خاله!

بهذه الكلمات فاخر النّبيُّ ﷺ بسعد بن أبي وقّاص!

اِرمِ فداك أبي وأمي!

بهذه الكلمات ناولَ النّبيُّ ﷺ سعد بن أبي وقّاص السّهام يوم أحدٍ ليرميَ المشركين، ولم يفدِ أحداً بأبويه طوال حياته غير سعدٍ!

سعد بن أبي وقّاص أسدٌ من أسود الإسلام، وجبلٌ من جباله، نصر الله ورسوله في كلِّ المَواطِن، وبدأ هذه الرّحلة العظيمة باكراً، فهو من السّابقين إلى الإسلام، أسلم قديماً في مكّة على يد أبي بكر الصّدّيق، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنّة!

حين أسلم سعد وعلمت أمّه إسلامه غضبت عليه، وقالت له: والله لا آكل، ولا أشرب حتّى ترجع عن هذا الدّين الذي اعتنقته، وإنّي إن متُّ، فإنّكَ تُعيّرُ بي!

فمكَثَتْ ثلاثة أيامٍ لا تأكل ولا تشرب، وسعدٌ على دينه ثابتٌ لا يتزحزح! ثمّ جاءها، وقال لها: والله يا أمّاه، لو كان لك مئة نفسٍ، خرجت نفساً نفساً، ما تركت هذا الدّين أبداً!

فلمّا علمت أنّه لن يرجع عن دينه، قامت إلى طعامها وشرابها!

وأنزل الله تعالى في سعد قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لم يكن سعد بن أبي وقّاص سابقاً إلى الإسلام انتساباً فقط، بل كان سابقاً بعمله أيضاً، فهو أول من رمى بسهمٍ في سبيل الله يوم بدرا كان هو الذي افتتح لهذا الدّين رميّه، كان هو الذي قصّ الشّريط وتبعته هذه الأمة!

وهو أول من أراق دماً في سبيل الله في الإسلام، ذلك أنّ أصحاب النّبيّ ﷺ كانوا يتفرّقون في شعاب مكّة، يَستخفون بصلاتهم عن المشركين، فبينما سعدٌ في نفرٍ من أصحابه، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين فناكروهم، وانتشّبت بينهم موقعة، فضرب سعدٌ رجلاً منهم بفكّ جملٍ، فشجّ رأسه، وكان هذا أول دمٍ أُريق في سبيل الله في الإسلام!

ومواقف سعد في الإسلام أكثر من أن تُحصى، إنّه بطل القادسيّة الذي أذلّ كبرياء الفرس، وأطفأ نار المجوس، وهو بطل المعارك والمحاريب، صاحب المواقف الخالدة، غير أنّه، وكما صرتَ تعرف، أنّه ليس من أغراض الكتاب أن يكون كتاب سيرة، وإنّما نبحث في السّمة الغالبة على شخصيّة الصحابي والمحرّكة له، أو نتتبّع الصّفة التي عُرِف بها، وحديثنا عن سعد بن أبي وقّاص ليس حديثاً في السّمة، وإنّما حديثٌ في الصّفة، والصّفة التي كانت في سعد أنّه كان مجاب الدّعوة!

في كتاب مجمع الزوائد للإمام الهيثميّ، عن سعد بن أبي وقّاص قال: لمّا جال النّاس عن رسول الله ﷺ الجولة يوم أحد، قلتُ: أذودُ عنه، فإمّا أن أستشهد، وإمّا أن أنجو حتّى ألقى رسول الله ﷺ، فبينما أنا كذلك إذا أنا برجلٍ مخمّر الوجه، ما أدري من هو، فأقبل

المشركون يجيئون نحوه، فقلت قد أدركوه، فملأ يده من الحصى، ثمّ رمى به في وجوههم، فمضوا على أعقابهم القهقرى، حتّى صاروا بإزاء الجبل، ففعل ذلك مراراً، وما أدري من هذا وبيني وبينه المقداد، فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه، إذ قال لي المقداد: يا سعد، هذا رسول الله ﷺ يدعوك.

فقلت: وأين هو؟

فأشار المقداد إليه، فقمت وكأنّما لم يُصبني شيء من الأذى!

فقال لي: أين كنتَ منذ اليوم يا سعد؟ وأجلسني أمامه!

فجلستُ أرمي وأقول: اللهمّ سهماً أرمي به عدوّك!

ورسول الله ﷺ يقول: اللّهمّ استجب لسعدٍ، اللّهمّ سدِّد رميه، إيها سعد فداك أبي وأمّي!

فما من سهمٍ أرمي به إلّا قال رسول الله ﷺ: اللّهمّ سدِّد رميته، وأجب دعوته!

والشّاهد في القصّة دعاء النّبيّ ﷺ، وأجب دعوته!

وروى الطّبرانيُّ في الأوسط من حديث عبد الله بن عباس، أنّه قال: تُليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

فقام سعد بن أبي وقّاص، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني مجاب الدّعوة!

فقال: يا سعد، أطِبْ مطعمك تكُن مُستجاب الدّعوة، والذي نفس

محمدٍ بيده إنَّ العبدَ ليقذف اللُّقمة الحرام في جوفه ما يُتقبَّلُ منه عمل أربعين يوماً، وأيُّما عبد نبت لحمه من الشّحت والرِّبا فالنّار أولى به!

والحديث وإن كان قد ضعّفه أهل الجرح والتّعديل وصنعة الحديث، إلّا أنَّ هناك ما يُقويه في المعنى من الحديث الصحيح!

روى مسلم في صحيحه، أنَّ النّبيّ ﷺ قال: يا أيُّها النّاس، إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلّا طيِّباً، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين!

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

ثمّ ذكر الرّجلَ أشعث أغبر، يمدُّ يده إلى السّماء، يا رب، يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يُستجاب له!

أرأيت كيف أنَّ الطّعام يمنعُ استجابة الدُّعاء؟!

وبمفهوم المخالفة فإنَّ الطّعام الحلال سببٌ من أسباب استجابة الدُّعاء!

يقول سعد بن أبي وقّاص: اجتمعتُ أنا وعبد الله بن جحشٍ يوم أحد، فخلونا في ناحية، فقال لي عبد الله: يا سعد، الا تأتي فندعو الله تعالى؟!

فقلت: يا رب، إذا لقيتُ العدوّ غداً، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثمّ ارزقني عليه الظّفر حتّى أقتله، وآخذ سلبه!

فأمّنَ عبد الله بن جحشٍ على دعائي!

ثمّ رفع عبد الله يديه يدعو، وقال: يا ربّ، ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، أقاتله فيك، ويقاتلني، فيقتلني، ثمّ يجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك يا ربّ، قلت: فيمَ جُدعَ أنفُكَ وأذنك؟

فأقول: فيك، وفي سبيلك!

فتقولَ لي: صدقت!

يقول سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النّهار وقد قُتلَ في سبيل الله، وجُدِع أنفه وأذنه!

وإنّما قال سعد إنّ دعوة عبد الله كانت خيراً من دعوته، لشدّة حُبّه، وحبّ أصحاب رسول الله ﷺ للموت في سبيل الله، فقد كانوا يرونها خير ما يرحل فيها المرء من الدّنيا، وإلّا فإنّ دعوة سعد قد أجيبت في ذلك اليوم أيضاً، فقد كان مُجاب الدّعوة!

وسمع سعد بن أبي وقّاص رجلاً يقعُ في الزّبير بن العوام، وفي عثمّان بن عفّان، وفي عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنهم أجمعين، فقال له: يا هذا، لا تقع في أصحاب رسول الله ﷺ وفي إخواني!

فما سمعَ الرّجلُ منه، وبقيَ على حاله يقعُ فيهم!

فصلّى سعد ركعتين، ثمّ رفع يديه إلى السّماء يدعو، فقال: اللّهمّ سخطًا لكَ ولأوليائك، أرِني فيه آيةً، وعبرةً للنّاس!

فسلّط الله تعالى على الرّجل جملاً أهوج، فرفسه، ثمّ جعله تحته يدوسه في صدره حتّى قتله، على شهدٍ من النّاس!

فقال النّاس لسعد: هنيئاً لك يا أبا إسحاق، استجاب الله تعالى لكَ في هذا المجرم!

وروى البخاريُّ من حديث جابر بن سمرة، قال: شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر بن الخطّاب، فعزله عمر، واستعملَ مكانه عمّار بن ياسر.

شَكَوا سعداً حتّى ذكروا أنّه لا يُحسنُ يصلّي بهم!

فأرسل عمر إليه، فقال: يا أبا إسحاق إنّ هؤلاء يزعمون أنّك لا تحسن أن تصلّي بهم!

فقال سعد: أمّا إنّي والله كنت أصلّي بهم صلاة رسول الله ﷺ، ما أخرمُ عنها؟

فقال له عمر: ذاك الظّنُّ بك يا أبا إسحاق!

فأرسلَ معه رجلاً إلى الكوفة يسأل عنه، لم يدع مسجداً إلّا سألَ، والنّاس يثنون معروفاً، حتّى دخلَ مسجداً لبني عبس، فقام رجلٌ منهم يُقال له أسامة بن قتادة، فقال أمّا إذا نشدتنا، فإنّ سعداً كان لا يسير بالسّريّة ولا يقسم بالسّويّة، ولا يعدل في القضيّة!

فقال له سعد: أما والله لأدعونّ بثلاثٍ، اللّهمّ إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياءً وسمعة، فأطِلْ عمره، وأطِل فقره، وعرّضه للفتن!

قال راوي الحديث: فأنا رأيته بعد ذلك قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنّه ليتعرّض للجواري في الطُّرقات يغمزهنّ!

وكان إذا سُئِل عن هذا قال: شيخٌ كبيرٌ مفتون، أصابتني دعوة

سعدا!

وإنّما عزل عمر بن الخطّاب سعداً من غير تهمة، فهو لم يُصدّق ما قيل عنه، ولكنّ عمر كان يكره النّزاع بين الحاكم والرّعية، وهذا من حكمته رضي الله منه! وإلّا فإنّ عمر لما طُعِنَ سمّى سعداً من بين الستّة الذين تكون الخلافة في أحدهم، فلو رآه لا يصلح للإمارة ما رشّحه أساساً للخلافة!

رحم الله سعد بن أبي وقّاص، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عبد الله بن عمر بن الخطّاب!

نعم الرّجلُ عبد الله بن عمر!

بهذه الكلمات أوّل النّبيُّ ﷺ الرّؤيا التي رآها عبد الله بن عمر!

روى البخاريُّ من حديث عبد الله بن عمر، قال: كان الرّجل في حياة النّبيّ ﷺ، إذا رأى رؤيا قصّها على رسول الله ﷺ، فتمنّيتُ أن أرى رؤيا، فأقصُّها على رسول الله ﷺ، وكنتُ غلاماً شابّاً، وكنتُ أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، رأيتُ في النّوم كأنَّ ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النّار، فإذا هي مطويّة كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النّار!

فلقينا مَلَك آخر، فقال لي: لم تُرَعْ!

فقصصتُها على حفصة، فقصّها حفصة على رسول الله ﷺ!

فقال: نِعم الرّجلُ عبد الله بن عمر لو كان يُصلّي من اللّيل!

فكان عبد الله بن عمر بعد ذلك لا ينام من اللّيل إلّا قليلاً!

كان عبد الله بن عمر من أبناء الآخرة، زاهداً في الدّنيا، مطلّقاً لها، يأنفُ أن يطلبها كما لو كانت جيفة، وإذا أتته أدار لها ظهره كما لو كانت منكراً!

في كتاب صفة الصّفوة لابن الجوزيّ، أنّ عبد الله بن عديّ مولى ابن عمر، جاء من العراق، فدخل على عبد الله بن عمر فسلّم عليه، ثمّ قال له: أُهدِيتُ لكَ هدية!

فقال ابن عمر: وما هي؟

فقال : جوارش!

فقال له ابن عمر: وما جوارش؟

فقال له: يهضمُ الطّعام!

فقال له ابن عمر: ما ملأث بطني طعاماً منذ أربعين سنة، فما أصنع به؟

لقد بلغ به الزُّهد حدّ أن يكون نصيبه من الطّعام على مدى أربعين عاماً لُقيمات يُقِمنَ صلبه، وأنّه طوال هذه الأعوام ما ملأ بطنه حدّ التُّخمة أبداً!

وفي سِيَر أعلام النّبلاء للإمام الذّهبيّ، قال نافع مولى ابن عمر:

مرضَ عبد الله بن عمر، فاشتهى عنباً أول ما جاء موسمه، فأرسلت امرأته بدرهمٍ فاشترث به عنقوداً، فتبعَ خادمهم سائلٌ، فلمّا دخل الخادم البيث، أقام السائل على الباب يقول: السّائل، السّائل!

فقال عبد الله بن عمر: أعطوه إيّاه!

ثمّ بعث بدرهمٍ آخر، فاشترى الخادم به عنقوداً، فتبعه السّائل أيضاً، فلمّا دخل الغلام البيث، جعل السّائل يقول: السّائل، السّائل!

فقال ابن عمر: أعطوه إياه!

فأرسلت زوجته إلى السّائل تقول له: والله لئن عُدتَ لا تُصيبُ منّي خيراً!

ثمّ أرسلت الخادم بدرهمٍ ثالثٍ، فاشترى عنقوداً!

تخيّل مدى زهد عبد الله بن عمر، هو مريض وطريح الفراش، والمريض لا يشتهي طعاماً في العادة، ولا يطلبه إلّا إذا وجد في نفسه بعض العافية، وقد كان عبد الله على موعدٍ مع بداية العافية، فاشتهى عنباً يتقوّى به، ويستعيد به صحّته، ومع هذا يُؤثر السّائل على نفسه مرّتين لا مرّةً واحدةً! وهو في حالةٍ مرضيّةٍ أحوج منه إلى قطف العنب من السائل!

وفي حلية الأولياء للأصفهاني، قال أيوب بن وائل الرّاسبيّ: قدمتُ المدينة فأخبرني جارٌ لابن عمر أنّه أتى ابن عمر أربعة آلاف درهم من معاوية، وأربعة آلاف من رجلٍ آخرٍ، وألفان من رجلٍ ثالثٍ!

فجاء ابن عمر إلى السّوق يريدُ علفاً لدابّته بدرهمٍ دَيناً!

فأتيتُ خادمه وقلت له: إنّي أريد أن أسألك عن شيءٍ، وأحبُّ أن تصدُقَنِي!

فقال: وما ذاك!

فقلت: أليس قد أتت أبا عبد الرّحمن عشرة آلاف درهم؟

فقال: بلى.

فقلت: فإنّي رأيته في السّوق يطلبُ علفاً لدابّته بدرهمٍ دَيناً!

فقال: ما بات حتّى فرّقها جميعها على فقراء المسلمين!

كان المال إذا أتى ابن عمر سارع إلى توزيعه كأنّه حِملٌ ثقيل يريد أن يلقيَه عن ظهره! كان يعيش في الدّنيا كأنّه زائرٌ خفيفٌ يعرف أنّه

عمّا قليلٍ راحلٌ عنها، فكان يتزوّدُ فيها لآخرته، وينسى أن يأخذ منها لأيامه!

وفي حلية الأولياء لأبي نعيمِ الأصفهانيّ، قال عروة بن الزُّبير، خطبتُ من عبد الله بن عمر ابنته سَوْدَة ونحن في الطّواف، فسكت ولم يجبني بكلمة!

فقلتُ: لو رضيَ لأجابني، والله لا أراجعه فيها بكلمة أبداً!

فقدّر الله له أن عاد إلى المدينة قبلي، وجئت بعده، فدخلت مسجد رسول الله ﷺ فسلّمت عليه، وأدّيت إليه من حقّه ما هو أهله، ثمّ جئت ابن عمر وهو في المسجد، فسلّمت عليه.

فقال لي: متى قدمت؟

قلت: هذا حين قدومي!

فقال لي: كنت ذكرت لي ابنتي سودة ونحن في الطّواف عند بيت الله الحرام، وكنت قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن! فهل ما زلت على ما تريد؟

فقلت: أحرصُ ما كنتُ عليه قط!

فدعا ابنيه، وقال لهما اشهدا، قد زوّجتُ أختكما سودة لعروة بن الزُّبير!

هذا هو عبد الله بن عمر، وهذا هو زهده في الدُّنيا، لم يكن يسمح لها أن تعترض أمر آخرته مهما كان موضوعها! أراد ألا يصرفه شيءٌ عن الطّواف بالبيت الحرام، والدُّعاء لربه، حتّى أنّه لم يقل هذا ليس

وقته، أو نتحدث به لاحقاً، أو إذا جئتَ المدينة فتعال إليّ!

لقد أعرض إعراضاً كاملاً مُزيحاً الدُّنيا من وجه الآخرة!

غير أنّ لعبد الله بن عمر صفةً عُرِف بها غير الزُّهد، فإنّما الزُّهد فقد اشترك فيه مع كثيرين من الصّحابة، وأمّا الصّفة التي انفرد بها وحده فهي الاقتداء بأفعال النّبيّ ﷺ بحذافيرها، ولستُ أعني هنا بالسُّنّة والعبادات، فهذا لم يخرمه الصّحابة قيد أنملة، وإنّما كان يقلّد النّبيّ ﷺ، ويحرص على أن يفعل فعله حتّى في الأفعال الحياتيّة اليوميّة التي كان النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يفعلها بطبيعته البشريّة!

لهذا فإنّ الصّفة التي يمكن إطلاقها على عبد الله بن عمر هي: المُقتدي!

كان عبد الله بن عمر مشهوراً بتتبّع آثار النّبيّ صلّى الله عليه وسلم، ومن ذلك المواضع التي كان يصلّي فيها، وهي على نوعين، الأول: ما كان النّبيُّ ﷺ يقصده بعينه، كالصّلاة في مسجد قباء مثلاً فهذا فعله ابن عمر، وفعله مع الصّحابة أيضاً!

الثاني: ما صلّى فيه النّبيُّ ﷺ لسببٍ غير أنّ الصّلاة قد حضرت فصلّى فيه، وهذا الذي اختصّ به أبن عمر عن سائر الصّحابة!

لهذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: ما كان أحد يتّبع آثار النّبيّ ﷺ في منازله كما كان ابن عمر يتّبعه!

في كتاب أُسد الغابة في معرفة الصّحابة لابن الأثير، أنّ النّبيّ ﷺ نزل يوماً تحت شجرةٍ، فكان عبد الله بن عمر يتعاهدها بالماء حتى لا تيبس!

ولا شكَّ أنَّ هذا من فرط حبّه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، واقتدائه به، وإكرام كلّ شيءٍ جاوره يوماً!

وروى أبو داود عن نافع مولى ابن عمر، أنّ النّبيّ ﷺ قال يوماً: لو تركنا هذا الباب للنساء.

ثمّ إنّهم بعد ذلك لمّا وسّعوا المسجد، واستحدثوا للنساء غيره، ولكن ابن عمر بقي لا يدخل من هذا الباب أبداً حتّى مات!

ولا شكّ أنّ قول النّبيّ ﷺ من باب تسهيل دخول النّساء إلى المسجد، واستحداث بابٍ غيره يفي بالغرض بعد ذلك، ولا حرمة من الدّخول منه، ولكن ابن عمر لشدّة اقتدائه بالنّبيّ ﷺ لم يكن يدخل منه أبداً، في حين كان الصّحابة يدخلون منه بعد ذلك حين لم يعد للنساء، ولا بأس ولا حرمة في هذا!

وعن مجاهدٍ قال: كنّا مع ابن عمر في سفرٍ، فمرّ بمكانٍ فحاد عنه، فسئل: لم فعلت ذلك؟

فقال: إنّي رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلتُ!

ولا شكّ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يحد عن الطّريق تعبّداً، وانّما لشيءٍ دنيوي عرض له، ولا يخلو سفرٌ من مثل هذا، غير أنّ ابن عمر كان يُقلّد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في كلّ صغيرة وكبيرة ولو كانت لسببٍ من أسباب الدّنيا!

وعن عاصم الأحول، قال: كان إذا قيل لعبد الله بن عمر: إنّ النّبيّ ﷺ وضع رأسه على هذا الجدار، فإنّه يضع رأسه عليه!

وعن نافع مولى ابن عمر قال: لو رأيت ابن عمر إذا اتّبع أثر النّبيّ

ﷺ لقلت: هذا مجنون!

وعن عاصم الأحول قال: كان ابن عمر إذا رآه أحدٌ ظنّ أنّ به شيئاً من تتبّعه لآثار النّبيّ ﷺ!

وعن نافع، أنّ ابن عمر كان في طريق مكّة يمسك بزمام راحلته ويثنيها، ويقول: لعلّ خُفاً يقع على خفٍّ!

يعني أن تضع راحلته خفّها حيث وضعت ناقة رسول الله ﷺ خفّها!

هذا هو عبد الله بن عمر، وهذا هو اقتداؤه بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى في أفعاله البشريّة، فإن بالَ النّبيّ ﷺ في مكان حرص ابن عمر بعد ذلك أن يبول فيه!

رحم الله عبد الله بن عمر، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عبد الله بن عمرو بن العاص!

**نِعمَ أهلُ البيت: عبد الله، وأبو عبد الله، وأمُّ عبد الله!**

بهذه الكلمات أثنى النّبيُّ ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى أبيه، وعلى أمّه! كان حريصاً على الجنّة بشكل لا يُوصف، لا يسمعُ بطريقٍ مؤدّيةٍ إليها إلّا سلكها، ولا برجلٍ عنده علمٌ عنها إلّا أتاه!

روى الإمام أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك، قال: كنّا جلوساً مع رسول الله

ﷺ، فقال: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنّة!

فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلّق نعليه في يده الشّمال، فلمّا كان الغد، قال النّبيُّ ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرّجل مثل المرّة الأولى!

فلمّا كان اليوم الثالث، قال النّبيُّ ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرّجل على مثل حاله الأولى!

فلمّا قام النّبيُّ ﷺ، قام عبد الله بن عمرو بن العاص، وتبع الرّجل، وقال: إنّي لا حيث أبي / اختلفت معه، فأقسمت ألّا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلت.

فقال له الرّجل: نعم.

وكان عبد الله يُحدّث أنّه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنّه إذا تعارّ وتقلّب على فراشه ذكر الله عزّ وجلّ وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر.

قال عبد الله: غير أنّي لم أسمعه يقول إلّا خيراً.

فلمّا مضت الثّلاث ليالٍ، وكدت أحتقرُ عمله، قلت: يا فلان، إنّي لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر، ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرّاتٍ: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنّة! فطلعت أنت في المرات الثّلاث، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي بك، فلم أركَ تعمل كثير عملٍ، فما الذي بلغ بك ما قال النّبيُّ ﷺ؟!

فقال: ما هو إلّا ما رأيت، غير أنّي لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشّاً، ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه!

فقال له عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق!

بلغَ به حرصه على الجنّة أن يدّعي خلافاً بينه وبين أبيه ليكون في ضيافة الرّجل الذي قال عنه النّبيُّ ﷺ إنّه من أهل الجنّة، أراد أن يلازمه، أن ينظر في حاله عن قرب، أن يعثر على ذلك الشيء الذي بلغ بالرجل هذا المبلغ فيلزمه.

وأخيراً عرف ذلك السّرّ، إنّه عبادة القلوب لا عبادة الجوارح، عبادة حُبّ الخير لنّاس وترك الحسد، ونظر العبد إلى ما أعطاه الله بين يديه، وترك النّظر إلى ما في أيدي النّاس، وترك الغشّ قولاً وفعلاً!

عبد الله لم يترك السّرّ لنفسه، اكتشفه وأذاعه، تخيّل معي لو بقىَ الخبر معلقاً دون أن يميط عنه عبد الله بن عمرو اللّثام، كنّا سنبقى حتّى اليوم نتمنى لو نعلم ما فعلَ ذلك الرّجل ليستحقّ الجنّة!

عبد الله بن عمرو لم يكتشف طريقا فرديا، وإنّما وضع على تلك الطّريق أقدام أمّة كاملة!

على أنّ السّمة الغالبة والحركة لشخصيّة عبد الله بن عمرو بن العاص هي شخصيّة العابد، هذه الشخصيّة التي تجد في العبادة لذّتها، وقدّمها على كلّ لذّة سواها، إنّها لا تترك الحرام للحلال فقط، وإنّما تترك المباح لأجل العبادة، هذه السّمة كانت جلية واضحة في شخصيّة عبد الله بن عمرو بن العاص!

روى الإمام أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال: زوّجني أبي امرأةً من قريش، فلمّا دخلت عليّ جعلت لا أنحاش لها مما بي من القوة على العبادة من الصوم والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كنّته حتى دخل عليها، فقال لها: كيف وجدت زوجك؟

فقالت: خير الرّجال، غير أنّه لم يُفتّش لنا كنفاً، ولم يعرف لنا فراشاً!

فأقبل عليّ فلامنى وعضّني بلسانه، وقال: أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها، وفعلت، وفعلت!

ثمّ انطلق إلى النّبيّ ﷺ، فشكاني!

فأرسل لي النّبيّ ﷺ، فأتيته.

فقال لي: أتصوم النّهار؟

قلت: نعم.

قال: وتقوم اللّيل؟

قلت: نعم.

فقال: لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأنام، وأمسّ النّساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني!

لتفهم شخصيّة العابد التي كان عليها عبد الله بن عمرو بن العاص، عليك أن تعرف تلك الحقبة من عمره التي جرى فيها هذا الحديث، نحن لا نتحدث عن شيخ هرمٍ عزف عن العلاقة الزّوجيّة عجزاً عنها، فأقبل على الآخرة يأخذ حظه منها!

نحن نتحدّث عن رجلٍ في ريعان شبابه، جسده يتفجّرُ طاقةً وقوةً ورغبةً، نحن نتحدّث عن رجل لديه القدرة أن يصوم كلّ الأيام، ويقوم كلّ الليالي، ولكن حبّ العبادة عنده قد طغى على كلّ شيء!

طبعاً التوازن مطلوب، والإقبال على العبادة بهذا الشكل، ومعه إهمال الزّوجة ليس من السّنّة، وقد بيّن النّبيّ ﷺ هذا لعبد الله، وانّما نتحدّث من باب التوصيف، إذ إنّ غرض هذا الكتاب أن يريك الصّحابة من الداخل، وقد كان داخل عبد الله بن عمرو محراباً!

وروى الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: كنت أصوم الدّهر، وأقرأ القرآن كلّ ليلة.

فذُكرتُ للنّبيّ ﷺ، فأرسل لي فأتيته.

فقال: ألم أُخبرْ أنّك تصوم الدّهر، وتقرأ القرآن كلّ ليلة؟

فقلتُ: بلى يا نبيّ الله، ولم أُرِد بذلك إلّا الخير.

فقال: فإنّ بحسبك أن تصوم من كلّ شهرٍ ثلاثة أيام.

فقلت: يا نبيّ الله، إنّي أُطيق أفضل من ذلك!

فقال: فإنّ لزوجك عليكَ حقاً، ولزَوْرِكَ عليكَ حقًّا، ولجسدكَ عليك حقاً، فصُمْ صوم داود نبيّ الله ﷺ، فإنّه كان أعبد النّاس!

فقلت: يا نبيّ الله، وما صوم داود؟

قال: كان يصومُ يوماً، ويفطرُ يوماً!

واقرأ القرآن في كل شهرٍ!

قلت: يا نبيّ الله، إنّي أطيق أفضل من ذلك!

فقال: فاقرأه كلّ عشرين.

قلت: يا نبيّ الله إنّي أطيق أفضل من ذلك!

فقال: فاقرأه كلّ عشرٍ.

قلت: يا نبيّ الله، إنّي أطيق أفضل من ذلك!

فقال: اقرأه كلّ سبعٍ، ولا تزد على ذلك، فإنّ لزوجك عليك حقّاً، ولزورك عليك حقّاً، ولجسدك عليكَ حقّاً!

فشدّدتُ فشدّدَ عليّ، وقال لي النّبيُّ ﷺ: إنّكَ لا تدري لعلّكَ يطول بكَ عمر.

فصرتُ إلى الذي قال لي النّبيُّ ﷺ، فلمّا كبرتُ وددتُ أنّي كنتُ قَبلتُ رخصة النّبيّ ﷺ!

طبعا اتفقنا أنّ التوازن مطلوب، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقّه من هدي النّبوة، ومن أسس هذا الدّين الحنيف، فلا تشغلنا هذه النّقطة البدهيّة من التفرّس في شخصيّة العابد لدى عبد الله بن عمرو بن العاص، إنّنا مع نوعٍ من الرّجال لا ينظرُ إلى المأمور به كأغلب النّاس، ولا إلى المندوب له كقلّتهم، ولكنّه يفعل فعل الخواص من عباد الله، إنّه يُراجع النّبيّ ﷺ ليأذنَ له أن يتعبّد أكثر، والنّبيُّ ﷺ ينهاه تارة،

ويُرشده أخرى.

فإن كنت ترى أنّ هذا فيه شيئاً من الغرابة، فأغرب منه أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص بقي حتى آخر عمره يعتبرُ أنّ ما اتّفقَ عليه مع النّبيّ ﷺ من النّوافل هو فرائض في حقِّه!

ظلّ يقوم به كما كان يقوم به في شبابه، رغم أنّه في شبابه كما في شيخوخته هو نوافل، ولكنّه كره أن يُغادر الدُّنيا على غير العهد الذي قطعه للنبيّ ﷺ!

في كتاب حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني، قال مجاهد: كان عبد الله بن عمرو بن العاص حين ضعف وكبِر يصوم الأيام كذلك، يصل بعضها إلى بعضٍ، ليتقوى بذلك، ثمّ يفطر بعد ذلك الأيام!

وكان يقرأ من أحزابه كذلك، يزيدُ أحياناً، ويُنقص أحياناً، غير أنّه يوفي به المدّة، أمّا في سبعٍ، أو في ثلاثٍ!

ثمّ كان يقول بعد ذلك: لأن أكون قبلث رخصة رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ مما عدل، لكنّي فارقته على أمرٍ أكره أن أخالفه إلى غيره!

سبحان من جعلَ هذا الدّين رحمة، وهذا النّبيّ رحمة، والتزام المرء بهدي النّبيّ ﷺ فيه الخير للإنسان ولمن معه، فإنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم.

على أنّ ما كان عليه عبد الله بن عمرو من العبادة لا يُذمُّ بحالٍ، فليس للبرِّ حدٌّ، وإنّما نتحدّث عن رأفة الإنسان بنفسه، وبمن معه، وإلّا فليت لي ولك قلب عبد الله بن عمرو!

رحم الله عبد الله بن عمرو بن العاص، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم

# القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# طلحة بن عُبيد الله!

من أراد أن ينظر إلى شهيدٍ يمشي على رجليه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله!

بهذه الكلمات كان يشيرُ النّبيُّ ﷺ إلى طلحة!

وهو الصّحابيُّ الوحيد الذي لقّبه النّبيُّ ﷺ بثلاثة ألقابٍ!

طلحة الخير، وطلحة الفيّاض، وطلحة الجود!

ناداه النّبيُّ ﷺ يوم أحدٍ قائلاً: يا طلحة الخير!

وناداه يوم خيبر قائلاً: يا طلحة الجود!

وناداه يوم ذي قرد قائلاً: يا طلحة الفيّاض!

وكان النّبيُّ ﷺ إذا رأى طلحة قال: طلحة سلفي في الدُّنيا، وسلفي في الآخرة، هذا لأنّ زوجته أمُّ كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، فهو عديل النّبيِّ!

وقال النّبيُّ ﷺ: طلحة والزُّبير جاراي في الجنّة!

نحن الآن على موعدٍ مع بطلٍ من أبطال الإسلام، إنّه طلحة بن عُبيد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنّة، وأحد السّتة الذين عيّنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد إصابة ليكون الخليفة من بعده واحداً منهم، وثاني رجلٍ بايع النّبيّ ﷺ بعد أبي بكر الصّديق!

يروي طلحةُ قصّة إسلامه فيقول: كنتُ مرّةً في سوق بُصرى، فسمعتُ راهباً يسأل عن أيِّ رجلٍ قادمٍ من أرض الحرم، فقلت: أنا من

أرض الحرم!

فقال: هل خرج أحمد؟

قلت: ومن أحمد؟

قال: ابن عبد المطّلب، آخر الأنبياء، فهذا شهر خروجه، وإنّه يُبعث في أرض الحرم، ويهاجر إلى نخلٍ وحرّةٍ وسباخ، فإيّاك أن يسبقك أحدٌ بالإيمان به!

فعدتُ إلى مَكّة، وسألت: هل حدث شيءٌ في غيبتي؟

فقالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمين قد تنبّأ، وتبعه ابن أبي قحافة!

فذهبت إلى أبي بكرٍ فسألته: أتبعتَ هذا الرّجل؟

فقال، نعم، فانطلق إليه فاتّبِعه.

فانطلقتُ، ودخلتُ على رسول الله ﷺ فبايعته، وقصصتُ له قصّة راهب بُصرى، فسُرّ رسول الله ﷺ!

روى القصّة ابن سعدٍ في الطّبقات الكبرى.

كان جوّاداً كريماً، لا يهدأ له بالٌ حتى يُفرّق ما بين يديه على فقراء المسلمين، فجاءه مالٌ من حضرموت سبعمئة ألف درهمٍ، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: ما لك؟

فقال: تفكرت منذ اللّيلة، فقلت: ما ظنُّ رجلٍ بربّه يبيت وهذا المال في بيته؟

فقالت: فأين أنتَ عن بعض أخلائك، فإذا أصبحتَ، فادعُ بجفّانٍ وقصّاعٍ واقسمه!

فقال لها: رحمك الله، إنّك موفّقة بنت موفّقٍ، وكانت زوجته أم كلثوم بنت أبي بكر الصّديق.

فلمّا أصبح دعا بجفّانٍ، فقسمها بين المهاجرين والأنصار، وبعث إلى عليّ بن أبي طالب بجفنة منها.

فقالت له زوجته: يا أبا محمّد، أما كان لنا في هذا المال نصيب؟!

فقال لها: فأين كنت منذ اليوم؟ شأنك بما بقي.

فكان الباقي صرّة فيها ألف درهم!

وجاء أعرابيٌّ إلى طلحة يسأله، وتقرّب إليه برحمٍ.

فقال له طلحة: إنّ هذه لرحمٌ ما سألني بها أحدٌ قبلك، إنّ لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمئة ألف درهم، فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعتُ إليك الثّمن.

فقال الأعرابيُّ: الثّمن.

فباع طلحة الأرض إلى عثمان، وأخذ المال، ودفعه إلى الأعرابيّ!

والآن يصلُ بنا المطاف، على عهدنا في هذا الكتاب، إلى الحديث عن الصّفة الغالبة والمحركة لشخصيّة طلحة بن عُبيد الله، إنّها شخصيّة المغوار!

هذه الشّخصيّة التي تتسّم بالجرأة كأنّها قد ولدت من رحم المعارك!

وتتسم بالشّجاعة كأنّها لا تعبأ بالموت!

إنّها الشّخصيّة التي ينطوي عليها النّاس الذين خُلقوا للمهمّات الفدائيّة الصّعبة، إنّها شيءٌ يشبه في زماننا قوات المهمّات الخاصّة، أو قوات النّخبة!

كان طلحة مغواراً بكلّ ما للكلمة من معنى!

روى النّسائيّ في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله، قال: لمّا كان يوم أُحد، وولّى النّاس، كان رسول الله ﷺ في ناحية، في اثني عشر رجلاً من الأنصار، وفيهم طلحة بن عُبيد الله، فأدركهم المشركون، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: من للقوم؟

فقال طلحة: أنا يا رسول الله أنا!

فقال رسول الله ﷺ كما أنت!

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله.

فقال له النّبيّ ﷺ: أنتَ!

فقاتل الأنصاريّ حتّى قُتِل.

ثمّ التفت النّبيّ ﷺ، فإذا المشركون، فقال: من للقوم؟

فقال طلحة: أنا يا رسول الله!

فقال له النّبيّ ﷺ: كما أنت!

فقال رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسول الله.

فقال له النّبيّ ﷺ: أنت!

فقاتل الأنصاريُّ حتّى قُتِلَ.

ثمّ لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجلٌ من الأنصار، فيقاتل قتال من قبله حتّى يُقتَل، حتّى بقي النّبيُّ ﷺ وطلحة بن عُبيد الله!

فقالَ النّبيُّ ﷺ: من للقوم؟

فقال طلحة: أنا!

فقاتل طلحةُ قتال الأحد عشر، حتى ضُربث يده، فقُطعث أصابعه، فقال: حَسِّ!

فقال له النّبيُّ ﷺ: لو قلت بسم الله، لرفعتك الملائكة والنّاس ينظرون!

ثمّ ردّ الله المشركين!

وفي صحيح البخاريِّ من حديث قيس، قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النّبيّ ﷺ يوم أحد شلّاء!

هذا هو طلحة، وهذا هو بأسه ومغواريته، انفضّ النّاس عن النّبيّ ﷺ، فبقي معه طلحة وأحد عشر رجلاً من الأنصار، والمشركون يحيطون به، وفي كلّ مرةٍ يستحثُّ النّبيُّ ﷺ الصّحابة لقتال المشركين: من للقوم؟ يسارع طلحة، ويقول: أنا!

وهكذا المغوار، فإنّه يُلقى بنفسه في عيون الموت غير عابئٍ به!

ولكنّ النّبيّ ﷺ يستبقيه، ويقول له: كما أنت! أي الزم مكانك!

واستشهد الأحد عشر أنصاريًا بين يدي النّبيّ ﷺ دفاعاً عنه، ثمّ لم

يبقَ إلّا طلحة، ولم يعد يحتمل المقام كما أنت!

فتقدّم طلحة، وقاتل قتال الأحد عشر رجلاً، أبلى بلاء أحد عشر مقاتلٍ مغوارٍ وحده، ثبتَ في وجه كتيبةٍ كاملةٍ تحاصر النّبيّ ﷺ، دافع عنه وحده دفاع المغاوير، وقاتل بين يديه قتال الأبطال حتى قطعت أصابعه، وشلّت يده!

شهدَ طلحة المغوار مع النّبيّ ﷺ كلّ غزواته، ولكنّه غاب عن غزوة بدرٍ، فقد صادف وقوعها وقت خروجه إلى تجارةٍ له في الشّام، فما عاد إلّا وقد عاد النّبيّ ﷺ إلى المدينة، فتألم لغيبته عن أول مشهد شهده النّبيّ ﷺ مع المشركين، وعلم النّبيّ ﷺ صدقه، فأعطاه النّبيّ ﷺ سهماً من الغنائم كمن شهد غزوة بدر!

أمّا غزوة أحدٍ فقد كانت غزوة طلحة المغوار بامتياز، فكأنّه كان فيها يعوض الذي فاته في بدر! وقد أسلفنا الحديث كيف شُلّت يده وقُطعت أصابعه وهو يدافع عن النّبيّ ﷺ! غير أنّ هذا الموقف لم يكن موقفه الوحيد في ذلك اليوم!

يوم أحد لبس النّبيّ ﷺ درعين، لا درعاً واحداً، ليعلمنا ثقافة الأخذ بالأسباب، وأنّ صاحب الدّعوة هو أول من يذود عنها!

وعندما خالف الرّماة أمر النّبيّ ﷺ ونزلوا عن الجبل، جرت مقتلة عظيمة بالمسلمين، فانسحبوا إلى الجبل، وتبعهم المشركون، وشُجّ رأس النّبيّ ﷺ، وكُسرت مقدمة أسنانه، وأخذ يمسح الدّم عن وجهه الشّريف، ويقول: كيف يفلحُ قومٌ شجّوا رأس نبيّهم؟

وعند الجبل أراد النّبيّ ﷺ أن يصعد على صخرةٍ فلم يستطِع بأبي

هو وأمّي بسبب ثقل الدّرعين، وما أصاب الجسد الشّريف من جراحٍ، عندها انحنى طلحة بن عُبيد الله وجعل من جسمه درجاً يرقى عليه النّبيّ ﷺ ليصعد الصّخرة، فلمّا وصل إليها، قال: أوجب طلحة: أي وجبت له الجنّة!

أوجبَ طلحة لأنّه جعل من نفسه سُلّماً يرقى عليه النّبيّ ﷺ، ولكن باب الوجوب لم يُغلق بعد، فما زال بإمكاننا أن ندركَ طلحة! النّبيّ ﷺ ليس معنا بجسده لنذلل له الظهور والرّقاب ليصعد عليها، ولكن شرعه ودينه وسُنّته بيننا، وكلُّ من حمل هذا الدّين على عاتقه ليرقى فقد أوجب، وأدرك طلحة بإذن الله!

أيُّها المجاهد الذي وضع روحه على كفِّه إعلاءً لكلمة لا إله إلّا الله، قد أوجبت!

أيُّها الدّاعية الذي قال كلمة الحقِّ، ولم يخشَ في الله لومة لائمٍ، ودلّ النّاس على اللهِ، قد أوجبتَ!

أيّتها الفتاة التي امتثلت أمر النّبيّ ﷺ بالحجاب والعفّة، ليعود الإسلام سيرته الأولى، قد أوجبتِ!

أيُّها الشّاب الذي راوده الإعلام الهابط عن دينه، فقال: معاذ الله، وزاحم في حِلقِ الذِّكر، وحلقات التّحفيظ، وأدام السّير إلى المسجد، قد أوجبتَ!

أيُّها الأبُ الذي أمر أولاده بالصلاة أبناء سبعٍ، ودرّبهم على الصّيام من نعومة أظافرهم، قد أوجبتَ!

أيُّها المدرِّس الباحث بين تلاميذه عن أبي بكرٍ وعمر، قد أوجبت!

أيها الطّبيب الإنسان، وأيّها التّجار الصّادق، وأيّها الموظّف الأمين، وأيّها الابن البار، وأيّها الجار الصالح، وأيّها الأخ الحنون، وأيّتها الزّوجة المحبّة، وأيّتها الكنّة الخلوقة، قد أوجبتم جميعاً!

فكلمّا ضاقت الدّنيا بكم، وراودتكم عن أخلاقكم ودينكم، تذكروا أنّ الجنّة قد وجبت لطلحة لأنّه كان سلْماً لهذا الدّين، وتخيّلوا النّبيّ ﷺ يقول: أوجبت يا فلان، وينطق اسمكَ!

وختاماً، وحديث طلحة لذيذ، ولا تُطاوع النّفس ختمته، جاء أعرابيٌّ من البادية ليسأل النّبيّ ﷺ شيئاً، فطلب منه الصّحابة أن يسأله عمّن قضى نحبه، في قول الله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ وكانوا لا يجترؤون على مسألتة ﷺ، يُوقرونه ويَهابونه.

فسأله الأعرابيّ، فأعرض عنه النّبيّ ﷺ.

ثمّ أعاد الأعرابيّ السّؤال، فأعرض عنه النّبيّ ﷺ، وفي هذا الأثناء دخل طلحة بن عُبيد الله المسجد، عليه ثيابٌ خُضرٌ.

فقال النّبيّ ﷺ: أين السائل عمّن قضى نحبه؟

فقال الأعرابيّ: أنا!

فأشار النّبيّ ﷺ إلى طلحة، وقال: هذا ممّن قضى نحبه!

رحم الله طلحة بن عبيد الله، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# زيد بن ثابت!

وأَفْرَضُهُم زيد بن ثابت!

بهذه الكلمات توّج النّبيُّ ﷺ زيد بن ثابت!

علّق على صدره وساماً نبويّاً رفيعاً رتبته: أعلمُ هذه الأمّة بالفرائض!

روى التّرمذيُّ، وأبو يعلى، والبيهقيُّ، من حديث عبد الله بن عمر، أنّ النّبيّ ﷺ قال: أرأفُ أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر، وأصدقُهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبيّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإنّ لكلّ أمّةٍ أميناً، وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح.

نشأ زيد بن ثابتٍ يتيماً، فقد توفي والده يوم معركة بُعاث وكان زيد ابن خمسة سنوات، وأسلم هو صبيٌّ قبل مقدم النّبيّ ﷺ إلى المدينة، ويوم مجيء النّبيّ ﷺ مهاجراً كان زيد ابن إحدى عشرة سنة!

صحبه أعمامه معهم إلى غزوة بدر، ولكنّ النّبيّ ﷺ أرجعه لصغر سنّه وجسمه!

وفي غزوة أحد، ذهب مع ثمانية من أترابه إلى النّبيّ ﷺ يرجون أن يضمّهم إلى الجيش، وقدّر النّبيُّ ﷺ هذا منهم، ولكنّه همّ بردّهم لصغر سنّهم، فتقدّم رافع بن خديج إلى النّبيّ ﷺ وهو يحمل حربته، وقال: يا رسول الله، إنّي كما ترى، أجيد الرّمي، فأذَنْ لي!

فأذن له النبي ﷺ.

وتقدم سَمُرة بن جندب، وقال أهله: يا رسول الله، إن سَمُرة يصرع رافعاً!

فأذِن له النّبيُّ ﷺ.

وبقي ستّةٌ من الأشبال منهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، بذلوا جهدهم بالرّجاء، والدّمع، واستعراض العضلات، لكنّ أعمارهم صغيرة، وأجسادهم غضّة طريّة، فردّهم النّبيُّ ﷺ، ووعدهم أن يأخذهم في الغزوة المقبلة.

لهذا كان أول مشهد شهده زيد بن ثابت مع النّبيّ ﷺ هو غزوة الخندق، وكان ينقل التراب مع المسلمين، فقال عنه النّبيُّ ﷺ، إنّه نِعْمَ الغلام!

وإنّك لترى حماسة زيد بن ثابت واندفاعه في سبيل الله منذ نعومة أظافره، لم يكن قد بلغ مبلغ الرّجال بعد غير أن فيه شجاعتهم وجرأتهم، يتقدّم إلى غزوة بدر، ثمّ إلى غزوة أحد، وفي كلّ مرّة يُرجعه النّبيُّ ﷺ رحمةً به لصغر سنّه، وضعف جسمه!

كان لزيد بن ثابت في هذه الحياة شأنٌ آخر، وقضى الله تعالى أن يكون جهاده من نوعٍ فريدٍ، وسيأتي الحديث عن هذا لاحقاً!

له في يوم السّقيفة موقفٌ مشهودٌ لا يمكن القفز عنه وتجاهله، إذ كان في موقفه هذا أبلغ الأثر في أن جمع الله به كلمة المسلمين!

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: لمّا توفيَ رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل الرّجل منهم يقول: يا معشر المهاجرين، إنّ رسول الله

ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرنَ معه رجلاً منّا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان، أحدهما منكم، والآخر منّا.

فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإنّ الإمام يكون المهاجرين، ونحن أنصاره كما كنّا أنصار رسول الله ﷺ.

فقام أبو بكرٍ فقال: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبّت قائلكم، أما لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم.

ثمّ أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكرٍ فقال: هذا صاحبكم فبايعوه.

فقام النّاس فبايعوا أبا بكرٍ، وجمع الله بزيدٍ كلمة المسلمين!

ولأنّ غرض الكتاب الرّئيس أن نعمد فيه إلى السّمة الغالبة والمحرّكة في شخصيّة الصّحابيّ، أو إلى الصّفة التي عُرِف بها، وزيد بن ثابت هو مزيج من هذا وذاك، فقد كان معجزةً لُغويّة!

لمّا قدم النّبيّ ﷺ المدينة المنوّرة، جاء بنو النّجار بزيد بن ثابت إليه، ولم يكن يومها قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، فقالوا: يا رسول الله، هذا زيد بن ثابت، يحفظ من القرآن ما يسرُّك!

فاستقرأه النّبيّ ﷺ، فقرأ له سورة «ق»، فأُعجِب به، ولاحظ فيه ذكاءً وقّاداً، وعقلاً منيراً، فقال له: يا زيد تعلّم في كتاب يهود، فإنّي والله ما آمن يهود على كتابي!

فما مضت خمسة عشرة ليلةً إلّا وقد تعلّم زيدٌ العبريّة، فكان يكتب للنّبيّ ﷺ إذا أراد أن يكتب إليهم، ويقرأ رسائلهم إذا كتبوا إليه.

وبعدها بمدّةٍ قصيرةٍ، قال النّبيّ ﷺ لزيد بن ثابت: أتُحسِنُ السّريانيّة؟

فقال له زيدٌ: لا!

فقال له النّبيّ ﷺ: فتعلّمها، فإنّه تأتينا كتب!

فتعلّمَها زيدٌ في سبعة عشر يوماً!

قال الأعشى معلّقاً: كانت تأتيه كتبٌ يشتهي ألا يطّلِع عليها إلّا من يثِقُ به، ومن هنا أُطلِق على زيدٍ لقب تُرجُمان الرّسول!

نحن لا نعيش وحدنا على ظهر هذا الكوكب، هناك شعوبٌ وثقافاتٌ وحضاراتٌ ولغاتٌ أخرى نحتكّ بها، ونتواصل معها، ومعرفة هذه الثّقافات، وإتقان تلك اللّغات ضرورةٌ حياتيّة، وليست ترفاً فكريّاً!

على أنّ إتقان تلك اللّغات لأجل التّواصل وتسيير أمور الحياة شيءٌ، وإتقانها لأجل التّباهي بها شيءٌ آخر!

اللّغة الإنكليزيّة اليوم هي لغة العلوم، وبها يدرس أغلب طلابنا خصوصاً في الاختصاصات العلميّة، وتحصيل هذه الاختصاصات واجب، وتعلّم اللّغة الإنكليزيّة واجبٌ على الطّلاب الدّارسين، لأنّ ما لا يتمُّ الواجب إلّا به فهو واجبٌ!

هذا هو حدُّ الموضوع لا أكثر، أمّا أن يتحدّث عربيٌّ مع عربيٍّ، ويضع بين كلّ كلمتين عربيّتين كلمةً إنكليزيّةً أو فرنسيّةً من باب التّباهي، فهذا فيه من المياعة، والانهزام الحضاريّ والثّقافيّ، أكثر ممّا فيه من العلم!

هذا في حال كان المتحدثّان العربيّان يُتقنان الانكليزيّة، أمّا فعل هذا مع العوام ففيه شيءٌ من الاستعلاء والغرور!

الذكاءات متعدّدةٌ، هذه حقيقةٌ تربويّةٌ لا جدال فيها، من الطّلاب من لديه ذكاءٌ لُغويٌ رهيبٌ، ولكنّه ضعيفٌ في الرّياضيّات، ومنهم من هو عبقريٌ في الفيزياء، أو الكيمياء، ولكنّه لا يستطيع أن يحفظ فقرةً من عشرة أسطرٍ إلّا بشقِّ الأنفس، ومنهم من يجد حفظ عشر صفحاتٍ أيسر عليه من حساب مساحة مستطيلٍ!

ودَور الأهل والمدرسة معرفةُ المجال الذي يبرع فيه الطالب ثمّ توجيهه إليه، وهذا ما فعله النّبيُّ ﷺ تماماً!

فعندما لاحظ ذكاء زيد بن ثابت اللُّغويّ طلب منه أن يتعلّم العبريّة، ثمّ السريانيّة فتعلّمها زيدٌ في وقتٍ قياسيٍّ!

والشيء بالشيء يُذكر، يقول ابن كثيرٍ: كان زيد بن ثابت من أشدّ النّاس ذكاءً تعلّم لسانَ يهودٍ في خمسة عشر يوماً، وتعلّم الفارسيّة من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلّم الحبشيّة والرّوسيّة والقبطيّة من خُدّام النّبيّ ﷺ!

أفهم جيّداً رغبة الأهل في أن يكون أولادهم أطبّاء ومهندسين، ولكن على الأهل أن يفهموا أنّ إجبار الأولاد على اختصاصاتٍ لا يجدون أنفسهم فيها هي ظلمٌ لهم! ما أدراك لو أنّه درس ما يميل إليه ويبرع فيه، لَفَاقَ ألفَ طبيبٍ ومهندسٍ!

تخيّلوا لو أُجبِر المتنبّي أن يدرس الطبّ ويترك الشعر، حتماً لم تكن البشريّة لتربح كثيراً لو ازدادت طبيباً، ولكنّها فاجعة لو خسرنا

المتنبّي!

ووصلاً لما انقطع، كانت رايةُ بني النّجار يوم تبوكٍ مع عمارة بن حزمٍ، فأخذها النّبيُّ ﷺ منه، وأعطاها إلى زيد بن ثابت.

فقال عمارة: يا رسول الله، بلغك عنّي شيءٌ؟!

فقال له النّبيُّ ﷺ: لا، ولكن القرآن مُقدّم، وزيدٌ أكثر أخذاً منك للقرآن!

ما كان لزيدٍ أن يبرع في اللُّغات ويفوته القرآن، فالقرآن إنّما نزل بلسان العرب، فهو لغةٌ، وكان زيدٌ يكتبُ الوحي للنّبيّ ﷺ.

وقد قرأ زيد بن ثابت القرآن على النّبيّ ﷺ مرّتين في العام الذي توفاه الله فيه، وسُمِّيت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت، لأنّه كتبها للنّبيّ ﷺ، وقرأها عليه، وشهِد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ النّاس بها حتّى مات!

وبعد وفاة النّبيّ ﷺ، اشتغل المسلمون بحروب الرّدّة، وفي معركة اليمامة كان عدد الشهداء من حفّاظ القرآن كبيراً، فما إن استَتَبّ الأمر حتّى فزع عمر بن الخطّاب إلى الخليفة أبي بكرٍ يرغّبه في جمع القرآن قبل أن يدرك الموت بقيّة الحفّاظ!

واستخار أبو بكرٍ ربّه، وشاور أصحابه، ثمّ بدا له أن يجمع القرآن، فدعا زيد بن ثابت، وقال له: إنّك غلامٌ عاقلٌ لا نتّهِمُك.

وأمره أن يجمع القرآن، فنهض بالمهمّة وأبلى بلاءً عظيماً فيه، مستشعراً عِظَم المسؤوليّة الملقاة على كاهله، وفي هذا يقول: واللهِ لو كلّفوني نقل جبلٍ من مكانه، لكان أهون عليّ ممّا أمروني به من

جمع القرآن!

وفي خلافة عثمان بن عفّان، كان الاسلام يستقبل كلّ يومٍ أناساً جدداً عليه، فبدأت الألسنة تختلف في القرآن، فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان، وقال له: أدرِك المسلمين لا يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنّصارى في التّوراة والإنجيل!

وسبب قوله أنّ نسخاً من القرآن صار يكتبها البعض بألسنتهم!

فقال عثمان: من أكتب النّاس؟

فقالوا: كاتب رسول الله، زيد بن ثابت.

فقال: فأيُّ النّاس أغرَبُ؟

قالوا: سعيد بن العاص، وكان سعيد أشبه لهجةً بالنّبيّ ﷺ.

فقال: فَلْيُمْلِ سعيدٌ، وليكتب زيدٌ!

فتمّ جمع القرآن الجمعة الأخيرة التي بين أيدينا اليوم، وحرق عثمان كلّ ما عداها من المصاحف!

ونحن نقرأ اليوم، والملائكة تكتب في صحيفة زيد بن ثابت.

رحم الله زيد بن ثابت، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# سعيد بن زيد!

وسعيدٌ في الجنّة!

بهذه الكلمات قلّد النّبيُّ ﷺ سعيد بن زيد أرفع وسامٍ إنّه وسام الجنّة، وما يريد المرء أكثر منه إن ناله؟! وما الذي يعوّض المرء عنه إن فاته؟!

روى التّرمذيُّ من حديث عبد الرحمن بن عوف، أنّ النّبيّ ﷺ قال: أبو بكرٍ في الجنّة، وعمر في الجنّة، وعثمان في الجنّة، وعليٌّ في الجنّة، وطلحة في الجنّة، والزُّبير في الجنّة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنّة، وسعد في الجنّة، وسعيدٌ في الجنّة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنّة!

إنّه سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحد السّابقين الأوّلين إلى الإسلام، فقد أسلم قبل أن يدخل النّبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم!

أبوه زيد بن عمرو بن نُفيل واحدٌ من أعاجيب الزّمان، مؤمنٌ بالفطرة، رافضاً لدين قريش الباطل دون وحيٍ ولا رسالةٍ!

لَقِيه النّبيُّ ﷺ قبل البعثة الشريفة، وكان يومها شيخاً كبيراً، فَقُدِّم إليه شفرةٌ فيها لحم، فأبى أن يأكل منها، وقال: لا آكل ممّا تذبحون على أنصابكم، أنا لا آكل إلّا ما ذُكِر اسم الله عليه!

روى البخاريُّ من حديث عبد الله بن عمر، قال: خرج زيدٌ إلى الشّام يسأل عن الدِّين ويتّبعه. فلقِي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إنّي لعلّي أن أدين دينكم، فأخبرني!

فقال له اليهوديُّ: لا تكون على ديننا حتّى تأخذَ بنصيبك من غضب الله!

فقال له زيدٌ: ما أفرُّ إلّا من غضب الله، ولا أحمِلُ من غضب الله شيئاً أبداً، وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلُّني على غيره؟

فقال له اليهوديُّ: دينُ إبراهيم، لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيدٌ فلقِيَ عالماً من النّصارى، فقال له مثل ما قال اليهوديُّ.

فقال له النّصرانيُّ: لن تكون على ديننا حتّى تأخذ بنصيبك من لعنة الله!

فقال له زيدٌ: ما أفرُّ إلّا من لعنة الله، ولا أحمِل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنّى أستطيع؟ فهل تدلُّني على غيره؟

فقال له: ما أعلمه إلّا أن تكون حنيفاً!

فقال له زيدٌ: وما الحنيف؟

فقال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً، ولا يعبد إلا الله!

فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم عليه السلام، خرج، ورفع يديه، وقال: اللهمّ إنّي أُشهدك أنّي على دين إبراهيم!

توفي زيدٌ قبل البعثة الشريفة ولم يدرك الإسلام، فقال سعيدٌ للنّبيِّ ﷺ: يا رسول الله، إنّ أبي كان كما قد رأيت وبلغك، ولو أدركك لآمن بك واتّبعك، فاستغفر له!

فقال له النّبيّ ﷺ: نعم، أستغفر له، فإنّه يُبعث أمّة وحده بيني وبين عيسى!

وبالعودة إلى سعيد بن زيد، وتحديداً إلى السّمة الغالبة والمحرّكة لشخصيّته أهمّني أوّل الأمر أنّي وبعد قراءاتٍ عديدةٍ، وتأمّل وتفرّسٍ لم أعثر على سمةٍ بارزةٍ له، ولا على صفةٍ واحدةٍ عُرف فيها!

ثمّ بعد ذلك أردتُ ألا أتناول هذه الشخصيّة في هذا الكتاب، فمن الطبيعي أنّي لن أكتب عن كلّ الصّحابة، ومن الطّبيعي أكثر ألا أكتب عمّن لا أجد سمةً غالبةً ومحرّكةً لشخصيّته، أو صفةً عُرف بها!

ثمّ خطر لي خاطر، ألا وهو أنّه أحياناً يكون جمال الشخصيّة في توازنها واتّساقها، فلِم على إحدى كفّتيِ الميزان أن ترجح، ألا يمكن أن تتساوى الكفّتان، بلى يمكن! وكذلك الشخصيّة، فمن الممكن جداً ألا تبرز في مجال محدد، وهذا كثير في النّاس، ويكون مكمن الجمال في شخصيّات كهذه اتّساقها الكامل، وأن تكون في كل موقفٍ كما يريد الله لها أن تكون!

لا شكّ أنّ لسعيد بن زيدٍ صدقاتٌ، هذا دأب كلّ الصّحابة، ولكن هذا لم يكن بارزاً فيه كما في أبي بكرٍ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف. وقد شهد كلّ الغزوات كما سيأتي ولكن لم يُنقل لنا أنّه كان من رجال الحرب المشهورين كفرسان الصّحابة أو بمعنى أدقّ أن لله حكمة في أن يُخفي بعض أعمالِ عباده!

وله دعوة مستجابة تقشعرُّ لها الأبدان، ولكن لم يصلنا غيرها لنعتبرها صفةً غالبة، كما في شخصيّة سعد بن أبي وقّاص!

جمال شخصيّة سعيد بن زيدٍ على أنّها ليست رسماً بيانيّاً فيه نتوءٌ في بعض الفضائل والصّفات أكثر من غيرها، جمال شخصيّته أنّه سهمٌ منطلقٌ إلى الجنّة، وقوّة السّهم في اعتداله.

سعيد بن زيد هو ابن عمّ أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، وزوج أخته فاطمة بنت الخطّاب، وكذلك فإنّ عاتكة بنت زيد أخت سعيد هي زوجة عمر بن الخطّاب!

وقد كان لسعيد بن زيد وزوجته فاطمة أبعد الأثر في إسلام عمر بن الخطاب!

روى ابن سعد في الطبقات من طريق أنس بن مالك قال:

خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّدَ السَّيْفِ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، قَالَ: أَيْنَ تَعْمِدُ يَا عُمَرُ؟

فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا.

قَالَ: وَكَيْفَ تَأْمَنُ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي زُهْرَةَ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟

فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ صَبَوْتَ وَتَرَكْتَ دِينَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ.

قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْعَجَبِ يَا عُمَرُ، إِنَّ خَتَنَكَ وَأُخْتَكَ قَدْ صَبَوَا وَتَرَكَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ!

فَمَشَى عُمَرُ ذَامِرًا حَتَّى أَتَاهُمَا وَعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُقَالُ لَهُ: خَبَّابٌ. فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابَ حِسَّ عُمَرَ تَوَارَى فِي الْبَيْتِ.

فَدَخَلَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا عِنْدَكُمْ؟ وَكَانُوا يَقْرَؤُونَ طه.

فَقَالَا: مَا عَدَا حَدِيثًا تَحَدَّثْنَاهُ بَيْنَنَا.

فَلَعَلَّكُمَا قَدْ صَبَوْتُمَا؟

فَقَالَ لَهُ خَتَنُهُ: أَرَأَيْتَ يَا عُمَرُ إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ؟

فَوَثَبَ عُمَرُ عَلَى خَتَنِهِ فَوَطِئَهُ وَطْأً شَدِيدًا، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ فَدَفَعَتْهُ عَنْ زَوْجِهَا فَنَفَحَهَا بِيَدِهِ نَفْحَةً فَدَمِيَ وَجْهُهَا، فَقَالَتْ وَهِيَ غَضْبَى: يَا عُمَرُ، إِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي غَيْرِ دِينِكَ، اشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاشْهَدْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَلَمَّا يَئِسَ عُمَرُ قَالَ: أَعْطُونِي هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدَكُمْ فَأَقْرَؤُهُ.

وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الْكُتُبَ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ: إِنَّكَ رِجْسٌ وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأْ.

فَقَامَ عُمَرُ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ طه حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

فَقَالَ عُمَرُ: دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ فَلَمَّا سَمِعَ خَبَّابٌ قَوْلَ عُمَرَ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا عُمَرُ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ: اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ.

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّارِ الَّتِي فِي أَصْلِ الصَّفَا، فَانْطَلَقَ عُمَرُ حَتَّى أَتَى الدَّارَ قَالَ: وَعَلَى بَابِ الدَّارِ حَمْزَةُ وَطَلْحَةُ وَأُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى حَمْزَةُ وَجَلَ الْقَوْمِ مِنْ عُمَرَ، قَالَ حَمْزَةُ: نَعَمْ، فَهَذَا عُمَرُ فَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِعُمَرَ خَيْرًا يُسْلِمْ وَيَتَّبِعِ النَّبِيَّ ﷺ، وَإِنْ يُرِدْ غَيْرَ ذَلِكَ يَكُنْ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيِّنًا.

وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاخِلٌ يُوحَى إِلَيْهِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عُمَرَ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ وَحَمَائِلِ السَّيْفِ فَقَالَ: أَمَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا أَنْزَلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، اللَّهُمَّ هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الدِّينَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

فَقَالَ عُمَرُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.

شهِد سعيد بن زيد جميع المشاهد والغزوات مع النّبيّ ﷺ، وشهد حروب الرِّدّة، ومعركة اليرموك، ولم يغب عن مشهدٍ من مشاهد النّبيّ ﷺ إلّا عن غزوة بدر، فقد كان النّبيّ ﷺ قد أرسله في مهمّة استطلاعيّة فرجع منها بعد انتهاء الغزوة، فأحزنه أنّه لم يشترك في أوّل قتال قاتله النّبيّ ﷺ للمشركين، ولكنّ النّبيّ ﷺ طيّب خاطره، وضرب له بسهمٍ كمن اشترك في الغزوة!

فقال سعيد للنّبيّ ﷺ: وأجري؟

فقال له: وأجرك!

لهذا اعتبر سعيد بن زيد في عِداد البدريِّين رغم أنه لم يشارك في الغزوة إلّا أنه نال الأجر والغنيمة!

وكما ترى في القصّتين الشيِّقتين، قصّة إسلام عمر، وقصّة غيبته عن غزوة بدر، تجد أنّ سعيداً يكون كما يقتضي للموقف له أن يكون، اتّساق وانسياب للشخصيّة المسلمة في داخل الحدث، وهذا في كل حدث، حتى لا يعود يمكن الحديث عن سمة بارزة، وهذه ميّزة لا تخفى!

لسعيد بن زيد دعوة مستجابة، تقشعرُّ لها الأبدان، فقد روى مسلم

في صحيحه، أنّ أروى بنت أويس، ادّعت على سعيد بن زيد أنّه أخذ شيئاً من أرضها، فخاصمته إلى مروان بن الحكم والي المدينة، فاستدعاه مروان وسأله.

فقال له سعيد: أنا كنت آخذ شيئاً من أرضها بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ؟!

فقال له مروان: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوِّقه إلى سبع أرضين!

فقال له مروان: لا أسألك بينةً بعد هذا!

فرفع سعيدٌ يديه وقال: اللهمّ إن كانت كاذبةً فعمّ بصرها، واقتلها في أرضنا، فما ماتت حتّى عمي بصرها، ثم بينما هي تمشي في أرضها إذا وقعت في حفرةٍ فماتت!

رحم الله سعيد بن زيد، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# أنس بن مالك!

يا أنيس!

بهذا النّداء كان النّبيّ ﷺ يتحبّب إلى أنس بن مالك!

وإن لم يُدرك أنس بن مالك غير هذه من الدّنيا لكفاه، ولكنّ الله تعالى منّ عليه أن خدم النّبيّ ﷺ عشر سنوات.

كنّاه النّبيّ ﷺ بأبي حمزة، ولكنّه كان يُحبُّ أن يُنادى: خادم رسول الله!

أمّه واحدة من أعظم النّساء في تاريخ الإسلام، إنّها أم سليم، الرّميصاء بنت ملحان، آمنت بالنّبيّ ﷺ قبل مجيئه إلى المدينة، فجاء أبو أنيس وكان غائباً، فقال لها: أصبوت؟!

فقالت: ما صبوث، ولكنّي آمنث!

وجعلت تلقّن أنساً، قُل: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله فجعل أبوه يقولُ لها: لا تفسدي عليّ ابني!

فتقول: إنّي لا أفسده!

فخرج إلى الشّام مُغضباً، فلقيه في الطّريق عدوٌ له فقتله!

ثمّ خطبها أبو طلحة الانصاريّ، وهو يومئذٍ مشرك، فأبث.

وقالت له: إنّ مثلك يا أبا طلحة لا يُردُّ، وإنّه لا ينبغي أن أتزوّج مشركاً، أما تعلم أنّ آلهتكم ينحتها عبد آل فلان، وأنّكم لو اشعلتم فيها نارٌ فاحترقت! فإن آمنت كان ذلك مهري!

فانصرف عنها أبو طلحة، وقد وقع كلامها في قلبه، فتفكّر، ثمّ جاءها، فقال: قد آمنت، وقبلت الذي قد عرضتِ عليّ!

فما كان لأمّ سُليم مهرٌ غير الإسلام!

روى الترمذيّ من حديث أنس بن مالك، قال: قدِمَ رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا ابن ثماني سنين، فأخذت أمّي بيدي، فانطلقت بي إليه.

فقالت: يا رسول الله، لم يبق رجلٌ ولا امرأة من الأنصار إلّا وقد أتحفك بتحفةٍ، وإنّي لا أقدرُ على ما أتحفك به إلّا ابني هذا، فخذه، فليخدمك ما بدا لك!

قال أنس: فخدمته عشر سنين، فما ضربني، ولا سبني، ولا عبسَ في وجهي!

ودخل النّبيّ ﷺ يوماً على أمّ سُليم، فأتته بتمرٍ وسمن.

فقال: أعيدوا تمركم في وعائكم، وسمنكم في سقائكم، فإنّي صائم.

ثمّ قام في ناحيةٍ من البيت، فصلّى بهم صلاةً غير مكتوبة، ثمّ دعا لأمّ سُليم وأهل بيتها.

فقالت له أمّ سُليم، يا رسول الله، إنّي لي خويصة!

فقال: وما هي؟

قالت: خادمكَ أنس، فادعُ له.

فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لأنيس به، وكان ممّا قال: اللّهمّ

ارزقه مالاً وولداً، وبارك له فيه.

لهذا فإنّ المتأمّل في سيرة أنس بن مالك يلحظُ أنّ البركة تنبعُ من كل مواقف حياته، ولا غرابة أن تكون صفة أنس بن مالك هي: المبارك!

والبركة جند من جنود الله، إذا حلّت في المال أكثرته، وإذا حلّت في الابن أصلحته، وإذا حلّت في الجسم قوّته، وإذا حلّت في القلب أسعدته!

فكم من مالٍ قليل هو بحساب العقل لا يكفي، فإذا هو بحساب البركة يكفي ويزيد!

وكم من أبناء هم عصبة فلا خير يُرتجى منهم، وكم من ولدٍ وحيد فإذا خيره قد عمّ!

وكم من ساعات عملٍ لا تُنتجُ كثيراً، وكم من ساعةٍ مباركة ينتج فيها المرءُ ما لا ينتجه غيره في أيام!

وإنّك لو اطلعت على نتاج العلماء الأوائل لعجبت كيف أنّ أعمارهم أنتجت كلّ هذه المؤلّفات، وكانوا يكتبون بالرّيشة، لا شيء غير البركة يفسّرُ هذا!

كان أنس بن مالك مباركاً بفضل دعاء النّبيّ ﷺ، فلا يطلب أمراً إلّا أعطاه الله إياه، ولا يخشى شيئاً إلّا كفاه الله إيّاه!

في سير أعلام النبلاء للإمام الذّهبيّ، عن ثابت البنانيّ قال: جاء القائم على أرض أنس بن مالك، فقال له: عطشت أرضكَ!

فتوضأ أنس ثمّ خرج إلى البرِّيّة، ثم صلّى، ودعا، فثارت سحابة، وغشّيت أرضه، ومطرت، حتّى ملأت صهريجه والوقت صيف!

فأرسل أنس بعض أهله، وقال له: أنظر أين بلغت؟!

فذهب، فإذا هي لم تعدُ أرضه إلّا يسيراً!

أرأيت هذه البركة، وهذا الرّجل المبارك؟!

تعطش أرضه والزّمن صيف، ويأتيه خادمه ينذره بهلاكها، وأهل الدّنيا إذا ما أصابهم مثل هذا فزّعوا إلى بئرٍ يُحفر، أو ماءٍ يُشترى، وأنس بن مالك ليس من الهازئين بالأسباب، على العكس تماماً، ولكن أهل الآخرة يطرقون باب ربِّ الأسباب أولاً!

كلُّ هذه المشكلة العويصة، كان حلُّها في وضوءٍ وركعتين!

الزّمن صيف، وأنّى أن يهطل المطر صيفاً، ولكنّ لله عباداً إذا أرادوا أراد، وقد كان أنس منهم، تشكّلت له سحابة خاصة بأرضه، فروتها عن آخرها، وملأت صهاريجه أيضاً، ولم تجاوز أرضه إلّا يسيرا!

يا للبركةُ إذا حلّت في شيءٍ ماذا تفعل!

وفي سير أعلام النّبلاء للإمام الذّهبيّ أيضاً، روى شُعبة عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: إنّ أمّ سُليم قالت للنّبيّ ﷺ: يا رسول الله، أنس خادمك، فادعُ الله له.

فقال: اللهمّ أكثر ماله، وولده.

فأكثر الله مالي، حتّى إنّ بستاناً لي ليحمل في السّنة مرّتين، وإنّ ولدي، وولد ولدي يتعادّون على نحو مئة اليوم!

أصابت الدّعوة المباركة رجلاً مباركاً، فباركت له كلّ شيء!

البساتين لا تحملا إلّا موسماً واحداً في العام، وقد كان غالب زرعهم النّخيل والعنب، ولكن بستان أنس عن دون بساتين المدينة كان يحمل في العام مرّتين!

وكذلك أصابت الدّعوة ولده، فكان أولاده وأحفاده في حياته يتجاوزون المئة!

فسبحان من إذا أعطى أدهش، وإذا بارك عطّل الأسباب، وغيّر الموازين!

وليست البركة في جلب الخير فقط، إنّما في دفع الشرّ أيضاً، فالمباركون أولياء الله، ومن عادى لله ولياً فقد آذنه بالحرب!

وقد حدث بين الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ وبين أنس بن مالك موقف عصيب، استطال فيه الحجاج على أنس، ولكنّ الله ردّ كيد الحجّاج إلى نحره، وكفى أنس شرّه!

كان الحجّاج يعتقد أنّ لأنس بن مالك يدٌ في ثورة عبد الرّحمن بن الأشعث التي خرج فيها على عبد الملك بن مروان. فجاء أنس بن مالك يوماً إلى مجلس فيه الحجّاج، فقال له الحجّاج: يا خبيث، جوّال في الفتن، مرّة مع عليّ بن أبي طالب، ومرّةً مع ابن الزّبير، ومرّةً مع ابن الأشعث! أما والذي نفس الحجّاج بيده، لأستأصلنّك كما تُستأصل الصمغة، ولأجرّدنّك كما يُجرّدُ الضبّ!

فقال أنس: من يعني الأمير؟:

فقال له الحجّاج: إيّاك أعني، أصمّ الله سمعك!

فخرج أنس ولم يُجبه، فقيل له: ما منعك أن تجيب؟

فقال: والله لولا أنّي ذكرت كثرة ولدي، وخشيث عليهم، لأسمعته في مقامي هذا ما لا يُستحسنُ لأحدٍ بعدي!

ثمّ كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يشكو الحجّاج، فقال:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، من أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وصاحبه، إلى عبد الملك أمير المؤمنين، أمّا بعد:

فإنّ الحجّاج قال لي هجراً من القول، وأسمعني منكراً، ولم أكُن لما قال أهلاً!

وإنّي أقسمت بخدمتي لرسول الله ﷺ عشر سنيين، لولا صبيّةٌ لي صغار ما باليث أيّة قِتلةٍ قُتلث!

والله لو أنّ اليهود والنّصارى أدركوا رجلاً خدم نبيّهم لأكرموه!

فخذ لي على يده، وأعنّي عليه، والسّلام!

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب استشاط غضباً، وكتب إلى الحجّاج يقول:

أمّا بعد، فإنّك عبد من ثقيف طمت بك الأمور فسموتَ فيها، وطغيتَ حتّى عدوت قدرك، وجاوزت طوركَ!

وقد بلغني ما كان منك إلى أبي حمزة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، فعليك لعنة اللهِ من عبد أخفش العينين، أصّك الرّجلين، ممسوح الجاعرتين.

لقد هممت أن أبعث إليك من يسحبك ظهراً إلى بطنٍ حتّى يأتي بك أبا حمزة! فإذا قرأت كتابي هذا فكنْ له أطوع من نعله، واعرِف حقَّه، وأكرمه وأهله، ولا تُقصّرنَ في شيءٍ من حوائجه، فو الله لو أنّ اليهود رأت رجلاً خدم العزير، أو النّصارى، رجلاً خدم المسيح، لوقروه وعظّموه، فتبًا لك، لقد اجترأت ونسيت العهدَ، وإيّاكَ أن يبلغني عنك خلاف ذلك، والقَه في بيته متنصّلاً إليه، ليكتب إليّ برضاه عنك!

فلما وصل الكتاب إلى الحجّاج، جعل يقرأه ويتغيّر لونه، ويرشح عرقاً، ويقول: يغفر الله لأمير المؤمنين!

ثمّ قام إلى أنس في بيته فاسترضاه وأكرمه!

فسبحان من إذا أراد أن يرفع البلاء رفعه على أيسر سببٍ!

رحم الله أنس بن مالك، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ.

# جابر بن عبد الله!

«يا جابر: ما ليَ أراكَ منكسراً؟!»

بهذه الكلمات تفقَّد النَّبيُّ ﷺ قلب صاحبه جابر بن عبد الله!

عاد المسلمون من أُحُدٍ بالهزيمة، وهزيمةٌ تُربيكَ وتكسركَ وتُريك خطأك، خير من نصرٍ يُطغيك!

أراد الله سبحانه أن يُربي هذه الأمة ويُخبرها ألا نصر إذا لم يُطَعْ عبده ورسوله!

ولأن فقد الأحبة مُوجع، والفِراق أليم، والصحابة بشر، خيّم عليهم الحزن، حتى النّبي ﷺ كُلِمَ بفقد عمه، وظلّت خسارة حمزة جرحاً ينزُّ داخله إلى أن فارق الدنيا!

ولكن على الحياة أن تمضي، فلملموا جراحاتهم، وطيّب بعضُهم خاطر بعض، وكان النبيُّ ﷺ الأكثر تطييباً للخواطر رغم أنه كان الأكثر ألماً!

ولقيَ يوماً جابر بن عبد الله بن حرام، فقال له: يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟

فقال له: يا رسول الله قُتِلَ أبي يوم أُحُد، وترك عيالاً ودَيناً!

فقال له النبي ﷺ: أفلا أُبشركَ بما لقيَ اللهُ به أباك؟

قال: بلى.

فقال له: ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، ولكنه أحيا أباك

فكلّمه كِفاحاً، وقال له: عبدي تمنّ عليّ أُعطِك!

فقال: يا رب أن تُحييني فأُقتلَ فيك ثانية!

فقال الربُّ عزّ وجل: إنه قدَ سبقَ مني أنهم إليها لا يُرجعون!

ما أعذبها من عبارة: يا جابر ما ليَ أراك منكسراً؟!

أحياناً لا يريدُ الناس أكثر من كلمة حلوة، وتربيتة على الكتف، وأن تُخبرهم أنكَ تهتم، وأنه يُوجعك حزنهم.

إن الكرم ليس مالاً فقط، الاهتمام كرم أيضاً، والمواساة أحياناً تُساوي مال الدنيا كلها!

فهل طبقناها في حياتنا، هل رأينا حزناً بادياً على وجه صديق فسألناه ما به، هل أشعرناه أننا نهتم، وأننا بجانبه وعلى استعداد لفعل أي شيء لنُزيل عنه بعضاً مما نزل به، أم تعاملنا مع الناس على مبدأ: لا يهمني أحد ما دمتُ أنا بخير!

كان جابر يعرفُ أنّ أباه قد ماتَ شهيداً دفاعاً عن دينِ الله وشريعته، وأن آخر لحظات عمره كانت تحت راية النبي ﷺ، ويا لها من خاتمة، ولكن كل هذا لم يُلغِ أنه يحتاج من يُذكره بفضل أبيه، فلا شيء يرممُ فقد الدنيا سوى معرفة أن الآخرة خير منها وأبقى، فإذا عزيتَ أهل عزاءٍ بفقيدهم ذكّرهم بحسناته وأخلاقه في الدنيا، وأن المؤمن إنما ينتقل من جوار الناس إلى جوار الله، هذا وحده يُبلسم الجرح!

في الحديث لا يذكر جابرٌ أن النبي ﷺ قضى دين أبيه، ولكنه عليه السلام قد فعلَ، ليس مع جابرٍ فقط، وإنما حين كثر المال كان يقول

للمسلمين: من تركَ مالاً فَلِوَرَثَتِه، ومن تركَ دَيْناً فعلينا!

ولستُ أُبالغ إذ أقول: إنَّ جابر بن عبد الله هو أكثر صحابيٍّ تُشبه مواقف حياته مواقف النّاس العاديين!

تشعرُ أنه ابن الفقراء والمساكين في كل عصرٍ!

ابن الطّبقة التي تُعافر في الحياة معافرةً!

ابن الفئة التي تحاول رغم ثقيل المسؤوليات، وقلة ذات اليد، أن تعبر هذه الدُّنيا برضى الله تعالى!

في هذه القصّة، نرى جابراً مثل أيِّ ابنٍ في أيِّ عصرٍ، فقد أباه الفقير، وتركَ بناتاً خلفه، وهو الكبير، فصار عليه أن يكون الأب والأخ!

والعظماء لا يلقون المسؤوليات عن أكتافهم، وإنما يتشبثون بها، وقد كان جابر بن عبد الله من عُظماء النّاس!

فالعظيم بما في قلبه لا بما في جيبه!

يقول جابر بن عبد الله: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في غزوةٍ، فأبطأ بي جملي، فمررتُ على النبيِّ ﷺ فقال: جابر؟

قلتُ: نعم.

فقال: ما شأنك؟

فقلتُ: أبطأ بي جملي، فتخلفتُ.

فنزل النبيُّ ﷺ عن راحلته، وجعل يدفع جملي بيده، ثم قال لي: اركَبْ!

فركبتُ، فقال لي: أتزوجتَ؟

قلتُ: نعم.

قال: بكرًا أم ثيِّبًا؟ والثيب التي سبقَ لها الزواج من قبل فهي إما مُطلقة أو أرملة.

قلتُ: بل ثيبًا.

فقال: أفلا جارية تُلاعبها وتلاعبك، وتُضاحكها وتُضاحكك.

فقلتُ: إنّ أبي ماتَ وتركَ سبع بناتٍ، وإني كرهتُ أن أجيئهنّ بمثلهنّ، فأحببتُ أن أتزوج امرأةً تجمعهنّ وتمشطهنّ وتقوم عليهنّ.

فقال: باركَ اللهُ لكَ.

ثم قال لي: أتبِيعُ جَملك؟!

فقلتُ: نعم.

فاشتراه مني بأوقية من فضة.

ثم وصل النبيُّ ﷺ إلى المدينة قبلي، ووصلتُ في المساء، فجئنا إلى المسجد، فوجدته بباب المسجد، فقال لي: الآن قدمتَ؟

قلتُ: نعم.

فقال: دَعْ جملكَ وادخُلْ فصَلِّ ركعتين.

فدخلتُ، فصليتُ، وأمرَ بلالاً فوزنَ لي أوقية من فضة، فأخذتها، فلما انصرفتُ، نادى عليّ وقال: خُذْ جملكَ ولكَ ثمنه!

يُعلمنا النبيُّ ﷺ درساً بليغاً من دروس الحياة، وهو أن نفسية

البنت البكر، الصغيرة في السِّن أنفع للزواج، لأنّ فيها إقبالاً على الحياة والزواج ليسا في المرأة الثيب التي عادة ما أن يكون لها أولاد فهي مشغولة بهم، أو مكلومة من الحياة من طلاق سبقته حياة عسيرة، وضرر قد يدفع الزوج الجديد ثمنه!

ويُعلمنا جابر درسا بليغا أيضاً، وهو أن يُقدِّر كل إنسان ظروفه، ويتصرف على هذا الأساس، وقد أحسنَ إذ تزوج امرأة ثيباً، لأنه لو أحضرَ إلى البيت فتاةً صغيرة بعمر أخواته اللاتي يقوم على تربيتهن لضعنَ، ولفرّط في هذه الأمانة، وأكثر ما أعجبُ منه أن الرجل إذا ماتت زوجته، أو حصل بينهما طلاق سعى للزواج بفتاة بعمر بناته وهُنّ معه، وهذا إن لم يكن حراماً بلا شك، إلا أنه ليس فيه شيء من فقه الحياة!

ثم انظروا إلى جبر الخواطر، جابر رجل فقير، وقد تزوّج، وقد أراد النبيّ ﷺ أن يُعينه ببعض المال، بالمقابل أراد أن يحفظ له كرامته، فاشترى منه الجمل، ثم أعطاه ثمنه، وأعاده إليه، يوجد ألف طريقة لمساعدة الناس دون جرح كرامتهم، فتخيروا طُرق العطاء!

أستشهدَ عبد الله بن حرام في غزوة أُحد، وتركَ عليه ديناً ثلاثين وسقاً من تمرٍ لرجل من اليهود اسمه أبو الشحم، وأراد جابر بن عبد الله بن حرام أن يُفيَ بدينِ أبيه، ولكنه نظر في تمر بستانه فعلمَ يقيناً أن التمر قليل ولا يكفي لسداد الدّين!

فجاء جابر إلى اليهوديّ أبي الشّحم وطلب منه أن يعطيه مدةً أطول لسداد دين أبيه، فرفضَ أبو الشحم!

فذهبَ جابرٌ إلى النبيِّ ﷺ يطلبُ منه أن يشفع له عند أبي الشّحم

ويمدد له المدة لقضاء الدين، فجاء النبيُّ ﷺ وقال لأبي الشّحم: أنْظِرْ جابراً!

فرفضَ أبو الشحم هذه الوساطة!

فقام النبيُّ ﷺ ودخلَ بستان جابر، وسار بين أشجار نخله، ثم نادى على جابرٍ وقال له: جُدّ له، فأوفِ له الذي له! أي اقطَعْ له من ثمر شجرك وادفعْ له دينه!

فقام جابر إلى نخلة، وبدأ يقطع من ثمره، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى البركة قد حلّت في محصوله، فدفعَ لأبي الشحم ثلاثين وسقاً، وبقيَ عنده أكثر من نصف هذه الكمية!

وجاء جابرٌ إلى النبيّ ﷺ ليبشّره، فوجده يُصلي، فوقف ينتظره، فلما أتم صلاته، أخبره جابرٌ بالذي كان.

فقال له النبيُّ ﷺ: أخبِرْ ذلك ابن الخطاب!

فذهبَ جابرٌ وأخبر عمر بن الخطاب الذي كان، فقال له عمر: لقد علمتُ حين مشى فيها رسول الله ﷺ، لتحلّنَ البركة على النخل!

لو كان حقُّ العِباد يسقطُ في شيء لسقط في حقِّ دين الشهيد الذي يموت في سبيل الله، ولكن الله تعالى يغفر للشهيد كل شيء إلا الدّين، فعلى أهل الميت أن يسعوا في سداد دينه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فما سقط دينُ عبد الله بن حرام وقد استشهد في غزوة أحد تحت راية النبي ﷺ ومن باب أولى فلن يسقط دَين أحد غيره مهما كان صالحاً، وبغض النظر عن صاحب الدّين، فأبو الشحم كان يهودياً!

الشفاعة الحسنة هي عمل النبلاء، وما أنبل النبيّ ﷺ حين لا يجد حرجاً وهو بالمفهوم السياسي رئيس الدولة، وبالمفهوم الديني نبي هذ الأمة أن يسعى في طلب جابر، وأن يشفع له عند اليهودي!

فلا تزهد في شفاعة حسنة، امشِ في حاجات الناس، حُلّ مشاكل البسطاء، توسّط للضعفاء، ولكن إياك والواسطة التي تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، فتأخذ حقّ إنسان وتعطيه لإنسان آخر.

ثم إذا رُفِضَت شفاعتك فلا تعتبر الأمر شخصياً، ولا تحلف ألا تمشي بشفاعة بعد ذلك، فها هو النبي ﷺ شفعَ ولم تُقبل شفاعته، ومع هذا بقيَ يسير في الشفاعة حتى آخر عمره، فلا تدع الشيطان يدخل إليك من باب عزّة النّفس!

مرّة أخرى نرى أن جابراً هو ابنُ الحياة والنّاس!

مواقف حياته تجدها في كل عصر!

وما واجهه تواجهه أنتَ وأنا، وهي وهم!

تشعرُ وأنتَ تقرأ سيرته، أنها ما كانت إلا لنتعزى بها، ولتكون علينا حُجّة أنّ الإنسان مهما كانت ظروفه فبإمكانه أن يستقيم على أمرِ الله!

رحمَ اللهُ جابر بن عبد الله، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# جعفر بن أبي طالب!

«أشبهتَ خَلقي وخُلقي»!

بهذه الكلمات جمعَ النّبيُّ ﷺ المجد لجعفر بن أبي طالب المجد من طرفيه!

كان في وجهه كثير الشّبه بالنّبيّ ﷺ، ولا غرابة فهو ابن عمّه، والأقارب قد تتشابه سِحنتهم، وكان فضلُ اللهِ عظيماً على جعفر إذ منّ على جعفرٍ بهذا العطاء!

وكان في خُلقِه كثير الشّبه بالنّبيّ ﷺ، وهذه واللهِ لأمُّ المكارم! تخيّلْ أن يُثنيَ الله تعالى على نبيّه في القرآن الكريم، فيقول فيه: «وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم»

ثمّ يأتي النّبيُّ ﷺ ليخبرَ جعفر بن أبي طالبٍ بأنه يُشبهه في هذا الخُلُق الذي زكّاه له ربُّه!

واللهِ لو لم يُدرك جعفر من الدّنيا غير هذا لكفاه! ولكنّه أدركَ، صدقَ فسبقَ، فللهِ درُّه وعلى الله أجره!

كان أثيراً على قلبِ النّبيّ ﷺ، يُحبُّه، ويُدنيه منه، ويساوي الاجتماع به بما سواه من الدّنيا!

قدِمَ جَعفَرُ بنُ أبي طالبٍ على رسولِ اللهِ ﷺ من أرضِ الحَبَشةِ، فقبّلَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ ما بينَ عَينَيه، وقال: ما أدري أنا بقُدومِ جَعفَرٍ أسَرُّ أمْ بفَتحِ خَيبرَ؟

ولك أن ترى أنه وبرغم كون خيبر فتحاً عظيماً، ونقطة محوريّة

في تاريخ الإسلام، وتاريخ جزيرة العرب، إلا أنّ النّبيّ ﷺ يُخبرُ أنه لا يدري أي الأمرين أحبّ إلى قلبه، فتح خيبر، أم عودة جعفر!

وأخرجَ البغويُّ في معجم الصّحابة، من حديث أُمّنا عائشة، قالت: لمّا قَدِمَ جعفر بن أبي طالب وأصحابه، استقبله رسول الله ﷺ، وقبّلَ ما بين عينيه!

كان جواداً كريماً، سخيّا كالمطر، حبّبَ الله تعالى إليه الصّدقة، فكان أسعد بعطائه منه من أخذه!

رَوى البَغويّ في معجم الصّحابة، عن أبي هريرة، قال: كان جعفر يحبّ المساكين، ويجلس إليهم، ويخدمهم ويخدمونه، يحدّثهم ويحدثونه، فكان رسول الله ﷺ يكنّيه أبا المساكين!

وأخرجَ البخاريُّ في صحيحه من حديث أبي هريرة قال:

كنتُ ألزم النّبيّ ﷺ لشبَع بطني، حين لا آكل الخَمير ولا ألبس الحرير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وألصق بطني بالحَصباء، وأستقرئ الرّجل الآية، وهي معي، كي ينقلب بي فيطعِمني، وخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العَكّة ليس فيها شيء، فنشقها فنَلْعَق ما فيها!

تأمّلْ وصفَ أبي هريرة لجود جعفر بن أبي طالب: خير النّاسِ للمساكين جعفر بن أبي طالب!

وقد بلغ به الجود إلى درجة أنّه لما كان ينفدُ من بيته الطعام، ويجد مسكيناً، ولا شيء عنده ليقدمه له، يُخرجُ العكّة وهي الوعاء

المستدير من الجلد الذي يوضع فيه الطعام، فيجعله يشقّها، ويستخرج ما علقَ بها، ويأكله، ولا يردّه خائباً!

مع شخصٍ من طينة جعفر بن أبي طالب، تحتار أن تقع على سمة رئيسة محرّكة لشخصيّته، أو على صفة واحدةٍ غرقَ فيها!

فهو الجواد الكريم، وهو المجاهد الشّهيد، وهو الشّهم الخلوق!

غير أنّي وأنا أتامّلُ سيرته، وجدتُ أنّ أعظم موقفٍ في حياة جعفر، هو وقوفه أمام النجاشيّ في الحبشة، يُدافع عن دين الله تعالى، ويحفظ دماء الوفد الذي معه!

جعفر بن أبي طالبٍ مطبوعٌ في أذهاننا بأنّه الخطيب البارع المفوّه! هذه هي صفته!

عن أم سلمة قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة مَلِكاً لا يظلم أحداً عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً!

فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشيّ فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشيّ هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم أي الجلود المدبوغة، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي،

وعمرو بن العاص السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا له هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، وقالا له: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم!

ثم إنهما قربا هدايا النجاشي، فقبلها منهم، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك إنه ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليه، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فيه!

ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله، وعمرو بن العاص، من أن يسمع النجاشي كلامهم!

فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، فأسلمهم إليهما.

فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد قوما جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم!

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما كان!

فلما جاؤوه، وقد دعا النجاشيُ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأمم؟

وكان الذي يكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له:

أيّها المَلِك، كنّا قوماً أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسيءُ الجِوَار، ويأكل القويُّ منّا الضّعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرفُ نسبَه وصدقه وأمانته وعفافَه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحدَه، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحل من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيقوا

علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك!

فقال النجاشيُّ: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قال: نعم.

قال: فاقرأه عليّ!

فقرأ عليه صدراً من كهيعص فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم!

ثم قال النجاشيُّ: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

انطلقا، فو الله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكادا!

فلما خرجا، قال عمرو: والله لأنبئنه غداً عيبهم، ثم أستأصل خضراءهم!

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا!

فقال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد!

ثم غدا عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً!

فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه. فأرسل يسألهم.

ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، ثم قالوا: نقول والله فيه ما قال الله تعالى كائناً ما كان!

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى؟

فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول!

فضرب النجاشيُ يده إلى الأرض، فأخذ عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى ما قلتَ هذا العود!

فتناخرت بطارقته حوله!

فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، والسيوم الآمنون، من سبكم غرم، وما أحب أن لي جبلاً ذهباً وأني آذيث رجلاً منكم!

ردوا عليهما هداياهما، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ، فأطيعهم فيه!

فخرجا مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به!

هذا واحد من أعظم المواجهات الفكريّة في تاريخ الإسلام! كان بطله جعفر بن أبي طالبٍ، جادَ فيه فصاحةً، وأبلغَ فيه بياناً، ورشحَ فيه عقيدةً، وأظهرَ فيه ثباتاً!

كان في ميدان حربٍ حقيقيّة وإن كان سلاحها الحُجّة والبيان!

خصمه الأول عمرو بن العاص داهية قريش!

وخصمه الثاني بطارقة الملك وأساقفته الذين تلقوا الهدايا

والرّشوة!

وخصمهم الثالث مجتمع الحبشة الذي هو على غير دينهم!

وخصمهم، المفترض، الرّابع الملك الذي هو بالأساس شديد التّدين على دين عيسى ابن مريم عليه السّلام، وبهذه المواجهة سيعلم أنّ دينه الذي يؤمن به قد نُسخ برسالة هذا النّبيّ الجديد، وأنّ إيمانه القديم لم يعد معتبراً!

وقد خرجَ جعفر بفضل الله منتصراً في حربه مع كلّ هؤلاء الخصوم!

ردّ الله كيد سفيري قريش!

وألجمَ بطارقة الملك وحاشيته!

وشرحَ صدر النّجاشيّ رضي الله عنه للإسلام، فحازَ ملك الدّنيا، ونعيم الآخرة!

كلُّ هذا المشهد المهيب، بطله جعفر بن أبي طالب، الخطيب المفوّه!

استشهدَ جعفر بن أبي طالبٍ في غزوة مؤتة وهو يحملُ لواء المسلمين، أميراً على الجيش، بعد استشهاد زيد بن حارثة!

اقتحمَ جيش الرّوم وهو ينشدُ:

يا حبذا الجنة واقترابها

طيّبة وباردا شرابُها

والرومُ رومٌ قد دَنا عذابها

كافرة بعيدة أنسابُها

عليّ إذ لاقيتها ضِرَابُها

ثمّ أخذ اللّواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء!

ولمّا استشهد رَضي الله عنه، حزن لموته سيّد الخلق حزناً بالغاً، وأوصى بأهله، وذرفت عينه رحمة وشفقةً عليهم، وتُحدّث زوجته أسماء بنت عُميس تقول:

لمّا أصيب جعفر وأصحابه دخل عليّ رسولُ الله ﷺ وقد دبغت، وعجنت عجيني، وغسلت بنيّ ودهنتهم ونظفتهم.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم: ائتيني ببني جعفر!

فأتيته بهم، فتشممهم وذرفت عيناه!

فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟

قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم.

فقمتُ أصيح!

واجتمعت إليّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنّهم قد شغلوا بأمر صاحبهم!

رحمَ الله جعفر بن أبي طالب، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة

# عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عبد الرّحمن بن عوف!

«وعبد الرحمن بن عوفٍ في الجنّة»!

بهذه الكلمات قلّدَ النّبيُّ ﷺ عبد الرحمن بن عوفٍ أرفع وسام في التّاريخ!

إنّه وسامُ الجنّة!

الوسام الذي إن حازه المرءُ، ما ضرّه ما فاته بعده! وإن فاته، فما نفعه ما نال بعده!

قال النّبيُّ ﷺ: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعدُ ابن أبي وقاص في الجنة، وسعيدُ ابن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»!

شَهِدَ عبد الرّحمن بن عوفٍ مع النّبيّ ﷺ بدراً والمشاهد كلّها!

وبايعَ تحت الشّجرة حين رضيَ الله عن المؤمنين!

فهو من القلّة الذين لم يفتهم شيءٌ من الخير!

بدأ عبد الرّحمن بن عوفٍ حياته فقيراً، ومات وهو من أثرى الصّحابة!

روى البخاريُّ من حديث عبد الرّحمن بن عوفٍ، قال:

لَمّا قَدِمنا المَدِينَةَ آخَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وبيْنَ سَعْدِ بنِ الرَّبِيعِ، فقالَ سَعْدُ بنُ الرَّبِيعِ: إنِّي أكْثَرُ الأنْصارِ مالًا، فأقْسِمُ لكَ نِصْفَ مالِي،

وانظُرْ أيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لكَ عَنها، فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَها

فقلتُ: لا حاجَةَ لي في ذلكَ، هلْ مِن سُوقٍ فيه تِجارَةٌ؟

قالَ: سُوقُ قَيْنُقاعٍ.

فَغَدا إلَيْهِ عبدُ الرَّحْمَنِ، فأتَى بأَقِطٍ وسَمْنٍ، ثُمَّ تابَعَ الغُدُوَّ، فَما لَبِثَ أنْ جاءَ عبدُ الرَّحْمَنِ عليه أثَرُ صُفْرَةٍ، فقالَ له رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تَزَوَّجْتَ؟

قالَ: نَعَمْ.

قالَ: ومَنْ؟

قالَ: امْرَأَةً مِنَ الأنْصارِ.

قالَ: كَمْ سُقْتَ؟

قالَ: زِنَةَ نَواةٍ مِن ذَهَبٍ!

فقالَ له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوْلِمْ ولو بِشاةٍ.

هذا الحديث يُريك مدى فقر عبد الرّحمن بن عوف لحظة مجيئه مهاجراً من مكة إلى المدينة!

فهو لم يكن يملك من الدّنيا شيئاً! لا عمل، ولا بيت، ولا زوجة!

فعرض عليه أخوه سعد بن الرّبيع، بعد أن آخى النّبيّ ﷺ بينهما، أن ينزل له عن نصف ماله، وأن يُطلّق له إحدى زوجتيه، فإذا انقضت عدتها تزوّجها!

ولكنّ عبد الرّحمن بن عوفٍ كان عصامياً، عزيز نفس، فرفض أن

يأخذ شيئاً، وأراد أن تبقى الأُخوّة في اللهِ ولِلهِ!

وإنما سأل عن الشوق، فدُلّ عليه، فاشترى بقليل ما يملك، واتجرَ به، وما زال هذا دأبه كل يوم، يبيعُ ويشتري، حتى صار من أثرياء الصّحابة!

المتأمِّلُ في سيرة عبد الرّحمن بن عوفٍ، يخلص إلى أنّه كان حقًّا على الصّفة التي أطلقها عليه الإمام الذّهبيّ: الغنيُّ الشّاكر!

فعلى ثرائه الكبير، بقيَ زاهداً في الدّنيا، عارفاً لحقيقتها، لم يغرُّه بهرجها، ولم تفتنه زينتها!

قد عارفاً عالماً عابداً، يعلمُ أنّ شُكر النّعمة من جنسها، لهذا كان في الصّدقة والخير كالريح إذا سارت، وكالمطر إذا هطلَ!

فكان رضي الله عنه يقرض الله قرضا حسناً، فيضاعفه الله له أضعافاً، فقد باع يوماً أرضاً بأربعين ألف دينار فرّقها جميعاً على أهله من بني زُهرة، وأمهات المسلمين، وفقراء المسلمين!

وقدّم خمسمائة فرس لجيوش الإسلام!

ويوماً آخر ألفاً وخمسمائة راحلة!

وعند موته أوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله، وأربعمائة دينار لكل من بقي ممن شهدوا بدراً، حتى وصل للخليفة عثمان نصيباً من الوصية، فأخذها، وقال: أن مال عبد الرحمن حلال صَفُو، وإن الطُعمَة منه عافية وبركة!

وبلغ من جود عبد الرحمن بن عوف أنه قيل: أهل المدينة جميعاً

شركاء لابنِ عوف في ماله، ثُلث يقرضهم، وثُلث يقضي عنهم ديونهم، وثلث يصِلَهم ويُعطيهم!

وسنأتي على هذا بشيءٍ من التّفصيل بإذن الله!

قال النبيُّ ﷺ يوماً لأصحابه: خيركم خيركم لأهلي بعدي!

وحفظَ خيرهم الدرس جيداً، فعندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين، وكتبَ فيها نصيبَ المسلمين من الأعطيات، جعلَ أعلى راتبٍ من بيت المال هو راتب أمهات المؤمنين! ثم بعدهنّ آل بيت رسول الله ﷺ، ثم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، ثم الذين أسلموا قبل الفتح، ثم بقية الناس!

وكان عبد الرحمن بن عوف من أثرى الصحابة، وأغنياء أهل زمانه، وباع حديقةً له بأربعمئة ألف درهم، وقسم المبلغ بين أمهات المؤمنين!

وعن أم بكرٍ بنت المسور أن عبد الرحمن بن عوف باع في مرةٍ ثانية أرضاً له لعثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسم المبلغ بين بني زهرة أخوال النبي ﷺ، وبين أزواجه!

وأرسل عبد الرحمن بن عوف مع المسور نصيب عائشة

فقالت له: من أرسل هذا

فقال لها: عبد الرحمن بن عوف

فقالت: إنّ رسول الله ﷺ قال: لا يحنو عليكُنّ بعدي إلا الصابرون!

سقى الله ابن عوفٍ من سلسبيل الجنة!

كان عبد الرحمن بن عوف تاجراً موفقاً، لا يعملُ في شيءٍ إلا أجرى الله تعالى له البركة فيه!

حتى أنّه قال: لقد رأيتني لو رفعت حجراً لوجدتُ تحته فضةً وذهباً!

وأوردَ الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء، عن الزهري، قال: تصدق ابن عوفٍ على عهد رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلّمَ بشطر ماله، أربعة آلاف درهم، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، وحمل على خمسمئة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمئة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة.

وهذه والله مبالغ لو جعلتها بعملة أيامنا هذه لأصابكَ العجبُ من جوده وكرمه، ولعجبتَ أكثر من قبول الله منه، وإخلافه عليه فيما أنفق، فسبحان من وعد المنفقين بالخَلفِ، ولا أحد أوفى من الله!

وأوردَ الذّهبيُّ أيضاً في سير أعلام النّبلاء، عن جعفر بن برقان، قال: بلغني أنّ عبد الرّحمن بن عوف أعتقَ ثلاثين ألف عبد!

تأمّلْ هذا الموقف اقتصادياً وإنسانياً!

فأما اقتصادياً، فثمن العبد باهظ، وبعض العبيد يجيدون المهن والحرف، وبهذا يكون سعرهم أعلى من غيرهم، وبهذا يكون المبلغ الذي أنفقه في سبيل الله لعتقهم مهولاً!

وأما إنسانياً، فتخيّلْ عظمة هذا الموقف، أن تهبَ لثلاثين ألف إنسانٍ حرّيتهم! أن تحوّلهم من أشخاص أرقّاء يُباعون كما تُباع البضائع والسّلع، إلى أُناسٍ أحرار يملكون زمام أنفسهم!

تخيّلْ أن تُحيل ثلاثين ألف عبدٍ لا يملكون زمام أنفسهم، إلى ثلاثين ألف بيتٍ وأسرةٍ قائمة بذاتها!

إلى هذه الدّرجة بلغ جود عبد الرّحمن بن عوف!

وكان الصّحابة يُجلُّون عبد الرّحمن بن عوفٍ، ويُنزلونه قدره!

فقد أمسكه عمر بن الخطاب عن الجهاد، وأبقاه في المدينة من أهل شورته، يرجعُ إليه، ويسترشدُ في رأيه!

وقد جعله من بين السّتة التي أوصى أن يكون أحدهم الخليفة على المسلمين من بعده!

ولكنهم أول ما اجتمعوا في الدّار، أخبرهم أنه ليس راغباً في الخلافة، وأنه سيعينهم على الشورى فقط!

وأورد الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: كنا نسير مع عثمان في طريق مكة إذ رأى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عثمان: ما يستطيعُ أحد أن يعتد على هذا الشيخ فضلاً في الهجرتين جميعاً.

وفي سير أعلام النّبلاء أيضاً، أوردَ الذهبيُّ عن سعيد بن المسيّب، قال: كان بين طلحة وابن عوف تباعدٌ، فمرض طلحة، فجاء عبد الرحمن يعوده!

فقال طلحة: أنتَ والله يا أخي خيرٌ مني!

فقال له عبد الرحمن: لا تفعل يا أخي!

قال: بلى والله لأنك لو مرضت ما عدتك!

وهذه نفحة من أخلاقه رضي الله عنه!

وفي سير أعلام النّبلاء أيضاً، قال عليٌ بن أبي طالبٍ قال يوم مات عبد الرحمن بن عوف: اذهبْ يا ابن عوفٍ، فقد أدركتَ صفوها وسبقتَ رنقها!

وبالرّغم أنّ الدُّنيا قد بُسطتْ له عن آخرها، إلا أنّه بقيَ زاهداً فيها، فقد كانت في يده ولم تكن في قلبه!

وبقيَ يعرفُ حقيقتها، ولم ينسَ لأيِّ شيءٍ هو في الدُّنيا، ولا إلى أين هو عمّا قليلٍ مُرتحل

ففي صحيح البخاريّ، أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام، وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة: إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه.

وقتل حمزة، وهو خير مني!

ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وأعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام!

وعن نوفل بن إياس الهذليّ قال: كان عبد الرحمن بن عوفٍ لنا جليساً، وكان نعم الجليس، وإنه انقلب بنا يوماً حتى دخلنا بيته، ودخل فاغتسل ثم خرج، فجلس معنا، وأتينا بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وُضعت بكى عبد الرحمن بن عوف!

فقلنا له: يا أبا محمد ما يُبكيك؟

فقال: مات رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير، ولا أرانا إلا عُجلت لنا طيباتنا في هذه الحياة الدنيا.

وكما زهدَ بالخلافة في أوّل الأمر، فقد زهدَ فيها في آخره!

أورد الذهبيُ في سير أعلام النبلاء، عن عبد الرحمن بن أزهر، عن أبيه، أن عثمان اشتكى رعافاً، فدعا حمران كاتبه، فقال: اكتب لعبد الرحمن بن عوف العهد من بعدي!

فكتب له، وانطلق حمران إلى عبد الرحمن فقال: البشرى!

قال: وما ذاك؟

قال: إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده!

فقام عبد الرحمن بن عوف بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر فأمتني قبله!

فلم يمكث الا ستة أشهر حتى قبضه الله!

رحمَ الله عبد الرّحمن بن عوف، ورضيَ عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عبد الله بن سَلام!

«أنتَ على الإسلام حتى تموت»!

بهذه الكلمات بشّر النّبيّ ﷺ عبد الله بن سلام بالجنّة! شهدَ له أنّه يعيش على الإسلام، ويموت على الإسلام!

ومناسبة قول النّبيّ ﷺ هذا، هي رؤيا رآها عبد الله بن سلام في منامه، فجاء إلى النّبيّ ﷺ ليُعبّرها له!

روى الشّيخان من حديث قيس بن عبادٍ، قال: كنتُ جالسًا في مسجد المدينة، فدخل رجلٌ على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجلٌ من أهل الجنة!

فصلى ركعتين تجوّزَ فيهما، ثم خرج.

وتبعته، فقلتُ: إنك حين دخلتَ المسجد، قالوا: هذا رجلٌ من أهل الجنة!

قال: والله ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك: رأيتُ رؤيا على عهد النّبيّ ﷺ فقصصتها عليه!

ورأيتُ كأني في روضة، ذكر من سعتها وخضرتها وسطها عمود من حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: ارقَ!

قلت: لا أستطيع!

فأتاني منصف، فرفع ثيابي من خلفي، فرقيتُ حتى كنت في أعلاها، فأخذتُ بالعروة، فقيل له: استمسك فاستيقظتُ، وإنها لفي

يدي!

فقصصتها على النَّبيِّ ﷺ، فقال: تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت!

وذاك الرجل عبد الله بن سلام!

إنَّه الحَبرُ البَحرُ، عبد الله بن سلام بن الحارث، كنيته أبو يوسف، وهو من ذرِّية يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام!

كان يهودياً مقدمَ النَّبيِّ ﷺ، ثمّ أسلمَ، فهو من الذين يُؤتَوْنَ أجرهم مرّتين!

ولأنَّ الغرض من الكتاب تتبع السّمة الرئيسة الغالبة على شخصيّة الصّحابيّ، والمحركة له، أو الصّفة الغالبة عليه، فإنَّ عبد الله بن سلامٍ قد جمع الأمرين معاً!

فهو من حيث السّمة، تابعُ الحقِّ الذي لا يقيمُ وزناً لأي اعتباراتٍ إذا استبان له الحقُّ، ويكفي دليلاً على هذا أنه كان حبراً من أحبار يهود فأسلم، وهذا نادرٌ لا يعطيه الله تعالى إلا لمن علمَ في قلبه خيراً!

وأمّا الصّفة، فهو الحَبرُ البَحر، إذا جمع علم أهل الكتاب، وعلم أهل القرآن!

أمّا قصّة إسلامه، فهي واحدة من أعاجيب القصص!

روى التّرمذيُّ من حديث عبد الله بن سلامٍ قال: أول ما قدم رسول

الله ﷺ المدينة أسرع الناس إليه، فكنث فيمن جاءه، فلما تأملث وجهه، واستثبته، علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب!

وكان أول ما سمعث من كلامه أن قال: أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام!

أرأيتَ حال الإنسان الذي قلبٌ مستعدٌ لسماع الحقِّ وقبوله!

اعتزل اليهود النّبيّ ﷺ حين جاء، ولكنّ عبد الله بن سلامٍ جاءه لينظر في أمره، ولم تأخذه العزّة في دينه ألا يكون عادلاً، فقد زكّى النّبيّ ﷺ أوّل ما رآه، وحتى قبل أن يسمع منه حرفاً واحداً!

عرفث أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب!

هذه الجملة تُلخّص لكَ كلّ شيء، وثريك تلك السّمة الغالبة على شخصيّته، تابعُ الحقّ الذي لا يقيمُ وزناً لأي اعتباراتٍ إذا استبان له الحقُّ!

ولكنّ عبد الله بن سلامٍ لم يُسلم في ذلك اليوم، وإنما عاد، وقلّبَ الأمرَ بعقله طوال ليله، ثم في صبيحة اليوم التالي بدأت الحكاية!

روى البخاريُّ من حديث أنس بن مالكٍ قال: إنّ عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ!

فقال له النّبيُّ ﷺ: سَلْ!

فقال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟!

فقال له النّبيّ ﷺ: أخبرني بهنّ جبريل آنفاً!

فقال عبد الله بن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة!

فقال له النّبيّ ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب!

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت!

وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعَ إليها!

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله!

ثمّ قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي!

فجاءت اليهود، فقال النّبيّ ﷺ: أيُّ رجلٍ عبد الله بن سلامٍ فيكم؟!

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا!

فقال النّبيّ ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟!

قالوا: أعاذه الله من ذلك!

فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك!

فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!

فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وتنقصوه!

فقال: هذا الذي كنت أتخوّفُ منهم يا رسول الله!

تكشفُ لنا هذه القصّة تلك السّمة المحركة لشخصيّة عبد الله بن سلام، ذلك أنّه أول ما استبان له الحقّ تبعه فوراً!

وتكشفُ لنا صفته أيضاً، إنّه الحَبرُ البَحر، واسع الاطلاع، العالم بكتب أهل الكتاب، وهذا يظهر جليّا من أسئلته، يكفي أنّه مهّد لها: لا يعلمها إلا نبيّ!

إلى هذا الحدّ بلغ علم عبد الله بن سلام، كان عنده شيءٌ مما يعلمه الأنبياء!

ومن غزير علمه بالتوراة، ما أخرجه البخاريّ ومسلمٍ من حديث عبد الله بن عمر، قال: إنّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنّ رجلًا منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرّجم؟

فقالوا: نفضحهم ويجلدون!

فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنّ فيها الرّجم!

فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرّجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها!

فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم!

فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرّجم!

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما!

قال عبد الله: فرأيتُ الرّجلَ يجنأ على المرأة يقيها الحجارة!

ها هو عبد الله بن سلام، يكشفُ لنا مجدداً عن سمته وصفته!

فأما سمته، فمتبع للحقِّ لا تأخذه في الله لومة لائم، وها هو يُكذِّبُ اليهود، ويخبرهم أنّ آية الرّجم في التوراة!

وأما صفته، فهو الحَبْرُ البحرُ الذي يحفظُ التوراة عن ظهر قلب!

كان يحفظُ ما قبل آية الرّجم، وما بعدها، وعندما وضع اليهوديُّ الذي يقرأ يده على آية الرّجم، وقرأ ما قبلها، وما بعدها، طلب منه عبد الله بن سلامٍ أن يرفع يده، لأنه يعلمُ أنّه يريدُ أن يُخفيها!

نزلَ في عبد الله بن سلامٍ قرآن، فجمعَ فخرَ الشّهادتين، شهادة ربِّ العالمين، وشهادة رسوله!

أخرج البخاريُّ ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: ما سمعتُ النّبيّ ﷺ، يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام!

قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

وتوّج عبد الله بن سلامٍ هذا الإيمان كلّه بالتّواضع!

عن عبد الله بن حنظلة أنّ عبد الله بن سلام مرّ في السوق، عليه حزمة من حطب، فقيل له: أليس أغناك الله؟

قال: بلى، ولكن أردتُ أن أقمعَ الكبر!

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر!

رحم الله عبد الله بن سلامٍ، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة عند حوض النّبيّ ﷺ!

# عمرو بن الجموح!

«كأني أنظرُ إليكَ تمشي برجلكَ هذه صحيحةً في الجَنّة!»

بهذه الكلمات بشّرَ النّبيُّ ﷺ عمرو بن الجموح بأنّ شهادته قد قُبلت!

كان الجسدُ طريحاً على تراب أُحدٍ، أمّا الرُّوح فكانت في جنّاتِ النّعيم!

عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غُنم بن سلمة الأنصاري السلمي.

وهو واحد من زعماء المدينة في الجاهلية والإسلام، وسيد من أشراف بني سلمة، وكان مصاهرًا لعبد الله بن عمرو بن حرام؛ فقد كان زوجًا لأخته: «هند بنت عمرو»

وكانت تربطهما علاقة صداقة ومحبّةٍ، كانت حديث النّاس، ومحطّ إعجابهم!

وبينما النبيُّ ﷺ يُشرِفُ على دفن شهداء غزوة أحد قال:

«اِدفِنُوا عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام

في قبرٍ واحدٍ، فإنهما كانا مُتحابين»

قصّة إسلامه طريفة تُروى، وحدثٌ يُعتبرُ منه، وسبحان من إذا أراد أن يشرح صدر عبده للإسلام شرحه على مصراعيه، فصبّ فيه الحقّ صبًا، فقام من لحظته مؤمناً سويًا كأنه ما مسّته لوثة الشِّركِ من قبل!

على عادة الجاهليين كان الزعماء والأشراف يتخذون لأنفسهم صنمًا خاصًا يعبدونه، غير تلك الأصنام التي نُصبت في محافل العامة، ويقصِدونها كل حين، وعمرو قد اتخذ لنفسه صنمًا كعادتهم وسماه: منافاً!

وقد شاء اللهُ سبحانه أن يُسلمَ ابنه معاذ قبله!

واتفق الشاب معاذ بن عمرو بن الجموح مع صديقه معاذ بن جبل، أن يجعلا هذا الصنم عبرةً، فتقوم الحجة على عابده بأنه لا يصلح للعبادة، فهو لا يَملك لنفسه نفعًا، فضلاً عن أن يدفع الضرّ عمّن يعبده، أو أن يجلبَ له نفعًا!

ويتوجّه الشابان في ظلام الليل إلى الصنم «مناف»، فيحملانه، لإلقائه في حفرة يَطرح الناس فيها فضلاتِهم!

فإذا لم يجد عمرو الصنم بحث عنه حتى يجده في هذه الحفرة، فيغضب قائلاً: ويلكم! من عدا على آلهتكم هذه الليلة؟

ثم يزيل هذه النجاسات عنه، ويُطيِّبه، ويضعه في مكانه.

ويكرّر الشابان فَعلتهما بالصنم كل ليلة، حتى سئِم عمرو، وجاء بسيف ووضعه على عنق الصنم، وخاطبه قائلاً: إن كان فيك خيرٌ، فدافِع عن نفسك!

فلما أصبح، لم يجده مكانه، بل وجده في نفس الحفرة مقترنًا بكلب ميتٍ بحبل وثيق، وقد ثارت ثائرته حينما رأى هذا التحدي السائرَ بين جند الرحمن وجند الشيطان!

وهنا اقترب منه بعضُ الشرفاء الذين شرِحت قلوبهم للإسلام،

ووازَنوا له بين الإله الحق الذي بيده مقاليد السماوات والارض، وبين آلهة لا تسمعُ ولا تبصر، ولا تغني عن نفسها شيئًا، ولا عن عابديها شيئًا، ولا تدفع عنهم ضرًا!

وقد أراد الله تعالى بعمرو خيرًا، إذ إنه أقبل بسمعِه وعقله وقلبه إلى ما يذكره المؤمنون من أدلة تبيِّن أنّ المعبود بحقٍّ هو الإلهُ الواحد، وأن الأصنام لا تستحق هذا التعظيمَ، ولا تلك العبادة، وعندها طهُر ظاهره وباطنه، وشهِد أن لا إله الا الله، وشهِد أن محمدًا رسولُ الله.

وقال في ذلك أبياتًا منها:

تاللهِ لو كنتَ إلهاً لم تكُنْ

أنتَ وكلبٌ وسْطَ بئرٍ في قَرَن

أفٍّ لمصرعِك إلهاً يستدن

الآن فلنتثانك عن سوء الغبن

فالحمد لله العلي ذي المنن

الواهب الرزق وديان الدِّين

هو الذي أنقذني مـن قبل أن

أكون في ظلمة قبـر مرتهن

كان عمرو بن الجموح في الجاهلية جواداً كريماً، سخيّ الكفّ، لا يردُّ سائلاً!

فلما أسلم زاد جوداً على جوده!

سأل النّبيُّ ﷺ جماعة من قبيلة عمرو بن الجموح.

فقال: من سيّدكم يا بني سلمة؟

فقالوا: الجدُّ بن قيس على بخلٍ فيه!

فقال: وأي داءٍ أدوى من البخل؟!

بل سيدكم: الجعد الأبيض، عمرو بن الجموح!

والآن، بعد هذا التّقديم، وصلَ بنا المطاف إلى الغرض الذي لأجله كان هذا الكتاب، ألا تتبّع السّمة الغالبة والمحركة لشخصيّة الصحابيّ، أو لتلك الصّفة التي عُرف بها!

والحديث عن عبد الله بن عمرو، حديثٌ عن الصّفة، فهو الرّجلُ الذي دخلَ بعرجته الجنّة!

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أولادٍ كالأُسود شجاعةً وإقداماً شهدوا مع النبيّ ﷺ بدراً.

فلما كانت غزوة أُحدٍ وأرادوا الخُروج في جيش المسلمين أرادوا حبسه، وقالوا له: إنّ الله عزّ وجلّ قد عذركَ.

فأتى النبيّ ﷺ وقال له: إنّ بَنِيّ يُريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، واللهِ إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة!

فقال له النبيُّ ﷺ: أما أنتَ فقد عذركَ الله، فلا جِهاد عليكَ.

وقال لأولاده: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقَه الشّهادة!

فأذِنوا له بالخروج فخرجَ، وفي الطريقِ قال للنبيّ ﷺ: أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيل اللهِ حتى أُقتل، أمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة؟!

فقال له: نعم!

فقُتِلَ يوم أُحُد، فمرّ عليه النبيُّ ﷺ وهو بين القتلى وقال له: كأني أنظُرُ إليكَ تمشي برجلكَ هذه صحيحةً في الجَنّة!

يا لها من بطولةٍ يا عمرو بن الجموح، تخرجُ للجهاد وقد تخلّفَ كثيرٌ من الأصحَاب، يا له من درسٍ بليغٍ مفاده: سِرْ إلى الله على أيّةِ حالٍ كنت! لا تدعْ شيئاً يُكبلك، تحاملْ على نفسك فإنها أيام تمضي والموعد الجنة إن شاء الله!

من أكثر ما يُدني الناس من الجَنّة فعل الخير طلباً لرضى الله ولو لم يفعلوا عُذروا ولم يلُمْهم أحدا!

البطنُ الجائعُ الذي تُطعمه وليس بينك وبينه قُربى ولا رَحِم تبتغي بذلك وجه الله خطوة إلى الجنة!

والخلافُ الزوجيُّ الذي تُنهيه وليس بينك وبين الزوجين قُربى ولا رَحِم تريدُ بهذا الصلح أن تجمعَ الأُسرة، وتحفظَ الأولاد من الضياع تبتغي بذلك وجه الله خطوة إلى الجنة!

الحقُّ الذي تُحاول أن تعيدَه لأصحابه لا ناقة لكَ ولا جملَ فيه تبتغي بذلك وجه الله هو خطوة إلى الجنة!

الولدُ العاقُّ الذي تُعيدُه إلى بِرِّ أبيه ولا يربطك بالاثنين رَحِم ولا قُربى خطوة إلى الجنة!

المريضُ الذي تسعى في علاجه، والمسكينُ الذي تساعده في الحصولِ على عملٍ، والأرملةُ التي تُغنيها عن سؤالِ الناس، كل هؤلاء خطوات إلى الجنة، وما تُعُبِّدَ الله بشيءٍ أحسن من الإحسان إلى خلقه!

رحمَ الله عمرو بن الجموح، ورضي عنه، وجمعنا به يوم القيامة خلف حوض النّبيّ ﷺ!